العرب في التاريخ

تأليف
برنارد لويس
استاذ تاريخ الشرقين الأدنى والاوسط
في جامعة لندن

تعريب

نبيه أمين فارس
رئيس الدراسات العربية
في جامعة بيروت الأميركية

محمود يوسف زايد
أحد مدرسي التاريخ الإسلامي
في جامعة بيروت الأميركية

دار العلم للملايين
بيروت
١٩٥٤

العرب في التاريخ

تأليف

برنارد لويس

استاذ تاريخ الشرقين الأدنى والاوسط
في جامعة لندن

تعريب

نبيه أمين فارس
رئيس الدراسات العربية
في جامعة بيروت الأميركية

محمود يوسف زايد
أحد مدرسي التاريخ الإسلامي
في جامعة بيروت الأميركية

دار العلم للملايين
بيروت
١٩٥٤

هذا الكتاب ترجمة لكتاب

The Arabs In History

تأليف

BERNARD LEWIS
Professor of The History of The Near And Middle East In The University of London

وقد تفضل المؤلف فأذن للمعربين بنقله الى العربية .

الطبعة الاولى

آذار ، ١٩٥٤

« عرض عام للتاريخ العربي حتى العصر الحاضر ، موزون يستحق القراءة . »

هـ . أ . ر . جب

كلمة المعربين

كنا نشعر بحاجة القارىء العربي إلى كتاب يعرض في إيجاز ووضوح تاريخ العرب المدون ، ويخلو مما يثقل في العادة كتب التاريخ من تفاصيل وسنين وحواشٍ ، ويبرز خصائص كل دور من أدوار تاريخ العرب . ولهذا وقع اختيارنا على كتاب « العرب في التاريخ » « The Arabs in History » تأليف الأستاذ برنارد لويس . فهو بحث علمي موجز في تاريخ العرب يقف عند الأحداث الهامة فيتناولها في أسلوب علمي دقيق بالنقد والتحليل والتفسير دون الالتفات الى التفاصيل .

ولم نضف الى الكتاب إلا تعليقات يسيرة ، وبعض الايضاحات التي اقتضاها إيجاز الاصل ، وقد أشرنا إلى هذه الاضافات . ووضعنا الايضاحات بين معقّفات كبيرة .

ولا بد لنا من شكر حضرة المؤلف على تفضله بالاذن لنا بنقل كتابه إلى العربية ، وعلى معاونته لنا في إيجاد بعض النصوص التي أوردها في كتابه والتي اقتبسها من المصادر العربية الأولية .

ونرجو أن نكون قد قدمنا بهذا العمل بعض ما علينا من واجب نحو قراء العربية والله من وراء القصد .

المعربان

تصـــدير

●

ليس هذا الكتاب تاريخاً للعرب بقدر ما هو رسالة أو مبحث يقصد الى التعليل والتفسير . فبدلاً من أن أحشر موضوعاً واسعاً كهذا في لائحة عظيمة من التواريخ والأحداث ، حاولت أن أغربل وأمحّص بعض القضايا الأساسية في هذا المضمار ، من مثل مركز العرب في التاريخ الانساني ، وحقيقـــة أصلهم ومآثرهم ، والخصائص البارزة التي تميز تطورهم خلال العصور .

وليس من الميسور ، بل ليس من المستحسن ، في أمثال هـذه المباحث ، أن نشير الى مصدر كل واقعة نمر بهـــا أو كل رأي نعتمده . وعلماء المشرقيـات سيدر كون ، لأول وهـلة ، كم أنا مدين لأساطين الدراسات التاريخية الاسلاميـة ، الأحياء منهم والأموات . وفي مـــا بقي ، لا يسعني إلا أن أعـــبّر عن عظيم ديْني لمن سبقني إلى تدريس التاريخ الشرقي (في جامعة لندن) ولأساتذتي وزملائي وطلابي الذين ساعدوا جميعاً ، بطرق مختلفة ، عـــلى تكوين نظرتي إلى التاريخ العربي كما ستجلوها الصفحات التالية .

وإني لاوجه شكري الخاص الى الاستاذ جب H. A. R. Gibb والدكتور هايـدت U. Heydt ، والدكتور رايس D. S. Rice لقراءتهم ونقدهم مخطوطة الكتاب ، كما أوجه شكري الى الآنسة بردجس لاعدادها فهرست الاعلام .

برنارد لويس

مقدمة

من هو العربي ؟ من المعروف أن تحديد المصطلحات الجغرافية البشرية من الأمور الصعبة ، وليس تحديد لفظ « العربي » من أسهلها . هناك حد ممكن ، ولكننا نطرحه جانباً في الحال . فالعرب قد يكونون أمة ، ولكنهم ليسوا بعدُ جنسية بالمعنى القانوني. فالرجل الذي يدعو نفسه عربياً قد يُنعت في وثيقة سفره بأنه ذو جنسية سورية أو لبنانية ، فلسطينية أو مصرية، عراقية او سعودية عربية ، ولكن لا يُنعت بأنه عربي. وهناك دول عربية بل وجامعة دول عربية . ولكن ليس ثمة بعدُ دولة عربية واحدة يكون العرب كلهم مواطنين فيها .

بيد أنه إذا لم يكن للعروبة مفهوم قانوني فذلك لا يقلل من حقيقة وجودها . فاعتزاز العربي بعروبته، وشعوره بالروابط التي تربطه إلى غيره من العرب ،قدماء أو معاصرين ، ليسا أقل متانة . فهل العامل الموحد إذاً عامل لغة — وهل العربي هو من يتكلم العربية لغة أصيلة له ؟ هذا الجواب مقنع عند النظرة الاولى ، ولكن ثمة صعوبات . فهل اليهودي العراقي او اليمني الناطق

بالعربية ، وهل النصراني المصري أو اللبناني الناطق بالعربية عربي؟ قد يظفر الباحث بأجوبة مختلفة بين هـؤلاء الناس أنفسهم وبين جيرانهم المسلمين . بل هل المسلم المصري الناطق بالعربية عربي ؟ إن كثرة منهم يعتبرون أنفسهم كذلك . غير أن هـذا لا ينطبق على جميعهم. ولا يزال لفظ «العربي» يستعمل في عامية مصر والعراق ليميز البدوي المقيم في الصحارى المجـاورة من السكان الاصليين . وتستعمل بعض الطبقات ، تعبيراً غليظاً هو « الناطق بالعربية » تمييزاً للذين يتكلمون العربية لا غير من الذين هم عرب أقحاح . وقد حدد اجتماع لزعماء من العرب ، منذ سنوات عدة ، العربيّ بهذه الكلمات : **كل من يعيش في بلادنا ويتكلم لغتنـا ، وينشأ على ثقافتنا ، ويعتز بأمجادنا ، فهو منا**. ولنقارن بهذا الحد حداً مأخوذاً من مرجع أوروبي كفؤ هـو جب الاستاذ بجامعة أكسفورد اذ يقول : « ان العرب هم الذين يعتبرون رسالة محمـد وذكرى الدولة العربية نقطة الارتكاز في التاريـخ ، والذين بالاضافة الى ذلك يرون اللغة العربية وتراثها الثقـافي ملكهم المشترك . » وكلا التعريفين كما هو بيّن ليس لغوياً ، لان كلًا منهما يضيف مقوماً ثقافياً ، وأحدهما على الاقل يضيف مقومـاً دينياً . وكلاهمـا ينبغي ان يفسّر تاريخياً . اذ لا يرتجى فَهْم الاصطلاح منذ استعماله البدائي المحدود في الازمنة القديمة حتى معناه الواسع اليوم ، وإن يكن غير واضح الحدود تمـاماً ، إلا من خلال تاريخ الشعوب التي تسمى عربية. وكما سنرى فان دلالة كلمة « عربي » كانت تتغير باستمرار خلال هـذه المدة الطويلة . واذا

كان هذا التغيير بطيئاً معقداً واسعاً، فسنرى أن الاصطلاح يمكن استعماله في معان عدة مختلفة في الوقت عينه، وأن حداً عاماً متفقاً عليه لمفاهيمه نادراً ما كان ممكناً.

وأصل كلمة «عربي» ما يزال غامضاً على الرغم من أن علماء اللغة قد قدموا تفسيرات تختلف جودةً وقبولاً. فبعضهم يرى أن الكلمة مشتقة من جذر أو أصل سامي بمعنى «الغرب» أطلقه أول ما أطلقه سكان ما بين النهرين على الشعوب الواقعة إلى غرب وادي الفرات. وهذا الاشتقاق عرضة لشك يقوم على أساس لغوي خالص. وقد يُعترض بأن العرب أنفسهم كانوا يستعملونه، وأنه لا ينتظر أن ينعت قوم انفسهم بكلمة تدل على موقعهم بالاضافة الى غيرهم. وأجدى من هذا المحاولةُ التي تربط الكلمة بمفهوم البداوة. فربطها بعضهم بالكلمة العبرية «عرابا» أي الارض السوداء او الحرة؛ وربطها غيرهم بالكلمة العربية «عيرب» أي الحياة غير المنظمة خلافاً لحياة الجماعات المستقرة المنظمة التي يرفضها البذوي ويحتقرها، وربطها آخرون بالاصل «عابار» أي ينتقل أو يمر، وهو الأصل الذي يحتمل ان تكون كلمة عبري مشتقة منه. وقد تولد ارتباط المعنى بالبداوة من أن العرب انفسهم، على ما يظهر، استعملوا الكلمة منذ زمن قديم ليميزوا البدوي من سكان المدن والقرى الناطقين بالعربية. بل وما يزالون يفعلون ذلك، الى حد ما، حتى يومنا هذا. والاشتقاق العربي المأثور الذي يشتق الاسم من فعل «أعرب» ومعناه «أبان او أفصح» يكاد يكون بالضبط قلباً للتطور التاريخي.

وأقدم ذكر وصلنا عن بلاد العرب والعرب هو الوارد في الاصحاح العاشر من سفر التكوين حيث يرد ذكر كثير من شعوب شبه الجزيرة وديارها بالاسم . ولكن كلمة عربي لا ترد في هذا النص ، وتظهر لاول مرة في نقش آشوري بتاريخ ٨٥٣ق.م يسجل فيه الملك شلمانصر الثالث كيف أحبطت الجيوش الاشورية مؤامرة أمراء صغار ثائرين اسم أحدهم « جِنْدِبُ العَرِبِي » الذي أمدّ جيوش المتحالفين بألف بعير . ومنذ ذلك الحين تتكرر الاشارة الى « العريبي » و « العرب » و « العُرب » ، في النقوش الاشورية والبابلية. فهذه النقوش تسجل استلام الجزية من الحكام الـ « عريبي » ، وتحتوي على جمال وأشياء اخرى تدل على أصل صحراوي . وتورِد أحياناً أنباء حملات عسكرية داخل بلاد الـ « عريبي ». ويصحب بعض النقوش المتأخرة رسوم للعريبي وجمالهم. ومن الجلي ان هذه الحملات على العريبي لم تكن حروبَ فتح ، بل كانت حملات تأديبية ، الغاية منها أن ترد البدوَ الخارجين عن الطاعة الى واجبهم كأتباع للأشوريين . وكانوا يقومون على خدمة الهدف العام من تأمين التخوم الاشورية وخطوط المواصلات. والعريبي المذكورون في النقوش قوم رحل يعيشون في شمال بلاد العرب في البادية بين الشام وبلاد العرب على وجه الاحتمال ، ولا يشملون أهل الحضارة المستقرة المزدهرة في جنوب غرب بلاد العرب الذين تشير اليهم السجلات الاشورية إشارة منفصلة. ويمكن أَن نعتبرهم العرب المذكورين في أسفار العهد القديم المتأخرة . وحوالى ٥٣٠ ق. م. يبدأ لفظ « عرابايا » يظهر

في الوثائق الفارسية المسمارية .

وأقدم إشارة كلاسيكية هي عند ايسخلوس الذي يذكر في « بروميثيوس » بلاد العرب Arabia على أنها بلاد نائية يأتي منها المحاربون برماح دقيقة النصال . وربما كان ماجوس آرابوس Magos Arabos الذي يرد ذكره في رواية «الفرس» على أنه احد قواد جيش أحشويروش ، عربياً كذلك. وفي الكتابات اليونانية نجد لاول مرة اسم بلاد العرب Arabia مطلقاً على المكان،ومبنياً قياساً على كلمة ايطاليا الخ . فهيرودتس ومعظم كتاب اليونان واللاتين الاخرين من بعده يطلقون لفظي « بلاد العرب »و«عربي» على شبه الجزيرة كلها وعلى سكانها بما فيهم العرب الجنوبيون ، بل وصحراء مصر الشرقية بين النيل والبحر الاحمر . واللفظ في هذا الحين وعلى صورته هذه يبدو أنه يطلق على جميع المناطق الصحراوية في الشرقين الأدنى والاوسط التي تسكنها شعوب ناطقة باللغات السامية . وفي الادب اليوناني ، كذلك ، يشيع لاول مرة لفظ « سَراسِن » (١) . وتظهر هذه الكلمة أول الامر في النقوش القديمة ، ويبدو انها اسم قبيلة صحراوية واحدة في منطقة سيناء. وتستعمل في الادب اليوناني واللاتيني والتلمودي لتدل على الرّحل عامة ، وأطلقت فيما بعد في بيزنطة والغرب في العصور الوسطى على الشعوب الاسلامية كافة .

ويرد أول استعمال عربي للكلمة في النقوش العربية الجنوبية

---

(١) « من سراكينو » اليونانية . وقد تعود هذه الكلمة الى أصل عربي هو « شرقي » . (المعربان)

القديمة والتي هي من آثار الحضارة الزاهرة ، التي أقامها في اليمن الفرع الجنوبي من الشعوب العربيـــة ، والتي يرجع تاريخها الى القرون الاخيرة قبل المسيح والقرون المسيحية الاولى . وتعني كلمـة « عربي » في هذه النقوش « البدوي » ، وغالباً ما تعني « المغير » . وتطلق على الرحل تمييزاً لهم من الحضر . وترد كلمة عربي في الشمال، أول ما ترد ، في نقش النمارة الذي يرجـــع الى أوائل القرن الرابع ، وهذا النقش من أقدم الوثائق الباقية في اللغة العربيةالشمالية التي أصبحت فيما بعد العربيةَ الفصحى . ويسجل هذا النقش المكتوب بلغة عربية ، لكن بخط نبطي آرامي ، وفاة امرىءالقيس « ملك العرب كلهم » وأعمالَـه في ألفاظ توحي بأن السيادة التي يدعيها لم تكن تتعدى مضاربَ البدو في شمال الجزيرة العربية ووسطها .

ولم يصلنا شيء ثابت عن استعمال الكلمةفي وسط جزيرةالعرب وشمالها إلا عند ظهور الاسلام في اوائل القرن السابع . فالعرب عند محمد وأهل زمنه هم بدو الصحراء . ويرد لفظ « الأعراب » في القرآن بهذا المعنى دون غيره ، ولا يرد أبداً ليدل على الحضر من أهل مكة والمدينة وغيرهما من المدن . ومن الناحيةالأخرى تسمى لغة هذه المدن ولغة القرآن نفسه عربية . وهنا نجد جذور الرأي الذي ساد فيما بعد ، وهو أن أصح صور العربية هي عربية البدوي الذي حفظ بأمانة أوفى من غـــيره ، الأسلوب العربي الاصلي في الحياة واللغة .

وقد نشرت موجات الفتوح العظيمة ، التي تلت وفاة الرسول وإقامة الخلافة من قِبَل خلفائه لأمامة الجماعة الاسلامية الحديثة ، اسمَ العرب على قارات آسيا وافريقية وأوروبا الثلاث ، ووضعته على رأس حقبة حيوية ، وان لم تكن طويلة ، من تاريخ الفكر والجهد الانسانيين . فقد أسّس شعوب بلاد العرب الناطقون بالعربية ، البدوي منهم والحضري على حد سواء ، دولة واسعة تمتد من أواسط آسيا الى الأطلنطي . ووجد العرب أنفسهم وسط خليط من الشعوب يختلف عنصراً ولغةً وديناً ، فكوّنوا بينهم أقلية حاكمة من الفاتحين والسادة ، الاسلام دينهم القومي وشعارهم في الحرب ، والدولة الجديدة غنيمتهم . وأصبحت الفروق الجغرافية البشرية بين قبيلة وقبيلة ، كما اصبحت الفروق الاجتماعية بين الحضر والبدو ، مدة من الزمن ، أقلَّ أهمية من الفرق بين سادة الدولة الجديدة وبين الشعوب المتباينة التي قهروها . وخلال هذه الفترة الأولى من التاريخ الاسلامي ، عندما كان الاسلام ديناً عربياً خالصاً والخلافة دولة عربية ، صار لفظ « العربي » يطلق على من يتكلمون العربية ، وينتسبون نسباً صحيحاً الى قبيلة عربية ، وولدوا أو ولد أسلافهم في بلاد العرب . وكان لفظ « العربي » كافياً لتمييز العرب من مجموعة الفرس والسوريين والمصريين وغيرهم الذين أدخلتهم الفتوح العظيمة في الحكم العربي كما كان يميزهم كعنصر حاكم من غيرهم من المقيمين خارج دار الاسلام . ومعاجم اللغة العربية الفصحى الاولى تعطي صيغتين لكلمة عربي ، وهما عرب وأعراب . وتخبرنا ان الثانية

تعني « بدوي » على حين كانت الأولى تستعمل في المعنى الأوسع المبين آنفاً . وهذا التفريق ، ان صحّ - وكثير مما في المعاجم الاولى لا يصدق الا في المعاجم - لا بد انه يعود الى هذه الحقبة. وليس من دليل عليه قبل ذلك . ويبدو انه لم يعمر طويلا .

وقد أخذت الخلافة منذ القرن الثامن تتحول تدريجياً من دولة عربية الى دولة اسلامية . وكان الانتساب الى هذه الطبقة الحاكمة تقرره العقيدة لا النسب . وإذْ أخذت اعداد متزايدة من الشعوب المقهورة تدخل في الاسلام ، لم يعد هذا الدين المعتقدَ القومي او القبلي للعرب الفاتحين ، بل اكتسب الصفة العالميـــة التي لا يزال يحتفظ بها منذ ذلك الحين . فان تطور الحياة الاقتصادية،وانقطاع حروب الفتح التي كانت تمثل النشاط الرئيسي المثمر عند العرب ، أوجدا طبقة حاكمة من الاداريين والتجار مختلفةَ الجنس واللسان ، الامر الذي قضى على الارستقراطية العربية العسكرية التي خلقتها الفتوح . وقد انعكس هذا التغيير في نظام الحكومة والقائمين عليها.

وبقيت اللغة العربية اللغـة الرسمية الوحيدة واللغة الاولى في الادارة والتجارة والثقافة . وكانت حضارة الخلافة الغنية المنوعة ، التي أنتجها رجال من جميع الشعوب والعقائد ، عربيةً في لسانها ، بل وعربية في طابعها . وقد اعترض بعضهم على مظاهر هـــذه الحضارة المختلفة بأنها «عربية» بناءً على ان مآثرَ أولئك المتحدرين من أصل عربي في « الطب العربي » و« الفلسفة العربيـــة » ضئيلة بالنسبة الى مآثر غيرهم . بل إن استعمال كلمة « مسلم » كان كذلك موضع نقد عند بعضهم ، حيث ان كثيرين من بُناة هذه

الحضارة كانوا نصارى او يهوداً . ولهذا اقترح آخرون استعمال لفظ « اسلامي » لانه يقوم على مفهوم ثقافي لا مفهوم ديني أو قومي خالص ، ولكن المقومات العربية الصحيحة لحضارة الخلافة أعظم مما قد يبدو من مجرد النظر في أصول مبدعيها العنصرية . ولاستعمال لفظ « عربي » ما يبرره شريطةَ ان يُحدد فرق واضح بين مفاهيمه الثقافية ومفاهيمه الجغرافية البشرية . ونقطة اخرى مهمة وهي ان حضارة الخلافة العربية بمفهومها الواسع في وعي العرب الجماعي اليوم هي تراثهم المشترك ، والعامل المكون لحياتهم الثقافية .

وفي الوقت نفسه كان مدلول كلمة « عرب » البشري يتغير ايضاً . فقد صاحب انتشارَ اللغة العربية انتشارُ الاسلام بين الشعوب المغلوبة . وقد زاد هذا التطور سرعةَ توطن اعداد من العرب في الأمصار، كما زاد فيه ، منذ القرن العاشر فما بعد ، ظهور عنصر حاكم جديد وهو الاتراك . فخضع لهم الجميع ، ولم يعد ثمة أهمية للتفريق بين أبناء الفاتحين العرب وبين اهل البلاد المستعمرين . وفي جميع الامصار تقريباً الواقعة غرب بلاد فارس ، ماتت لغاتُ أهل البلاد القديمة ، واصبحت اللغة العربية لغةَ التخاطب الرئيسية . ومنذ العصور العباسية المتأخرة وما بعدها ارتدّت كلمة العرب الى مدلولها القديم من بدو او رحل ، واصبحت في الحقيقة مصطلحاً اجتماعياً قبل ان تكون مصطلحاً جغرافياً بشرياً وتستعمل في كثير من تواريخ الحروب الصليبية الغربية لتدل على البدو فقط ، في حين

يسمى مجموع السكان المسلمين في الشرق الأدنى « سراسن » . ومما لا شك فيه ان تاسو يوردها بهذا المعنى في القرن السادس عشر حين يقول :

وعرب آخرون فيما بعد ، يكدون باستمرار
ومن المؤكد انهم ليسوا من اهـل القرار .

(تاسو ، القدس المحررة ١٧ : ٢١)

ويستعمل ابن خلدون ، المؤرخ العربي من علماء القرن الرابع عشر ، والذي كان هو نفسه حضرياً من سلالة عربية ، الكلمةَ – عادة – بهذا المعنى .

وكان الأساس الاوّل في تصنيف الناس في هذه الاوقات دينياً . فالأقليات الدينية المختلفة كانت تنتظم في جماعات دينية سياسية لكل منها رؤساؤها وقوانينها . وكانت الغالبية تؤلفها « أمه الاسلام » التي كان أفرادها يَروْن أنفسهم في الدرجة الاولى مسلمين . وعندما كانت الضرورة تقضي بالتوسع في التصنيف كان هذا يحدث على أساس اقليمي – كمصري وشامي وعراقي ، او اجتماعي – كحضري وريفي وبدوي . واقتصرت كلمة « العرب » على هؤلاء الأخيرين . وقد استبقى اللفظ قليلاً جداً من معناه الجغرافي البشري ، حتى إننا نجده يطلق في بعض الأحيان على غير العرب من البدو والاكراد او التركمان . وعندما كانت الطبقة الاجتماعية البارزة في « أمة الاسلام » تركية

في الدرجة الاولى – كما كان الحـــال في الشرق الادنى قروناً عديدة - نجد اصطلاح « أبنـاء العرب » أو « أولاد العرب » يُطلق أحياناً على الحضر وأهل الريف الناطقين بالعربية تمييزاً لهم من الطبقة التركية الحاكمـة من جهـة ، ومن الرحل أو العرب الاصليين من جهة أخرى .

ولا تزال هذه الحالة باقية في اللغة العربية العامية لم تتغـير في حقيقتها حتى يومنا هذا ، على الرغم من أن أناساً آخرين حلوا محل الأتراك كطبقة حاكمة . ولكن تغييراً بعيد الاهمية والدلالة قد حدث بين المثقفين في البلاد الناطقة باللغـــة العربية . فان انتشار النشاط والنفوذ الاوروبيين في هذه البلاد انتشاراً سريعـاً جلب فكرة « الامة » الاوروبية على أنها مجموعة من الناس لها موطن مشترك ، ولغة مشتركة ، وشخصيـة مشتركة ، وأهداف سياسية مشتركة . وقد حكمت الدولة العثمانية معظم الشعوب الناطقة بالعربية في الشرقين الادنى والاوسط منذ سنة ١٥١٧ م . وقد ترتب على الاثر الذي أحدثته هذه الفكرة في شعب كان عـلى أبواب تحول اجتماعي عنيف بسبب دخول الاستعمار الغربي ، أن ظهرت بواكير بعث عربي وحركة عربية قوميـة تهدف الى خلق دولة أو دول مستقلة . وقد بدأت الحركة في الشام . ويبدو أن زعماءها كانوا يفكرون في حدود تلك البلاد فقط . وسرعان ما امتدت الى العراق ، وأقامت في السنوات الاخيرة علاقات متينة مع الحركات القومية المحلية في مصر ، بل وفي أقطار شمالي إفريقية الناطقة باللغة العربية . والعرب عند القائلـــين بنظريات القومية

العربية أمة بالمعنى الاوروبي تضم ، في حدود معينة ، جميع الذين يتكلمون العربية ويعتزون بذكرى المجد العربي الماضي . وتختلف الآراء في هذه الحدود : فبعضهم يرى أنها تضم الاقطار الجنوبيـة من غربي آسيا الناطقة بالعربية فحسب ، ويضيف غيرهم مصر ، على الرغم من أن كثيرين من المصريين الذين يتصورون قوميتهم في حدود مصرية خالصة يخالفون هذا الرأي . ويُدخل كثيرون في هذه الحدود جميع الاقطار الناطقة بالعربية من مراكش الى حدود فارس وتركيا . ولم يعد الحاجز الاجتماعي بين الحضر والبدو ذا قيمة من وجهة النظر هذه على الرغم من بقائه في الاستعمال العامي لكلمة عرب بمعنى « بدو » . اما الحاجز الديني في مجتمع حكمته العقيدة الثيوقراطية طويلاً فإن اطراحه جانبـاً ليس سهلاً . اما أولئك الذين يتكلمون العربية وفي الوقت نفسه لا يقبلون العقيدة العربية ، وبالتالي لا يقبلون الكثير من الحضارة التي نشأت في احضانهـا ، فلا يزال كثيرون من العرب ينكرون عليهم عروبتهم ، مع أن بعض دعاة العروبة يعترفون لهم بها .

وخلاصة القول اذاً اننا نلتقي بلفظ «عربي» لأول مرة في القرن التاسع ق.م. نعتاً لبدو الصحراء في بلاد العرب الشمالية ، وقد بقيت مستعملة بهذا المعنى عدة قرون بين سكان البلاد المجـاورة المستقرين . وقد اتسع مدلولهـا لأول مرة في الاستعمال اليوناني والروماني ليمتد على شبه الجزيرة كلها ، وتشمل سكان الواحات المتحضرين وحضارة الجنوب المتقدمة نسبياً . امـا في بلاد العرب نفسها فيبدو انها كانت لا تزال مقصورة على البدو ، على الرغم من

ان اللغة المشتركة بين سكان البلاد من حضر وبدو كانت تسمى « العربية ». وبعد الفتوح الاسلامية ، وخلال فترة الدولة العربية ، كانت تميز طبقة الفاتحين ذوي النسب العربي الحاكمة الناطقة بالعربية من مجموع الشعوب المقهورة . ولما تحولت الدولة العربية الى دولة اسلامية متشابكة الاجناس ، أصبحت تعني – في الاستعمال الخارجي دون الداخلي على الاصح – ثقافة تلك الدولة المتنوعة التي انتجها رجال من عناصر وأديان كثيرة لكن باللغة العربية ، وخضعت للذوق والتقاليد العربية ومع تمازج العرب الفاتحين والشعوب المقهورة المستعربة ، وخضوعهم جميعاً لعناصر حاكمة أخرى ، جعلت تفقد بالتدريج مفهومها القومي ، وصارت مصطلحاً اجتماعياً يطلق فقط على البدو الذين حافظوا بأمانة اكثر من غيرهم على الأسلوب العربي الأصلي في الحياة واللغة . وكان سكان المدن المتحضرة الناطقون بالعربية يعتبرون عادة مسلمين فقط ، وأحياناً « ابناء عرب » أو « اولاد عرب » تمييزاً لهم من المسلمين الناطقين بلغات أخرى . وبينما بقيت جميع هذه الاستعمالات المختلفة الى يومنا هذا دارجة في قرائن مختلفة ، ولد استعمال جديد تحت تأثير الغرب ، واصبح في السنوات الخمسين الأخيرة يتزايد اهمية ، وهو الاستعمال الذي يعتبر الشعوب الناطقة بالعربية امة او مجموعة من الأمم الشقيقة بالمفهوم الأوروبي ، توحدها بلاد مشتركة ولغة مشتركة وثقافة مشتركة وتشوّف مشترك الى الاستقلال السياسي.

ومن الأيسر أن ندقق في انتشار العروبة من حيث الرقعة في يومنا هذا . فالبلاد الناطقة بالعربية تقع في مجموعات ثلاث : آسيا

الجنوبية الغربية ومصر وشمال افريقيـــة . وأكبر بلد عربي في المجموعة الأولى هو جزيرة العرب نفسها . وتمثل المملكة السعودية العربية واليمن الجزء الاكبر منها . ونظام الحـكم القائم فيهما هو النظام المشيخي في الاغلب . وما يزال اقتصاد المملكة العربيـة السعودية قائماً ، في الدرجة الاولى ،على الرعي والترحل . وجنوب بلاد العرب وجنوبها الشرقي واقعان تحت درجات مختلفة من الحكم البريطاني . والى الشمال تقع بلاد الهلال الخصيب التي كانت حتى عام ١٩١٨ م من ولايات الدولة العثمانية . وتقوم الآن فيها دول العراق وسورية ولبنان وشرقي الاردن وفلسطين . وفي هذه البلاد كان سير التعرب أبعد ما يكون مدى . وكان التعلق بالشخصية العربية أقوى ما يكون وتقع مصر في اصق آسيـــا العربية في الزاوية الشمالية الشرقية من افريقية ، وهي أغنى الدول الناطقـة بالعربية وأرقاها ، وأكثرها تجانساً ، وأعرقها في القومية السياسية كما أنها ذات كيان مستقل في الازمنة الحديثة . ولا تزال أقطار شمال افريقية الاربعة ، وهي ليبيا وتونس والجزائر ومراكش ، تحت الحكم الاوروبي . والثلاث الاخيرة منهـــا تحت صور مختلفة من السيـــادة الفرنسية . والسكان في معظمها خليط : قسم عربي وقسم بربري تتخللهما جماعات أوروبيـــة ذات شأن في تونس ، وفي الجزائر بنوع خاص . وقد تأثرت هـــذه البلاد اكثر ما تأثرت بالتغلغل الاوروبي الاقتصادي والثقـــافي والسياسي . وتأثرت اقـل التأثر بالنهضة العربية . وفي السنوات الاخيرة اخذت الحكومات القومية في شمال افريقية تتزايد نشاطاً

وقوة . وبينما لا تزال اهدافها محلية في الدرجة الاولى ، الا ان امتداد النفوذ العربي الثقافي من الشرق الادنى ، وفي تونس خاصة ، ينتج الآن شعوراً اقوى بالقرابة مع العرب المشرقيين. والى جانب هذه الاقطار تعيش جماعات عربية في الولايات البريطانية والفرنسية في افريقية الاستوائية بين اغلبية من الزنوج. وتعيش اقليات عربية صغيرة في تركيا وبلاد الفرس . ويقدر مجموع الشعوب الناطقة بالعربية في آسيا وإفريقية تقديراً متبايناً بين اربعين وخمسين مليونا، يعيش منهم اكثر من ستة عشر[1] مليوناً في مصر ، واكثر من اثني عشر مليوناً في اقاليم إفريقية الشمالية. وبين هذه الاقطار جميعها شيء كثير مشترك . فجميعها تتاخم الصحراء والمنزرع ، وواجهت منذ اقدم الازمنة الى اليوم المشكلة القائمة أبداً من عدوان البدو المستمر عليها .

ومصر والعراق اللذان هما من أعظم هذه البلاد اهمية ، عبارة عن أودية تسقيها الانهار العظيمة ، وطرق عالمية للتجارة ، ومقر حكومات مركزية منذ اقدم العصور . وتكاد هذه البلاد جميعها تكون بلاد ريف لها نظم اجتماعية وطبقات حاكمة متشابهة في اساسها ، على الرغم من ان تغير الاوضاع الخارجية بل والحقائق الاجتماعية ، عندما تتعرض كل منها على حدة للتأثير الاوروبي ، يتم في اوقات مختلفة ، وأساليب متباينة ، وأقدار متفاوتة . وقد دخلت هذه البلاد كلها — ما عدا بلاد العرب نفسها — بفضل الفتوح العظيمة في حظيرة العرب والاسلام . وورثت جميعها

(١) يبلغ عدد سكان مصر اليوم نحواً من عشرين مليوناً . [المعربان]

التراث العظيم نفسه في اللغة والدين والحضارة . غير ان اللغة تتميز بفروق محلية كبيرة ، وكذلك الأمر في الدين(١) واللغة والتقاليد الاجتماعية . وبامتزاج العرب بالحضارات المحلية المختلفة ، وبعدهم عن بلادهم وانفصالهم مدة طويلة عنها ، ظهرت صبغات محلية قوية من التقاليد المشتركة يصحبها احياناً ، كما هي الحال في مصر ، شعور محلي بالشخصية القومية قديمٌ قدم الزمن . والى جانب الشعوب المغلوبة ، هنا وهناك ، جماعات رفضت لغة الفاتحين او دينهم او كليهما ، وظلت بين العرب : كالأكراد في العراق ، والبربر في شمال افريقية ، والموارنة في لبنان ، والاقباط في مصر . وظهرت في الاسلام نفسه فرق جديدة نشأت في بعض الاحيان بتأثير الاديان السابقة ، وأعقبت الشيعة واليزيديين في العراق ، والدروز في سورية ولبنان ، والزيديين والاسماعيلية في اليمن . وقد جلب العصر الحديث ، بتعريضه البلاد العربية لتطورات متباينة ، عوامل جديدة في تمزيق الوحدة تعود الى وجود مستويات اجتماعية متباينة والى مصالح إقليمية وسلالية كذلك . لكن التطورات الحديثة تقوي ايضاً من عوامل الوحدة كالنمو السريع في المواصلات الحديثة التي تقرب بين أجزاء العالم العربي المختلفة ، وتيسر احتكاك بعضها ببعض اكثر من ذي قبل ، وكانتشار التعليم والقراءة الذي يوفر مجالاً أوسع لمقدرة اللغة المشتركة والذكريات المشتركة على ان تكون قوة توحد بين هذه الشعوب . وأوضح من هذا كله تماسك هذه البلاد الجديد في مقاومة

(١) هكذا في الأصل (المعربان) .

الغرب الزاحف عليها ، وفي معالجة المشاكل التي يفرضها .

تبقى مسألة أخيرة ينبغي ان نبحثها في هذه الملاحظات التمهيدية. فالكاتب الاوروبي عن التاريخ الاسلامي يجهد نفسه في ظل عجز خاص : فهو حين يكتب بلغة غربية يستعمل بالضرورة المصطلحات الغربية . وهذه المصطلحات الغربية قائمة على كليات غربية من الفكر والتحليل مشتقة في الدرجة الاولى من التاريخ الغربي . وتطبيقها على احوال مجتمع آخر ، كونته مؤثرات مباينة ، ويتبع اساليب حياتية مباينة، ليس في أحسن صوره إلا من قبيل القياس والمقابلة ، وربما كان مدعاة الى الالتباس الخَطِر . ولنأخذ مثالاً على ذلك الازواجَ التالية من الكلمات : كالكنيسة والدولة ، والروحي والزمني ، والكهنوتي والعلماني . مثل هذه الكلمات لا معادل حقيقياً لها في اللغة العربية ، بل هي مصطلحات استحدثت لترجمة الافكار الحديثة . ذلك أن التقسيم الثنائي الذي تعبر عنه لم يكن معروفاً في المجتمع الاسلامي في العصور الوسطى، ولم يفصح عنه العقل الاسلامي في تلك العصور . فالجماعة الاسلامية كانت كنيسة ودولة في آن واحد، وكانت كلتاهما متشابكة تشابكاً لا يمكن معه تمييزهما ، وكان رئيس الجماعة الاعلى ، وهو الخليفة ، رئيساً دنيوياً ودينياً في الوقت عينه . واصطلاح « الاقطاع » في معناه الدقيق يشير الى ذلك الطراز من المجتمع الذي وجد في غرب اوروبا بين انهيار الامبراطورية الرومانية وبداية النظام الحديث . فاستعماله في مناطق أخرى وفترات اخرى ، ما لم يحدد بعناية في قرائنه الجديدة، لا بد وأن يخلق فكرة ان المجتمع الذي

ينعت به مطابقٌ تمام المطابقة ، أو على مشابه ، للمجتمع الاقطاعي في غرب اوروبا . ولكن ليس ثمة مجتمعان متماثلان بالضبط . وعلى الرغم من ان النظام الاجتماعي في الاسلام قد يظهر فيه ، في فترات معينة ، عدد من وجوه الشبه الهامة بينه وبين اقطاع غرب اوروبا ، الا ان هذا لا يبرر بحال ، المطابقةَ التامة التي تُفهم ضمناً من استعمال هذا الاصطلاح دون تحديد . فأمثال هذه الكلمات : « الدين » « والدولة » « والسيادة » « والديمقراطية » تدل على اشياء مخالفة تماماً في القرينة الاسلامية ، بل وتختلف في المعنى من مكان الى آخر في أوروبا نفسها . الا ان استعمال هذه الكلمات لا مفر منه عند الكتابة بالانجليزية ، بل وعند الكتابة باللغات الحديثة في الشرق ، التي تأثرت قرابةَ قرن بأساليب الغرب في التفكير والتصنيف . وفي الصفحات التالية يجب ان تُفهم هذه الاصطلاحات في جميع الاحوال بالمفهوم الاسلامي ، وينبغي ألا تؤخذ على انها توجب درجة عظمى من الشبه مع نظيراتها من النظم الغربية اكثر مما هو مقرر لها في حقيقتها .

الفصل الاول

بلاد العرب قبل الاسلام

«وحي من جهة برية البحر . كزوابع في الجنوب
عاصفة يأتي من البرية من أرض مخوفة »
(أشعياء ٢١ ـ ١)

تكوّن شبه جزيرة العرب مستطيلاً واسعاً تبلغ مساحته ما يقرب من مليون وربع مليون من الاميال المربعة . ويحدها من الشمال سلسلة من البلاد تُعرف في التاريخ باسم الهلال الخصيب – في ما بين النهرين وسورية وفلسطين – وتخومها الصحراوية . ويحدها من الشرق والجنوب الخليج الفارسي والمحيط الهندي ، ومن الغرب البحر الاحمر ، والاجزاء الجنوبية الغربية ، وهي اليمن ، وتتألف من أرض جبلية تسقيها المياه ، الامر الذي يسّر لها منذ زمن قديم أن تقوم فيها الزراعة ، وأن تنمو وتزدهر فيها حضارات مستقرة راقية نسبياً . وتتألف بقية البلاد من نجود وصحارى جافة مجدبة إلا حيث يتفق أن توجد فيها واحة ، أو حيث تقطعها بعض القوافل والطرق التجارية . وقد كان السكان

رعاة ورحلاً في الدرجة الاولى ، يعيشون على قطعانهم وعلى غزو شعوب الواحات والاقاليم المجاورة المفلوحة. وصحارى بلاد العرب على انواع مختلفة : أهمها ، على تصنيف العرب ، هي النفود ، وهي خضم من رملات ضخمة متنقلة تشكل رقعة يتغير شكل وجهها باستمرار . وأما الحماد ، فهي أرض اكثر صلابة نوعاً ما في المناطق القريبة من الشام والعراق. واما النجود، فتكون التربة فيها ، على الاغلب ، اكثر تماسكاً ، وييسّر سقوط المطر غير المنتظم فيها ظهور نباتات تنبت فَجْأَةً ، وتموت سريعاً. وهناك أخيراً الصحراء الجنوبية الشرقية الواسعة التي لا يمكن اختراقها . والمواصلات بين هذه المناطق محدودة وصعبة ، وتسلك في الغالب الأودية ، ولهذا نجد الاتصال بين سكان مختلف انحاء بلاد العرب قليلاً جداً .

وقد جرى العرب على تقسيم وسط شبه الجزيرة وشمالها الى ثلاث مناطق : اولاها تهامة ، وهي كلمة سامية تعني الارض المنخفضة ، وتطلق على السهول المتموّجة الواقعة على البحر الاحمر وعلى المرتفعات المشرفة عليه . والى الشرق منها تقوم المنطقة الثانية ، وهي الحجاز ، ومعناها الحاجز ، وقد أطلق هذا الاسم فقط في الاصل على السلسلة الجبلية التي تفصل السهل الساحلي عن هضبة نجد ، ولكنه فيما بعد اتسع بحيث اصبح يشمل قسماً كبيراً من السهل الساحلي نفسه . وتقع الى شرق الحجاز هضبةُ نجد الداخلية العظيمة ، ويتألف معظمها من صحراء النفود .

كانت بلاد العرب منذ أزمنة سحيقة تؤلف منطقة مرور بين بلاد البحر الابيض المتوسط والشرق الاقصى . وكان تاريخها ،

الى حد كبير ، رهناً بتقلب الأحوال على التجـارة بين الشرق والغرب . وقد كانت المواصلات في داخل بـلاد العرب وعَبْر بلاد العرب خاضعة لتقسيمات شبه الجزيرة العربيـة إلى خطوط واضحة المعالم . وأولى هذه هي طريق الحجاز ، وتسير من موانيء البحر الاحمر ومراكز التخـوم في فلسطين وشرق الاردن الى الجانب الداخلي من سلسلة جبال البحر الاحمر الساحلية ، ومن ثم الى اليمن . وكانت هذه الطريق ، في اوقات مختلفة ، طريـق القوافل بين إمبراطورية الاسكندر وخلفائه في الشرق الأدنى ، وبلاد آسيا القصوى . وصارت ايضاً طريق سكة حديد الحجاز . وهناك طريق أخرى تنفذ من وادي الدواسر الذي يجري بـين أقصى بلاد اليمن الشمالية الشرقية ووسط بلاد العرب حيث تتصل بطريق أخرى هي وادي الرمة ، الى جنوب ما بـين النهرين . وكان هذا هو واسطة الاتصال الرئيسية في الازمنة القديمة بـين اليمن وحضارة آشور وبابل . وأخيراً يصل وادي السرحان وسطَ بلاد العرب بجنوب الشام الشرقي عبر واحات الجوف .

والى أن نستطيع التنقيب عن التاريخ في بلاد العرب كما نقبنا في مصر وفلسطين وما بين النهرين ، ستبقى القـرون الاولى من تاريخ بلاد العرب غامضة . ولا بد للباحث من ان يتلمس طريقه في ذلك الميدان بين رُكام الفروض التي بنيت نصف بناء ، او نُقضت نصفَ نقض ، والتي لا يستطيع المؤرخ ، بما عنده من معرفة ضئيلة بالحقائق ، أن يكملها او أن يدكّها ويسويهـا بالأرض . ولعل أشهر هذه الفروض نظرية ونكلر كايتاني . وسميت بهـذا الاسم

نسبة الى اكبر مؤيديها . وبناء على هذه النظرية كانت بلاد العرب في الاصل بلادَ خِصب عظيم ، وكانت الموطنَ الأول للشعوب السامية . ومع مر آلاف السنين جعل يصيبها جفاف مستمر في الثروة ومجاري الميـــاه ، وامتداد الصحراء على حساب الارض المزروعة . وقد ادى انخفاض انتاج الجزيرة ، وزيادة عـــدد السكان ، الى سلسلة من أزمات الازدحام ، فنتج عن هـذا قيام دوراتٍ متكررة من غارة شعوب شبه الجزيرة الساميّة على البلاد المجاورة. وهذه الازمات هي التي حملت « السوريين » والآراميين والكنعانيين (بما فيهم الفينيقيون والعبرانيون) ، وأخيراً العربَ انفسهم ، الى الهلال الخصيب . فعرب التاريخ هم إذاً المتخلفون في الجزيرة بعد هذه الغزوات التاريخية العظيمة . وعلى الرغم من أن الجزيرة لم تُمسح مسحاً جيولوجياً تاماً بعد ، فقد برزت الى النور بعض الشواهد التي تؤيد هذه النظرية في شكل مجارٍ للمياه جافة ، ودلائل أخرى على خِصْبٍ ماض . ولكن ليس ثمة دليل على ان عملية الجفاف هذه حدثت بعد بدء الحياة الانسانية في شبه الجزيرة ، بل ولا أنها حدثت بسرعة من شأنهـــا ان تؤثر مباشرة في سير الامور الانسانية . وهناك ايضاً من البينة اللغوية ما يؤيد النظرية نفسها ، وهذه البينة هي ان اللغة العربية رغم كونها احدث اللغات السامية ظهوراً كأداة ادبية ثقافية ، الا انها مع ذلك اقدمها من نواح عدة من حيث تركيبها الصرفي والنحوي، ولذلك فهي أقربها الى اللسان السامي الاصلي . وهناك فرض آخر ادلى به العـــالم الايطالي إجناتسيو جُويدي الذي يؤثر ان يكون جنوب ما بين

النهرين الموطنَ الاصليّ للساميين. ويشير الى انه بينما نجد في اللغات السامية كلمات مشتركة عن البحر والنهر، لا نجد فيها كلمات مشتركة للجبل والتل. وقد قال علماء آخرون بافريقية وأرمينية.

والاخبار المتناقلة بين العرب تقسم الشعب العربي الى فرعين رئيسيين: الشمالي والجنوبي. وهـذا التمييز يجد صدى له في الإصحاح العاشر من سفر التكوين حيث يرد ذكر فرعين متمايزين يتصل نسبهما بسام، وهما شعوب جنوب غربي بلاد العرب، وشعوب وسطها وشمالها. والاخيرة منهما اقرب الى العبرانيين. والقيمة الجغرافية البشرية لهذا التمييز غير معروفة بالكلية، وربما بقيت كذلك. وهي تبدو في التاريخ اول ما تبدو في مصطلحات لغوية وثقافية. فاللغة العربية الجنوبية تختلف عن اللغة العربية الشمالية التي تطورت آخر الأمر الى اللغة العربية الفصحى. فهي تكتب بأبجدية مباينة نعرفها من النقوش ولها صلة بالحبشية التي أنتجها في واقع الامر في الحبشة مستعمرون من جنوب بلاد العرب، أقاموا أول مراكز الحضارة الاثيوبية. وفرق ثان مهم وهو أن عرب الجنوب كانوا شعباً مستقراً.

وسير الحوادث الاولى القديمة في التاريخ العربي الجنوبي لا يزال غامضاً. ومن اقدم الممالك التي تذكر في السجلات سبأ، وربما كانت هي عينها سبأ المذكورة في الكتاب المقدس، والتي اقامت ملكتها علاقاتٍ مع الملك سليمان. وربما كانت سبأ قائمة منذ القرن العاشر قبل الميلاد. وهناك إشاراتٌ عارضة اليهـا في القرن الثامن، وشواهدُ صريحة على اكتمال نموها في القرن السادس

قبل الميلاد . فحوالى عام ٧٥٠ قبل الميلاد بنى أحد ملوك سبأ سدّ مأرب الشهير ، الذي نظّم ، مدة طويلة ، حياة المملكة الزراعية . وكانت الصلات التجارية قائمة مع السواحل الافريقية المقابلة ، وربما مع بلاد أبعد من ذلك . ويظهر ان السبأيين نشروا استعمارهم فوق رقعة كبيرة من افريقية . وأقاموا مملكة الحبشة التي أخذ اسمها من حبشت ، وهم شعب عربي من جنوب غربي الجزيرة .

ومنذ ان وصلت فتوح الاسكندر عالم البحر المتوسط بالشرق الاقصى تجد أخباراً متزايدة في المصادر اليونانية تشهد باهتمام متزايد ببلاد العرب الجنوبية . فقد أرسل بطالمة مصر سفناً في البحر الاحمر ترتاد سواحل بلاد العرب ، وطرق التجارة الى الهند . وقد التزم خلفاؤهم في الشرق الادنى هذا الاهتمام . وعند نهاية القرن الخامس للميلاد كانت مملكة سبأ ، قد أوغلت في الاضمحلال .

وتشير المصادر الاسلامية والنصرانية الى انها وقعت تحت سلطان الحميريين ، وهم شعب عربي جنوبي آخر . وقد اعتنق آخر ملوك الحميريين (ذو نواس) اليهودية. ورداً على اضطهاد البيزنطيين لليهود اتخذ اجراءات تأديبية ضد النصارى المقيمين في جنوب بلاد العرب . وقد أدى هذا بدوره الى مضاعفات في بيزنطة والحبشة التي كانت قد أصبحت نصرانية . وهيأ هذا الاضطهاد أيضاً للحبشة الحافزَ والفرصةَ معاً للانتقام للنصارى المضطهدين وللاستيلاء على مفتاح التجارة الهندية . وقد قضت الغزوة الحبشية الناجحة ،

يؤيدها النصارى المحليون ، على المملكة السبأية . ولم يدم الحكم الحبشي في اليمن طويلًا . ففي عام ٥٧٥ غزت حملة من فارس البلاد ، وأنزلتْها إلى ولاية فارسية دون صعوبة كبيرة . وقد كان الحكم الفارسي أيضاً عابراً . إذْ كانت آثاره قد عفت إلا قليلًا عند الفتح الاسلامي .

كان أساس المجتمع في جنوب بلاد العرب الزراعة . وتعكس النقوش ، بما فيها من إشارات متكررة الى السدود والقنوات ، ومشاكل الحدود ، وملكية الأراضي ، درجةً من التقدم عالية . وكان عرب الجنوب ينتجون الى جانب الحبوب « المرّ » والبخور وغيرهما من الأفاويه ونباتات الطيب . وكانت هذه الاخيرة أهم صادراتهم . وكثيراً ما كان يُظن أن التوابل التي كان يستوردها التجار العرب من الخارج ويتاجرون بها هي توابل عربية أصيلة . ولذلك أكسبت هذه التجارة ذلك الجزءَ من البلاد شهرتَه الاسطورية بأنه بلد ثروة وخيرات . فسميت في العالم القديم بلادَ العرب السعيدة . ويتردد ذكر توابل بلاد العرب كثيراً في أدب الغرب – من الكنوز العربية عند هوراس ، الى عطور بلاد العرب عند شكسبير ، والسواحل المليئة بالتوابل من بلاد العرب السعيدة عند ملْتُن .

وكان النظام السياسي لبلاد العرب الجنوبية ملكياً ، ويبدو أنه أُقيم على أساس قوي من تعاقب الابناء بعد الآباء تعاقباً منتظماً . ولم تكن للملوك صفة إلهية كما كان لهم في غيرها من بلاد الشرق . وقد كان يحد من سلطانهم ، في

بعض الفترات على الاقل ، مجالس الاعيان. وصار يجـــد منه في تاريخ متأخر نوع من الاقطاع يحكم فيه سادة محليون، من قلاعهم ، أتباعهم وفلاحيهم . وكان دين بلاد العرب الجنوبية متعدد الالهة. وهو في جملته ، وإن لم يكن في تفصيله ، شبيــه بأديان الشعوب السامية الاخرى . وكانت المعابد مراكز هامة للحياة العامة ، ولها ثروات عظيمة يشرف على إدارتها الكاهن الاعلى . وكانت محاصيل التوابل نفسها تعتبر مقدسة . فكان ثلثها يحفظ للالهة،أي للكهنة. ورغم أن الكتابة كانت معروفة ،وأن نقوشاً كثيرة وصلت الينا فليس هناك للكتب أو الادب من أثر .

وعندما نتحول من بلاد العرب الجنوبية إلى الوسطى والشمالية نجد وضعاً يختلف عن الوضع السابق تمام الاختـــلاف ، قائماً على معلومات أقل بكثير من المعلومات التي وصلتنا من الجنوب . فقد سبق أن رأينا أن المصادر الآشورية والكتـاب المقدس والمصادر الفارسيـــة تشير إشارات عارضةً الى الشعوب البدوية في الوسط والشمال ويظهر أن العرب الجنوبيين ايضاً قد نشروا استعمارهم الى حد محدود في الشمال، وربما كان ذلك بقصد التجارة. واول ما لدينا من أخبار مفصلة يرجع تاريخهـا الى الفترة الكلاسيكية ، عندما أنتج تغلغل المؤثرات الهلينستية من سورية ، واستغـــلال طريق التجارة العربية الغربية استغلالاً دورياً ، سلسلةً من دول التخوم شبه المتحضرة في مستنقعات بادية الشام وبادية العرب الشمالية .

وهذه الدول ، على الرغم من أنها عربيـــة في أصلها ، كانت واقعة بشكل قوي تحت تأثير الثقافة الآرامية المتأثرة بالهلينستية.

وكانت تصطنع بصفة عامة ، اللغة الآرامية في نقوشها . وتنكشف لنا شخصيتهم العربية عن طريق أسماء اعلامهم فقط . وكانت اول دولهم ، ولعلها أعظمها ، دولة الانباط التي حكمت ، في طور اوجها ، رقعة تمتد من خليج العقبة الى البحر الميت شمالاً وتشمل كثيراً من شمال الحجاز . وأول ملك نعرفه من النقوش هو أريتاس (الحارث) وذلك في عام ١٦٩ ق . م . وكانت قصبتها البتراء الواقعة في المملكة الاردنية حالياً . وقد قامت مملكة الانباط بصلاتها الاولى مع روما في عام ٦٥ قبل الميلاد عندما زار بومبي البتراء . وقد اقام الرومان علاقات ودية مع المملكة العربية التي كانت بمثابة دولة حاجزة بين بلاد الشرق الروماني المستقرة وبين الصحراء التي لا يمكن اخضاعها . وفي عام ٢٥ — ٢٤ ق.م. اتُخذتْ دولةُ الانباط قاعدةً لحملة إيلوس جالوس. وهذه الحملة التي أرسلها اوغسطس لغزو اليمن كانت المحاولةَ الرومانية الاولى والوحيدةَ للتغلغل في بلاد العرب . وكان الحافزُ اليها السيطرةَ على المنفذ الجنوبي لطريق التجارة الى الهند . وقد ابحر ايلوس جالوس من ميناءٍ نبطي على البحر الاحمر ، ونجح في النزول الى اليمن والتغلغل بعيداً في الداخل؛ ولكن الحملة باءت بفشل ذريع، وانتهت بانسحاب روماني مخزٍ .

وفي اثناء القرن الاول ب.م. ساءت العلاقات الرومانية النبطية . وفي عام ١٠٥ ق.م. جعل تراجان شمال بلاد الانباط ولاية عرفت بفلسطين الثالثة . ويمكن ان نشير اشارة عابرة الى ان عرب ولايات التخوم الرومانية قدموا للامبراطورية الرومانية

امبراطوراً واحداً على الاقل هو فيليب الذي حكم من ٢٤٤ – ٢٤٩ ب.م. وقد شهدت الفترة التي تلت موته مباشرة ظهور ثاني دول التخوم العربية ذات الصبغة الآرامية في جنوب شرقي سورية. وهذه هي دولة تدمر ، التي أقيمت في بادية الشام لتكون كذلك نقطة البداية في طريق التجارة الغربية . وكان أول حكامها اوديناثوس (أذَينة) الذي كافأه الامبراطور جالينوس عام ٢٦٥ ب.م. بأن اعترف به ملكاً لقاء ما قدمه من مساعدات في الحرب الرومانية الفارسية . وبعد موته خلفته امرأته زنوبيا المشهورة ، وفي العربية زينب ، التي ادعت لنفسها مدة طويلة ملكَ القسم الاعظم من الشرق الادنى. ونادت بابنها المعروف في المصادر الكلاسيكية باثينودوروس ، ولعلها ترجمة يونانية للاسم العربي «وهب اللات » ، قيصراً أوغسطساً (أي قيصراً عظيماً) . واخيراً استثير الامبراطور أوريليان للعمل فاحتل تدمر في سنة ٢٧٣ ب.م. وأخضع المملكة ، وأرسل زنوبيا الى روما في سلاسل من الذهب لتمثل في موكب نصر روماني. وهاتان الدولتان ، رغم بريق مجدهما القصير في احداث التاريخ الروماني ، كانتا امرين عارضين ، تنقصهما متانة الاساس والتماسك اللذان عرفا في الممالك العربية الجنوبية . وقامتا في الدرجة الاولى على شعوب بدوية متنقلة أو شبه بدوية . وقد استمدتا أهميتهما من موقعهما على طرق التجارة التي تمتد من روما عبر بلاد العرب الغربية الى الشرق الاقصى ، ومن عملهما كولايتين حاجزتين ، أو إمارتي حدود تؤديان الجزية وتخلصان الرومان من المهمة الصعبة الباهظة ، وهي إقامة مراكز دفاع عسكرية على

حدود الصحراء .

وأقل من هذا ما يعرف عن دولتين عربيتين ازدهرتا في الداخل في الحقبة الهلينستية ، وهما دولتا لحيان وثمود . وكلتاهما تُعرف في الدرجة الاولى من نقوش بلغتهما ، ومن إشارات قليلة في القرآن الى الثانية منهما . ويظهر انهما كانتا مدة من الزمن في قبضة الانباط ، ثم استقلتا فيما بعد .

ويبدو ان طرق التجارة قد تحولت في وقتٍ ما في القرن الرابع من بلاد العرب الغربية الى سبل اخرى خلال مصر والبحر الاحمر وخلال وادي الفرات والخليج الفارسي. وكانت الفترة بين القرنين الرابع والسادس فترةَ انحطاط وتأخر . ففي الجنوب الغربي ، كما رأينا ، انحلت حضارات اليمن ووقعت تحت الحكم الاجنبي . وتعزو اخبار العرب القومية المأثورة فقدانَ الازدهار وهجراتِ قبائل الجنوب الى الشمال الى حادثة وحيدة بارزة ، هي انهيار سد مأرب وما عقبه من خراب . اما في الشمال فقد وقعت دول التخوم ، التي ازدهرت فيما مضى ، تحت الحكم الامبراطوري المباشر ، او ارتدت الى الفوضى البدوية . وفي القسم الاعظم من شبه الجزيرة تضاءلت او اختفت المدن التي كانت موجودة ، وانتشرت البداوة في كل مكان على حساب التجارة والزراعة .

والصفة الظاهرة في سكان وسط بلاد العرب وشمالها في هذه الفترة الحرجة التي سبقت ظهور الاسلام مباشرةً هي القبليةُ البدوية. فالوحدة الاجتماعية في المجتمع البدوي هي الجماعة لا الفرد . وكانت للفرد حقوق وعليه واجبات من حيث هو عضو في جماعته

فحسب . وكان يحفظ على القبيلة او الجماعة تماسكها ضرورةُ الدفاع عن النفس ضد مصاعب الحياة الصحراوية وأخطارها ، وتربط بين افرادها صلة الدم والنسب من الذكور، التي هي الرابطة الاجتماعية الاساسية . وكان معاش القبيلة يعتمد على ماشيتها وإبلها ، وعلى الاغارة على البلاد المستقرة المجاورة وعلى مهاجمة القوافل التي كانت تجرؤ على اجتياز بلاد العرب . وكانت بضائع البـــلاد المستقرة تتسرب الى قبائل الداخل عن طريق القبائل القريبة من الحدود نتيجةً لسلسلة من الغزوات المتبادلة . ولم تكن القبيلة عادة تقر ملكية خاصة للأرض ولكنها تمارس حقوقاً جماعيـــة في المراعي والمياه الخ . وهناك شواهد على ان المواشي كانت احياناً ملكاً جماعياً للقبيلة . وكانت الممتلكات المنقولةُ وحدهـــا موضوعاً للملكية الشخصية .

وكان تنظيم القبيلة السياسي فطرياً . فكان رئيسها هـو السيد او الشيخ ، وهو رئيس منتخب قلما كان اكثرَ من أول بـــين اكفاء . وكان يتبع رأي القبيلة اكثر مما كان يوجهه . ولم يكـن في مقدوره أن يفرض واجباً او يُنزل عقوبة . فالحقوق والالتزامات كانت تربط الانسان الى الأسر المنفردة داخل القبيلة ، ولكن لا إلى احدٍ خارجها . وكان عمل حكومة الشيخ التحكيم لا الامر . فلم يكن في يده سلطات اجبارية . ولم تكن مفاهيم السلطان والملك والعقوبات العامة الخ مفهومة في المجتمع العربي البدوي . وكان شيخ القبيلة ينتخب من بين افراد عائلة واحـدة كأنما هي بيت مشيخة ، وتعرف بأهـل البيت . وكان يُسدي له المشورةَ

نخبة من الشيوخ تعرف بالمجلس ، ويتكـون من رؤوس الاسر وممثلي عشائر القبيلة . وكان المجلس اللسانَ الناطقَ بالرأي العام . ويظهر أنه كان هناك تمييز بين العشائر الـتي كانت تعتبر أكـرم البيوتات ، وبين باقي العشائر .

وكانت حياة القبيلة خاضعة في تنظيمها للسنة ، أي سنة السلف ، التي كان سلطانها يستند الى احترام الناس عامة للعرف . وكان ضمانها الوحيد هو الرأي العام . وكان المجلس القبلي رمزَها المنظور وأداتها الوحيدة . وكان الضابط الاجتماعي الرئيسي للفوضى السائدة عادة هو الثأر للدم الذي يفرض عـلى اقرباء القتيل واجبَ الاخذ بثأره من القاتل او من أحد افراد قبيلته .

وكان دين البدو نوعاً من عبادة الارواح المتعددة ، ويتصل بوثنية الشعوب السامية القديمة . ويرجع أصل الكائنات التي كانوا يعبدونها الى سكان الاماكن المنعزلة واوليائها الذين كانوا يعيشون في الاشجار والينابيع وفي الحجارة المقدسة خاصـة . وكان هناك بعض الآلهة بالمعنى الصحيـح ممن يتجاوزون في سلطانهم حدود العبادات القبلية الخالصة . وكان أعظم ثلاثة فيهم مناة والعُزى واللات . وقد ذكر هيرودتس هـــذا الاخيرَ منها . وكانت هذه الآلهة الثلاثة بدورها خاضعة لالـه أعلى يسمى عادةً الله . ولم يكن لدين القبائل كهنوت حقيقي . وكانت القبائل الرحل تحمل آلهتها معها في جبة حمراء كأنها نوع من « تابوت العهد » الى القتال . ولم يكن دينهم شخصياً بل جماعياً . فعقيدة القبيلة كانت تتركز حول إله القبيلة ، ويرمز اليه عادة بحجر ، واحياناً باشياء اخرى .

وكانت تحميه اسرة المشيخة التي كانت بذلك تكتسب نوعا من الامتياز الديني . وكان الالـه والعبـادة قوام الشخصية القبلية العقائدي والتعبير الوحيد لمفهوم وحدة القبيلة وتماسكها . وكان التمسك بعبادة القبيلة دليلاً على الولاء السياسي ؛ اما الارتداد عنها فكان بمثابة الخيانة .

ولم يكن يشذ عن هذا النوع البدوي من الحياة الا الواحة حيث كانت جماعـــات صغيرة مستقرة تشكل تنظيماً سياسياً فطرياً ، وحيث كانت الاسرة البارزة تسيطر عـــلى السكان ، وتقيم بالتالي نوعاً من الملكية الصغيرة . وكان حاكم الواحة احياناً يدّعي حداً مهماً من السيادة على القبائل المجاورة ، وربمـــا كانت الواحة ايضاً تنال السيطرة على واحدة مجاورة فتقيم دولة صحراوية قصيرة الاجل . ولا حاجة بنا الى ذكر أي مثال على هـــذا النوع غير كندة ، وذلك لأن نشأتها وتوسعها كانا من عـــدة وجوه كأنها ارهاص بتوسع الاسلام فيما بعد . وقد ازدهرت دولة كندة في أواخر القرن الخامس واوائـــل القرن السادس وذلك في شمال بلاد العرب . وعلى الرغم من انها كانت قوية في البداية ، بل إنهـــا امتدت الى اراضي الدويلات المتاخمة لها ، فقد انهارت لحاجتها الى قوة خلقية والى تمـــاسك داخلي ، وبسبب فشلهـــا في اختراق الحواجز التي شيدتها امبراطوريتا البيزنطيين والفرس ، اللتان كانتا اذ ذاك اقوى نسبياً مما كانتا عليه بعد بضعة عقود من السنين حينما واجهتا انقضاض الاسلام عليهما . وتركت كِندة أثراً قوياً خلد في الشعر العربي .

فقد كان لقبائل جزيرة العرب منذ القرن السادس لغـــة شعرية مشتركة متفق على فصاحتها وصيغة شعرية مستقلتان عن باقي اللهجات وتجمعان القبائل العربية على سنة واحدة وثقافة واحدة تنقل بالتلقين من جيل الى جيل . وهذه اللغة المشتركة والادب المشترك يدينان بكثير مما فيهما من قوة دافعة وتطور الى مآثر كندة واخبارها التي كانت أول عمل خطير مشترك قامت به قبائـــل وسط الجزيرة وشمالها . وبلغت هـــذه اللغة في القرن السادس أوج اكتمال فصاحتها المأثورة .

وقد أسس البدو الذين تحضروا في اماكن متفرقة قرى يغلب أن تكون أكثر تقدماً في مجتمعاتها . وأهم هـذه القرى مكة في الحجاز . وكانت كل عشيرة في القرية ما يزال لها مجلسها وحجرها المقدس (نصب) . ولكن اتحاد هـــذه العشائر ، الذي كانت تتكون منه القرية ، كان يتجلى في مظهره الخارجي في مجموعة من الاصنام موضوعة في معبد مركزي واحد مع رمز مشترك .وكان البناء المكعب الذي يعرف بالكعبة رمزاً من هـــذا النوع على الوحـدة في مكة . وحلّ محـل المجلس القبلي البسيط في مكة مجلس يعرف باسم المـلأ يُنتقى اعضاؤه من مجالس العشائر ، وقد أضعف من سلطة الشيخ المحدودة القائمة على التراضي ، وحلّ محلها الى حد كبير ، نوعٌ من استبداد الأسر الحاكمة .

وعلى الرغم من رجعية هذا الدور كانت جزيرة العرب لاتزال غير معزولة تماماً عن العالم المتحضر .ولكنها كانت على الاصح تقع على أطرافه . فقد كانت الثقافة الفارسية والبيزنطية ، مادية وأدبية ،

تنفذ من مسارب مختلفة يتصل معظمها بطرق التجارة عَبْرَ بلاد العرب . وكان أحدها هو قيام مستعمرات أجنبية في شبه الجزيرة نفسها . فقد أُنشيء عدد من الدساكر اليهودية والنصرانية في اجزاء مختلفة من الجزيرة العربية قامت بنشر الثقافة الآرامية والهلينية . وكان المركز النصراني الرئيسي في جنوب بلاد العرب ونجران حيث قامت حياة سياسية متقدمة نسبياً. وقد كان اليهود والعرب المتهودون منتشرين في كل مكان من الجزيرة ، وخاصة في يثرب التي سميت فيما بعد « المدينة » . وكان هؤلاء على الاغلب زراعاً وصناعاً ، وما زال اصلهم غير ثابت . وقد افترضت نظريات مختلفة حول أصلهم .

ومسرب آخر من مسارب الحضارة كان عن طريق الدول المتاخمة . فالحاجة نفسها التي كانت قد جعلت الرومان يشجعون قيام الدولتين النبطية والتدمرية،دفعت الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية الى ان تسمحا بقيام دويلات عربية على تخوم الجزيرة في الشام والعراق. وكانت دولتا غسان والحيرة نصرانيتين ، والاولى منهما كانت من القائلين بالطبيعة الواحدة (مونوفيزيتية)، والثانية نسطورية. وكان في كلتيهما صيغة من الثقافة الآرامية والهلينية تسرب بعضها الى الداخل . وأوائل امر غسان غامضة لا تعرف إلا من الروايات العربية . اما التاريخ الثابت فيبدأ في سنة ٥٢٩ ميلادية حين جعل جوستينيان الحارث الرابع (اريتاس في المصادر اليونانية) فيلارخا Philarch (نائب ملك) ، وبطريقاً ، وذلك بعد أن هزم العربَ الموالين للفرس . وقد استقر الغساسنة في

الاراضي الواقعة على نهر اليرموك واعترفت بهم بيزنطة ، وإن لم تكن هي التي اقامت دولتهم . وفي عشية ظهور الاسلام اوقف هرقل المساعدة المالية التي كانت بيزنطة ما تزال تدفعها للغساسنة ، وهو إجراء اقتصادي اتخذه بعد الحرب الفارسية المضنية . وعلى هذا فقد وجد المسلمون الفاتحون غسان في حالة من النقمة على بيزنطة وعدم الولاء لها . وكانت إمـــارة الحيرة العربية تقوم على تخوم العراق الخاضع للفرس ، وهي دولة تابعة لأباطرة فارس الساسانيين وكانت تستقل وتصر على حقوقها حين تضعف الدولة الفارسية ، وتصبح تابعة لها حين تقوى تلك الدولة. وكان عملهم في الامبراطورية عملَ الغساسنة عينه في الامبراطورية البيزنطية. وكان عرب الحيرة عادة يخدمون في الحروب الفارسية ضد بيزنطة كقوات مساعدة رديفة . وبلغ استقلالهم اوجه في عهد المنذر الثالث عدو الحارث الغساني ومعاصره . وكانت الحيرة تعتبر دائماً في الروايات العربية جزءاً اساسياً من المجتمع العربي وعلى اتصال مباشر بباقي انحاء بلاد العرب . وعلى الرغم من انها كانت تابعة للفرس فقد استمدت ثقافتها بصفة رئيسية من الغرب ، من حضارة الشام النصرانية والهلينستية . وكانت في بادىء الامر وثنية ، ولكنها تحولت الى النصرانية على مذهب نسطوريوس الذي جلبه الاسرى.. وقد قضى الامبراطور الفارسي كسرى الثاني على أسرة لخم الحاكمة بعد ثورة قامت بها ضده ، وارسل حاكما فارسياً ليحكم مستتراً وراء حاكم عربي ليس له من السلطان الا الاسم .

وفي سنة ٦٠٤ م هزم العرب النازحون من شبه الجزيرة الى

هذه المنطقة الفرس ، وبذلك قضوا على دولة الحيرة وعلى توسع فارس في شمال شرق بلاد العرب .

وكان الحكم الاجنبي المباشر مصدراً آخر لتأثير اجنبي محدود. فقد كان حكم الاحباش والفرس القصير الأمد في اليمن وولايات فارس وبيزنطة في تخوم بلاد العرب الشمالية مساربَ عرف العرب بواسطتها بعض الشيء عن فنون الحرب ، التي كانت آنذاك اكثر تقدماً مما عندهم ، وتسربت عن طريقها بعض المؤثرات المادية والثقافية .

ويمكننا ان نشاهد رجع هذه الحوافز الخارجية عند العرب في عدد من النواحي . فمن الناحية المادية أخذ العرب السلاح وتعلموا استعماله ، كما اقتبسوا مبادىء التنظيم العسكري وتدبير الخطط الحربية . وفي ولايات التخوم في الشمال كانت القوات العربية الاحتياطية تُمَوّل وتمرن على مقياس واسع . وقد اخذ العرب بالطريقة نفسها المنسوجات والطعام والخمر ، وربما أخذوا كذلك فن الكتابة . ومن الناحية العقلية حملت اديان الشرق الاوسط ، بما فيها من آراء توحيدية ومُثل أخلاقية ، صبغةً من الثقافة والآداب الى العرب وهيّأت المِهاد الاساسي لنجاح رسالة النبي فيما بعد . واقتصر هذا الرجع في الدرجة الاولى على بعض المناطق لا سيما على الحضر في جنوب بلاد العرب وفي الحجاز .

وعلى الرغم من انتشار البدو وكثرة عددهم ، فقد كان الذين يشكلون تاريخ بلاد العرب الحقيقي هم العناصر الحضرية ، ولا سيما اولئك الذين كانوا يعيشون ويعملون على خطوط التجارة عبر بلاد

العرب. وكان تحول هذه الطرق المتتابع هو الذي يقرر التغييرات والانقلابات في التاريخ العربي. ففي النصف الثـــاني من القرن السادس حدث تغيير عظيم الدلالة بعيد الاثر.

ذلك أن الطريق من الفرات إلى الخليج الفارسي، التي كانت الى ذلك الحين الطريق التجارية المفضلة بين البحر المتوسط والشرق الاقصى، اصبحت صعبة بسبب الحروب المتواصلة بـين الدولتين البيزنطية والفارسية، والمنازعات السياسية، وحواجز المكوس والفوضى الشاملة نتيجة للنزاع المستمر. وكانت مصر كذلك في حالة من الاضطراب، ولم تعد تهيىء طريقاً اخرى غـــير وادي النيل والبحر الاحمر. ولذلك تحول التجار مرة ثانية الى الطريق الصعبة التي كانت مع ذلك اكثر هدوءاً. وتسير هذه الطريق عبر غرب بلاد العرب الى اليمن التي كانت السفن الهنـدية تصل الى موانئها. اما مملكتا تدمُر والانبـاط في الشمال، اللتان كان عمرانهما السابق يرجع الى تجمع مثل هـذه الاسباب، فـكانتا قد انقرضتا منذ زمن طويل. ولذا اغتنمت مكة هذه الفرصة المؤاتية.

واوائل تاريخ مكة غامضة. وإذا كنا نرضى، كما ارتأى بعضهم، ان نجعلها هي ماكورابا الـتي ذكرها الجغرافي اليوناني بطليموس، فمن المحتمل انها أُنشئت لتكون محطة عـــلى طريق توابل بلاد العرب الجنوبية الى الشمال. وهي قائمة في موقع حسن على تقاطـــع خطوط المواصلات نحو الجنوب الى اليمن، ونحو الشمال الى البحر الابيض المتوسط، ونحو الشرق الى الخليج الفارسي ونحو الغرب الى ميناء جـدة على البحر الاحمر وزقاق البحر الى

افريقية . وكان يسكن مكة قبل الاسلام بزمن قبيلة قريش العربية الشمالية التي سرعان ما تحولت الى جماعة تجارية ذات شأن. وكان لقريش عهود تجارية مع السلطات البيزنطية والحبشية وسلطات التخوم الفارسية . وكانت تتعامل بتجارة واسعة . وكانت ترسل قوافلَ تجارية عظيمة مرتين في السنة الى الشمال والى الجنوب . وكانت هذه القوافل عمليات تعاونية تنظمها نقابات مكية من التجار وأصحاب رؤوس الاموال . وكانت ترسل قوافل صغرى في اوقات اخرى من السنة . وهناك بعض الشواهد على تجارة في البحر مع افريقية . وكان في جوار مكة عدد من الاسواق اهمها جميعاً سوق عكاظ . وكانت هذه الاسواق تشكل جزءاً من حياة مكة التجارية ، وتساعد على مد نفوذ القرية ومقامها بين البدو المحيطين بها . وكان سكان مكة خليطاً . وكان العنصر المركزي الحاكم المعروف « بقريش البطاح » يتكون من الطبقة السَّرية من التجار ورجال الأعمال والمرابين ورجال القوافل، وهم القائمون على تجارة النقل وسادتها الحقيقيون . وكان يليهم « قريش الظواهر » ، وهم سكان يتألفون من رجال قوافل أقل شأناً ، وأقرب عهداً بالتحضر ، وأهون مكانة ؛ ثم يليهم آخر الأمر طبقة عاملة من الاعراب والبدو . وكان في خارج مكة « عرب قريش » وهم القبائل البدوية التابعة لمكة .

وقد ُوفِّق لامنس حين وصف حكومة مكة بأنها كانت جمهورية تجارية تحكمها نقابة من رجال الاعمال الاثرياء . ولكن ينبغي ألا تضللنا العبارة بحيث نفكر بالنظم الجمهورية المنظمة على

المثال الغربي . فقريش لم تكن قد انتقلت من البداوة إلا منذ عهد قريب . وكان مثلها الاعلى ما يزال بدوياً ، وهو حدٌّ أعلى من الحرية الفردية ، وحدٌّ أدنى من السلطة العامة . وكان يقوم على تنفيذ ما عندهم من السلطة العامة الملأ وهو نظير حضري للمجلس القبلي ، يتكون من الاعيان ورؤوس الاسر ، وكان هؤلاء ينتخبون بالنسبة لثروتهم ومكانتهم . وكان سلطانه خلقياً واقناعياً في الدرجة الاولى . وبقي تكتل التجار الطبقي الاساسَ الحقيقيَّ لوحدتهم . وقد بدا التكتل واضحاً في مقاومتهم للنبي . وقد هيأت الخبرة والعقلية التجاريتان لبرجاسية (بورجوازية) مكةَ القدرةَ على التعاون والتنظيم وضبط النفس التي كانت نادرة بين العرب ،والتي كانت ذاتَ أهمية فريدة في إدارة الامبراطورية الواسعة التي وقعت تحت حكمهم فيما بعد .

وفي هذا الوسط ولد محمد نبي الاسلام .

الفصل الثاني

محمد وظهور الاسلام

« وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى
ومن حولها، وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه. فريق في الجنة
وفريق في السعير . » (الشورى : ٧)

ينبه رينان في مقال له عن محمد وأصول الاسلام الى ان الاسلام، خلافاً لغيره من الاديان التي كانت نشأتها محاطة بالغموض ، ولد في وضح نور التاريخ . « فجذوره ليست خفية في باطن الارض ، وحياة مؤسسه معروفة عندنا معرفة حياة المصلحين في القرن السادس عشر» . وعندما نبه رينان الى هذا كان يشير الى المادة الواسعة التي تهيئها كتب « السيرة »، وهي تاريخ حياة الرسول الاسلامية المأثورة . وعندما وضعت المشاكل ، الناشئة عن حكم امبراطورية واسعة ، العربَ وجهاً لوجه أمام جميع الصعوبات التي لم تنشأ قط خلال حياة النبي أُقر المبدأ بان القرآن ، وهو كلام الله ، ليس وحده الحجة التي تهدي الناس سواء السبيل ، بل كذلك اقوال النبي وافعاله خلال حياته كلها . ودواوين هذه الاقوال والاعمال

محفوظة في مجموعة من الحديث ، وكل حديث منها متصل بسند من الثقات بصيغة « حدثنا فلان عن ... أنه سمع عن ... الذي سمع النبي يقول » : وبعد اجيال قليلة من موت النبي نشأت مجموعة ضخمة من الحديث تتناول كل ناحية من حياته وافكاره .

وقد يبدو الحديث عند النظرة الاولى ، بما فيه من تعداد دقيق لرواته الثقات الذين يرفعون دائماً الى رواية شاهد عيان ، مرجعاً موثوقاً كأحسن ما يأمل الانسان . ولكن ثمة صعوبات . فجمع الحديث وتدوينه لم يحدثا الا بعد جيلين او ثلاثة من وفاة النبي . وفي تلك المدة كانت دوافع وضع الاحاديث وفرص تزويرها تكاد تكون لا حد لها . فأولاً ، يكفي مجرد مرور الزمن وعجز الذاكرة البشرية وحدهما لان يلقيا ظلالاً من الشك على بينة تنقل مشافهة مدة تزيد على مئة عام . ولكن كانت ثمة دوافع للتحريف المتعمد . فقد كانت الفترة التي تلت وفاة النبي فترة تطور شامل عميق في الجماعة الاسلامية . إذ دخل الاسلامَ خلالها عن طريق الشعوب المغلوبة ضروبٌ لا عداد لها من المفاهيم والمشاكل الاجتماعية والسياسية والشرعية والدينية الجديدة ، فنُسب كثير من الآراء والحلول التي نشأت عن ذلك الى النبي عن طريق الاحاديث الموضوعة . وكانت هذه الفترة كذلك فترة نزاع داخلي عنيف بين الأفراد والأسر والاحزاب والفرق داخلَ الجماعة الاسلامية نفسها . ولم يكن كل واحد منهم يجد طريقة يسند بها قضيته خيراً من ان يضع أحاديث ينسبها الى النبي ، وتقول برأي موافق لهواه . ويكفي

على ذلك مثال واحد : فمكانة أسر مكة وأهميتهـــا بالنسبة الى بعضها بعضاً في أثناء حياة النبي شُوِّهت في الحـــديث تشويهاً لا يُدرك معه شيء ، وذلك بسبب منافسات أحفادهم زمن تدوين الحديث .

وقد أدرك المسلمون ، منذ زمن متقدم ، كم من الاحاديث كان مكذوباً . فاقاموا علم الجَرْح والتعديــــل ، ليميزوا الاحاديث الصحيحة من الاحاديث التي صنعها كذب الاتقياء وغير الاتقياء . وكان النقد المأثور عنـدهم يعمل في فحص سلسلة السند ، فيجرحون بعض رجال السند لأنهم متهمون بالهوى في رأيهم ، او لانه لم يكن ليُعقل أنهم سمعوا الاحاديث او نقـلوا الخبر الذي حدث . وقد بين النقّاد المحدثون عدداً من النقائص الهامة في هـــذه الطريقة . فأولاً ، من السهل وضع سلسلة سندٍ سهولةَ وضع الحـــديث نفسه . وثانياً ، فان الطعن في بعض الرواة بمجرد قول الثقات يعني غلَبَة قول ثقة بعينـــه واتخاذه مقياساً للحكم على غيره . وقد قام النقد الحـــديث على إخضاع نص الاحاديث نفسها للتحليل التاريخي والنفسي . فقـــد أظهر نقد كايتاني ولامنس الدقيق ، والعارض احياناً ، ان كل الحديث المدون ، الذي تشكـِّلُ سيرةُ النبي قِسْماً منه ، يجب أن يُؤخذ بالحذر والتحفظ ، وأن يوزن كل حديث بمفرده ، وأن يُختبر قبل أن يُقبل ويوثق .

أما المصدر الذي لا شُبهة فيه عن حياة النبي فهو القرآن نفسه ، وهو مجموعة الاقوال التي بلّغها الله . ومن القرآن ومن المعلومات

المحدودة الميسورة من مصادر غيره ، يمكننا ان نجمع ترجمة لمحمد، وإن تكن غير مفصلة كحياته في الحديث وعند السابقين من الكتاب الاوروبيين الذين تأثروه ، إلا انهـــا كافية لأن تبرز اهم ما في سيرته من دلالة .

ولا يُعرف إلا القليل عن نسب محمد وأوائل حياته ، بل إن هذا القليل قد أَخذ يتناقص شيئاً فشيئاً كلما تقدم البحث الاوروبي واثار شبهة بعد أُخرى حول المادة المضمنة في الاخبار الاسلامية. ويبدو أن النبي ولد في مكة بين ٥٧٠ – ٥٨٠ ميلادية في بيت بني هاشم ، وهو بيت مشهور من بيوتات قريش ، وإن لم يكن أحد افراد الأوليغاركيّة الحاكمة . وقد نشأ محمـد نفسه يتيماً في احوال فقيرة ، وكان ذلك على ما يرجح في كنف جده . وقد نال الثروةَ والمكانة عندمـا تزوج من خديجة ، وهي ارملة تاجر غني، تكبر محمداً بعدة سنوات . ونجد صدى هذه الاحداث في الآيات القرآنية التالية : ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلًا فأغنى (سورة ٩٣ الضحى ٦ – ٨) . أما أنه اشتغل بالتجارة فهو أمر محتمل وإن لم يكن اكيداً . وقد كانت مكة مدينة يتم فيها تبادل التجارة . وترداد التشابيه والمجازات والعبارات التجارية في القرآن يوحي بأنه كانت للنبي خبرة تجارية . أما الاخبار التي تنبىء عن رحلات تجارية الى البلاد المجاورة، فتدعو الى التحفظ . إذ من الثابت أن ثمة بيّنة ضئيلة في اقوال محمد تنبىء بمعرفته لتلك البلاد . وتثير المشكلة الحرجة حول ما سبق له من روحانية كثيراً من نقـاط التساؤل . فمن البيّـن انه كان في ظل المؤثرات اليهودية والنصرانية .

ويؤيد هذا فكرة التوحيد والوحي نفسها والعناصرُ الكثيرة التي تعود الى الكتاب المقدس . ولكن محمداً لم يسبق له ان قرأ الكتاب المقدس . وتقول الاخبار الاسلامية انه كان لا يقرأ ولا يكتب . وقد يكون الامر هكذا وقد لا يكون . ولكن روايته لقصص الكتاب المقدس توحي بأن معرفته به كانت عن طريق غير مباشر ، وربما كانت عن طريق التجار والرحالة اليهود والنصارى الذين كانت اخبارهم متأثرة بالمؤثرات المدراشية والابوكرافية . وتشير الاخبار الى قوم يسمون بالحنفاء ، وهم مكيون وثنيون لم يقنعوا بعبادة الاصنام السائدة بين قومهم ، وبحثوا عن صورة من الدين اطهر ، ولكنهم كانوا غير راغبين في اعتناق اليهودية او النصرانية ، وقد يكون من الصحيح ان نبحث بينهم عن اصول محمد الروحية . وقد جاءت الدعوة محمداً حين كان يقترب من سنته الموفية اربعين . وسواء كان ذلك قمةً لتطور طويل ، أم كان انفجاراً مفاجئاً كما يوحي بذلك القرآن والاحاديث والاخبار ، فالامر ليس ثابتاً ، رغم ان الاخير منهما اشبه بالصحة . وقد اعتبر اهل مكة دعوته الاولى غير ضارة ، فلم يقاوموه ، ولعله في ذلك الطور لم تكن عنده فكرة انشاء دين جديد ، بل كان يبغي ان يأتي للعرب بوحي كالذي أُرسل من قبل لغيرهم من الشعوب بلغاتهم . وسور القرآن المكية دينيةٌ في الدرجة الاولى ، وتتناول في المقام الاول وحدانية الله وسَفَه عبادة الاصنام وقرب موعد عقاب الله وثوابه . وقد لقي أولَ الأمر نُصرة ضئيلة جاءت في الدرجة

الاولى من العناصر المستضعفة . وكان من اول من آمن به زوجه خديجة وابن عمه علي الذي صار فيما بعد الخليفة الرابع . ولما اشتد محمد في هجومه ، وهاجم بصراحه دينَ مكة القائم ، اشتدت المقاومة له ولاتباعه بين العناصر الحاكمة . وقد حاول عالِمٌ من القرن التاسع عشر ان يصور النزاع بين الجماعة الاسلامية الوليدة وبين الاقلية المكية الحاكمة على انه نزاع طبقي ، يمثل محمد فيه ذوي الحقوق المهضومة ونقمتهم على الاقلية البرجاسية الحاكمة . وعلى الرغم من ان هذا الرأي يبالِغُ في مظهرٍ من مظاهر دعوة محمد بحيث يفسد بقيّتها ، إلا ان فيه هذا المقدار من الحق : وهو أن التأييدَ الذي لقيه اول الامر كان مستمداً من الطبقات الفقيرة ، وان معارضة اهل مكة كانت في اصلها اقتصادية الى حد كبير ، وأنها كانت قائمة على اعتبارين : أولهما وأهمهما الخوفُ من ان يؤدي إبطال الدين القديم وإبطال مقام حرمة مكة الى حرمانها من مكانتها الفريدة المربحة كمركز للحج وقضاء المصالح . وثانيهما المعارضة في دعاوى شخص لم يكن هو نفسه من احد بيوت السادة . وإذا كانت المعارضة اقتصادية في اسبابها ، إلا انها ابرزت نفسها سياسياً اكثر منها دينياً ، وانتهت اخيراً بأن دفعت محمداً نفسه الى العمل السياسي . وتتميز الفترة الاخيرة من إقامته في مكة باضطهاد المسلمين، الذي وإن يكن أقلَّ عنفاً مما توحي به الاخبار ، إلا أنه كان على الرغم من ذلك من الاهمية بحيثُ أدى الى هجرة عدد من المؤمنين الى الحبشة. وعلى الرغم من الاضطهاد مضى الاسلام ، كما كانت تُسمى الاستجابة للدين الجديد، يكسب

أتباعاً جداً . ومن أبرزهم مكانة ابو بكر ، وعمر وهو من بطن بني عَدِيّ . وكان لسرعة عمر في الفصل في الامور والعمل فضل كبير على الجماعة المناضلة . ومنهم عثمان من بني أمية ، إحدى الاسر الحاكمة ، وهو الوحيد ذو الخطر الذي أسلم من بين الطبقة الحاكمة . وقد دفع الفشل في إحراز تقدم ذي شأن ضدّ مقاومة أهل مكةَ محمداً الى ان يطلب النُّصرةَ في مكان آخر

ولم يكن نصيب محاولته في طلب النصرة من الطائف غير الفشل . فقبل دعوةَ أهل المدينة له الى مدينتهم . وكان يسكن المدينة الواقعة على بعد حوالى ٢٨٠ ميلًا شمال شرقي مكة في الاصل قبائلُ يهودية من الشمال ، ولا سيا بنو النضير وبنو قريظة . وقد اجتذب خصب المدينة النسبي جماعات من العرب الوثنيين جاءت كموالٍ لليهود في البداية ، ولكنها نجحت آخر الامر في السيادة على المدينة . والمدينة ، او يثرب كما كانت تعرف قبل الاسلام ، لم يكن لها شكل من اشكال الحكومة الثابتة . وكان يتنازعها حفدة القبيلتين العربيتين المتشاحنتين وهما الأوْس والخزرج .

وكان اليهود يحفظون توازناً في القوى قلقاً . وكانوا يشتغلون بالدرجة الاولى في الزراعة والحرف اليدوية مما جعلهم فوق العرب اقتصادياً وسياسياً . ولهذا السبب كانوا مكروهين من قبل العرب . وسنرى أنه حالما توصل العرب الى الوحدة بفضل جهود محمد هاجموا اليهود وقضوا عليهم آخر الامر .

وكانت هجرةُ محمد من مكة الى المدينة نقطةَ تحول . واختارتها الاجيال التالية بحق نقطة البداية في التقويم الاسلامي . ولم تقم

قريش بمحاولة جدية لمنعها ، ورحـل محمد عندما طاب له الرحيل . وكان قد أوعز الى أتباعه ،دون ان يأمرهم ،ان يرحلوا ، حتى كان هو آخر من بقي في مكة . وبعض ما هدف اليه من وراء تأخيره هذا هو وصوله إلى المدينة على رأس جماعة معينة ذات وضع معروف لا وحيداً وطريداً مضطهداً . وكان اهل المدينة قد دعوه بصفته رجلاً تحل فيه روح ذات قوة خارقة ،ويستطيع ان ينفعهم كحكم ، وان يفصل في خلافاتهم الداخليـــة اكثر من دعوتهم له بصفته رسول الله . ولم يكن الاسلام اول الامر ذا نفع لهم كدين جديد بقدر ما كان نافعاً لهم كمنهج يمكن ان يهيء لهم الامن والنظام . وكانوا ، خلافاً لاهل مكة ، لا مصلحة ثابتة لهم في الوثنية ، ولا مانع عندهم من قبول الناحية الدينية في الاسلام شريطة ان تسد حاجتهم السياسية والاجتماعية اما دخول اهل المدينـة في الدين دخولاً كاملاً فلم يحـدث إلا بعد زمن متأخر كثيراً . وقد كان هناك خلاف في الرأي بين أهل المدينة منذ البداية على مسألة دعوة هذا الحكم الغريب (اي النبي) الى المدينة . ويُعرف الذين أيدوا محمداً ، في الاخبـار ، بالانصار ، والذين عارضوه بالمنافقين . اما الصفة الدينية لهذا الخلاف في الرأي فعكس للترتيب التاريخي من فعل المؤرخين المتأخرين .

سبقت الهجرة مفاوضاتٌ طويلة . وقد حدثت في ١٦ تموز من عام ٦٢٢ م ، وهي أول تاريخ ثابت في الاسلام . وتعين هـذه السنة نقطة تحول وثورة في رسالة محمد . في مكة كان مواطناً مغموراً ، أما في المدينة فقد أصبح رئيس جماعة . وفي مكة كان عليه

ان يقصر نفسه على مقاومة النظام القائم قليلاً او كثيراً ، اما في المدينة فكان هو الحاكم. وفي مكة كان يدعو الى الاسلام ، اما في المدينة فقد أصبح قادراً على أن ينفذ تعاليم الاسلام . وقد أثر التغيير بالضرورة في شخصيته وشخصية الاسلام وتعاليمه وأعماله . وفي المدينة ايضاً تنتقل الاخبار المدونة من الاسطورة الى التاريخ.

جابه حكم محمد في المدينة منذ البداية صعوبات خطيرة . فقد كان مناصروه المخلصون له اخلاصاً شديداً قليلي العدد ، ويتألفون من المهاجرين ، وهم أولئك المكيون الذين رافقوه ، ومن الانصار المدينيين الذين ناصروه ضد معارضة المنافقين الفعالة . وعلى الرغم من ان هذه المعارضة كانت سياسية في الدرجة الاولى ، فقد ظل أصحابها شديدين في مقاومتهم الى أن دفعتهم المنافع الملموسة التي جلبها لهم الاسلام فيما بعد الى الرضى عن العقيدة الجديدة . وكان محمد قد أمل ان يجد ترحاباً وُدياً بين اليهود الذين كان دينهم وكتبهم ، كما ظن هو ، ستجعلهم يتقبلون دعواه بتأييد وفهم اكثر من غيرهم . ومن اجل استرضائهم ، ادخل في دينه عدداً من شعائرهم وبينها صوم التكفير واستقبال بيت المقدس في الصلاة . ولكن اليهود ، على كل حال ، رفضوا مزاعم النبي الأمي ، وعارضوه في الامور الدينية التي كان أشد ما يكون تأثراً بحساسيتها . ولكنهم فشلوا في مقاومتهم له بسبب تفككهم الداخلي وعدم تألفهم لاهل المدينة على وجه العموم . ولما أدرك محمد أنه لن ينال مناصرة من هذه الجهة ، ترك فيما بعد الشعائر اليهودية التي كان قد اتخذها ، واستبدل مكة

بالقدس قبلة للصلاة ، وأضفى على عقيدته طابعاً عربياً قومياً أشد دقة والتزاماً .

ومنذ وصوله الى المدينة كانت له قوة سياسية كافية تمنعه وتمنع أتباعه من معارضة شديدة كمعارضة قريش . ولما كان يدرك أن العقائد الدينية التي كانت هدفه الحقيقي كانت في حاجة إلى مناصرة هيئة سياسية ، أخذ يعمل سياسياً . واستطاع بلباقة سياسية أن يحوّل قوته السياسية الى سلطة دينية . وقد أبقى لنا المؤرخون العربُ وثيقةً لا يزال أصل معظمها موضع شك ، تبين لنا نواة دستور الجماعة المدنية الأولى . ويقول مؤرخ سيرته :« وكتب رسول الله (صلعم) كتاباً بين المهاجرين والانصار وادع فيه يهود ، وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم(١) . وليس هذا الكتاب معاهدةً بالمعنى الاوروبي بل تصريحاً من جانب واحد . وكان الغرض منها عملياً وإدارياً صرفاً ، ويبين طبعَ النبي الحذر الحريص ونُظمت العلاقات بين المهاجرين المكيين وقبائل المدينة ، وبين هذين الفريقين وبين اليهود والجماعة التي أقامتها هذه الوثيقة ، وهي الامة ، كانت تطوراً للقرية الجاهلية صحبته تغييرات حيوية . وكانت خطوة أولى نحو الحكم الاستبدادي الاسلامي فيما بعد . وقد أقرت ايضاً النظام والعادات القبلية . وذلك ان كل قبيلة احتفظت بالتزاماتها وحقوقها نحو الغرباء أما في داخل الامة فان هذه الحقوق كلها اندثرت . وكانت النزاعات تعرض على النبي

(١) ابن هشام ، تحرير وستنفلد (غوتنجن ، ١٨٦٠) ص ٣٤١

للفصل فيها ولم يُستثن من هذا إلا قريش استثناءً خاصاً. وكان لا يجوز لفريق بمقتضاها ان يعقد صلحاً منفصلاً مع قوم أغراب. وكان المعتدون على الامة يعتبرون خارجين على الجماعة.

وقد زادت الامة في العادات الاجتماعية التي كانت سائدة في بلاد العرب قبل الاسلام، ولم تبطلها. وكانت أفكارها حول هذا الموضوع لا تعدو نطاق البناء القبلي: احتفظت بنفس الاحكام [السارية قبل الاسلام] في مسائل المِلكية والزواج والصلات بين أفراد القبيلة الواحدة. ومن الطريف أن نلاحظ انّ دستور النبي العربي الاول هـذا شمل تقريباً جميع العلاقات المدنية والسياسية، ليس بين المواطنين انفسهم فحسب، بل بينهم وبين غيرهم أيضاً.

ومع هذا فقد حدثت تغييرات هامة: أولها هو أن العقيدة حلت محل الدم كرابطة اجتماعية. وقبل الاسلام كان إله القبيلة وطقوسها الدينية هما علامات القومية، وكان الكفر بهما دلالةً على الخيانة الوطنية. وكان من شأن هـذا التغيير اذا وضع موضع التنفيذ أن يُخمد المنازعات الدموية في صفوف الامة، وأن يقوي من وحدتها الداخلية باللجوء الى التحكيم. وحدث تغيير آخر لا يقل اهمية عن سابقه، ألا وهو التصور الجديد للسلطة. لقد اصبح شيخ الامة، اي محمد، يرأس المؤمنين، لا بتخويله سلطة معلقة بشروط ومتوقفة على موافقة القبيلة، وممنوحة عن غير طيب خاطر، ويمكن تجريده منها في اي لحظة، بل أصبح يرأسهم استناداً الى امتياز ديني مطلق. ذلك ان مصدر السلطة تحول من الرأي العام

إلى الله الذي خولها محمداً رسوله المصطفى .

وهكذا اصبح للأمة طابع مزدوج .فبينما كانت جهازاً سياسياً من ناحية ، اي نوعاً من قبيلة جديدة، محمد شيخها ويتألف افرادها من مسلمين وغير مسلمين ، كان لها في الوقت ذاته معنى ديني اساسي فقد كانت جماعة دينية ، اي ثيوقراطية .إلا ان الاهداف السياسية والدينية لم تتضح مطلقاً في ذهن محمد واذهان معاصريه وضوحاً يجعل من الممكن تمييزها . وقد كانت هذه الثنائية أصيلة في المجتمع الاسلامي الذي كانت امة محمد نواته. كما ان حدوثها في ذلك الوقت وذلك المكان كان امراً حتمياً لا بد منه. فالديانة في المجتمع العربي البدائي كان يعبر عنها ، كما كانت تنظم ، بطريقة سياسية لعدم وجود شكل آخر للتعبير عنها وتنظيمها . وبالعكس كانت الديانة وحدها هي التي تعد اساس أيّ حكومة عند العرب الذين كان كل تصور للسلطة السياسية غريباً عنهم .

ولما كان المهاجرون معدمين من الناحية الاقتصادية ولا يرغبون في ان يعتمدوا كلياً على المدينيين ، فقد تحولوا الى المهنة الوحيدة الباقية وهي السطو . وقد عبر الكتّاب الاوروبيون عن استيائهم البالغ ، وهم محقون في ذلك ، حين رأوا رسولَ الله يقود المسلمين في غارات على قوافل التجار من اجل الحصول على الغنيمة . الا انه - طبقاً لظروف ذلك الزمن ، وطبقاً لمبادىء العرب الاخلاقية - كان السطو مهنةً طبيعية وشرعية . وقيام الرسول بمثل ذلك العمل لا يُلحق به اي عار . وحققت غارات المسلمين على التجار المكيين غرضين : اولهما

انها ساعدت في فرض حصار علـــى مكة ، لم يكن من المستطاع إخضاعها الا عن طريقه . وثانيهما انها ساعدت في إنماء قوة المدينيين وثروتهم ونفوذهم . وفي آذار من سنة ٦٢٤م، فاجأ ثلاثمئـة مسلم، بقيادة محمد ، قافلةً مكية في بدر . وفاز الغزاةُ بأسلاب وافرة ، ومجّد القرآن اعمالهم التي كانت تنفيذاً لارادة الله . وساعدت معركةُ بدر في تثبيت المجتمع الاسلامي ، كما كانت نقطـــة البداية لنوع جديد من الوحي . فمنذ ذلك الوقت اصبحت الآيات تختلف جد الاختلاف عن الآيات المكية . تناولت الآيات الجديدة مثلاً كلَّ الحكم العملية ، وتوزيعَ الغنائم وما شاكل ذلك . وقد جعل نصرُ بدرٍ من الممكن قيام ردّ فعل ضد اليهود ، وبالتالي ضد النصارى الذين اتُّـهموا الآن بتحريف كتبهم المقدسة لكي يخفوا النبوءات التي تبشر بظهور محمد . واخذ الاسلام نفسه يتطور . فقـــد بدأ محمد ينشر ديناً جديداً بصفته خاتم النبيين . واصبح الدين الجديد عربياً بكل ما في الكلمة من معنى . واذ اصبحت الكعبـة مكاناً للحج فقد صار فتحها واجباً دينياً .

وفي آذار من سنة ٦٢٥ م قامت قريش بحملة ضد محمد ، لدرء خطر المدينيين المتفاقم على القوافل ، وهزمت المسلمين على سفوح أحد ... ولمـا شعر اهـــل قريش انهم ليسوا من القوة بحيث يواصلون هجومهم حتى المدينـــة عادوا الى مكة . ولم يعـــانِ المسلمون – نتيجةً لمعركة أحد – هزيمة حقيقية ، بـــل هاجموا وطردوا قسماً من القبائل اليهودية القاطنة في المدينة كما حدث سابقاً بعد معركة بدر . ولكن قريشاً لم تلق السلاح بعد ، ففي

ربيع ٦٢٧ م زحف جيش من قريش يبلغ عشرة آلاف مقاتل على المدينة وحاصرها . وكانت فكرةُ حفر خندق حول المدينة (وقد اقترحها — طبقاً للرواية العربية — مسلم فارسي) كافيةً لاحباط فنون الحصار القرشية . وبعد اربعين يوماً انسحب جيش قريش . وتلا هذا النصر استئصال يهود بني قريظة .

وفي اوائل ربيع سنة ٦٢٨ م شعر محمد بأنه قادر على الهجوم على مكة. وفي طريقه اليها اتضح له ان محاولته هذه سابقة لاوانها. وعلى هذا تغير هدف الحملة من هجوم الى حج سِلمي . واستقبل قادةُ المسلمين مفاوضي مكة في مكان يدعى الحديبية على حدود المنطقة الحرام حول مكة حيث كان القتال — طبقاً للعرف الجاهلي — محرماً في فترات معينة من السنة. وتمخضت المفاوضات عن عقد هدنة لمدة عشر سنين ، أصبح للمسلمين بموجبها الحق في أن يحجوا الى مكة في السنة التالية ، وان يمكثوا فيها ثلاثة أيام .

وقامت معارضة بين بعض المسلمين المتحمسين في وجه هذه النتيجة غير الحاسمة. ووجهت هذه المعارضة الى واحة خيبر اليهودية. وكان نصر المسلمين في خيبر هو أول احتكاك بين الدولة الاسلامية وشعب مقهور غير مسلم، كما كان اساس المعاملة في العلاقات المستقبلة من ذلك النوع . واتفق على أن يحتفظ اليهود بأراضيهم لقاء جزية قدرها نصف حاصلاتهم . وفي السنة التالية قام محمد ومئتان من اتباعه بالحج الى مكة ، حيث جلبت سمعةُ الدين الجديد وقوّته المتزايدتان اتباعاً جدداً له ، كان بينهم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد اللذان قُدِّر لهما أن يقوما بدور هام في الفتوح الاسلامية

المقبلة . وأخيراً ، وفي كانون الثاني (يناير) من سنة ٦٣٢ م
اُتخذَ قتلُ مسلمٍ على يد احد كفار قريش ، بسبب ما يبدو أنه
خلاف شخصي ، ذريعةً لاعلان الهجوم النهائي على مكة وفتحها .

وبفتح مكة ودخول قريش في الاسلام انتهت تقريباً رسالة
محمد التي حملها طيلة حياته . ولم يقم بأيٍّ نشاطٍ خطير في السنة التي
بقيت من حياته بعد ذلك الفتح . وأبرزُ مظاهر السنة الاخيرة من
حياته هو رد فعل القبائل البدوية تجاه المجتمع الجديد في المدينة .
وفي علاقاته بتلك القبائل واجهَ محمد ظروفاً لم تكن في صالحه ،
اذ كان النظام الذي قدمه لهم غريباً عنهم من كل وجه . فقد
تطلّب منهم التضحية بحبهم الشديد لاستقلالهم الشخصي وبجزء هام
من عُرفهم الاخلاقي الراسخ عندهم ، وتقاليدهم الموروثة عن
أجدادهم . ومما يشهد بمقدرة الرسول السياسية فهمه لتلك الصعاب
وتغلبه عليها إلى حد كبير . أما هدفه الحقيقي والنهائي ، وهو
إدخال البدو في الاسلام فلم يتحقق تماماً . وحتى في زمننا هذا
يَشُكّ أصحاب القول الفصل في اسلام البدو . وكان هدفه المباشر
والخارجي من وراء دبلوماسيته بعد الهجرة هو بسط نفوذه للقضاء
على نفوذ قريش . ونجح في هذا بتجنبه إقحامَ نفسه في
المشاحنات القبلية ، وبقَصْر اهتمامه في الشؤون السياسية
والعسكرية على علاقاته بالقبائل ، تاركاً الدخولَ في الاسلام
للأفراد . وكانت شروط الاتفاقات التي تمّت بين محمد والقبائل
متشابهةً على الدوام : كانت القبيلة عادةً تعترف بسيادة المدينة
وتتعهد بالابتعاد عن مهاجمة المسلمين وحلفائهم وبدفع الزكاة –
اي الضريبة الاسلامية الدينية – وفي بعض الحالات كان عليها أن

تقبل مبعوثي المدينة . وأما القبائل البعيدة فكان محمد يعاملها على قدم المساواة ، شريطةَ أن تلتزم حيادها التام الودّي .

وعقب فتح مكة قامت بين القبائل البعيدة حركةٌ موالية للمسلمين ذات طبيعة متحزبة وسياسية خالصة. وكانت تلك الحركة شاهداً على قوة الامة ونفوذها : واتخذت شكل « سفارات » وَفدتْ من نفسها على المدينة ، وتعرف في التاريخ الاسلامي باسم « الوفود » . وقدمت تلك الوفود خضوعَها من الناحية السياسية كما فهم محمد ، مع انه استغل هذه الفرصة للدعوة الى الدين . وكان الاتفاق الذي عقدوه اتفاقاً شخصياً وسياسياً مع حاكم المدينة . ومثل هذا الاتفاق - طبقاً لما تعارف عليه العرب - ينتهي آلياً بوفاة الرسول . وكان بين القبائل الاكثر بعداً والواقعة تحت تأثير حضارات سورية وفارس ، والتي كانت من البعد بحيث لا تدرك مدى قدرة المسلمين على الحرب ولا تستجيب لهم للسبب نفسه ، أقليات تأثّرت بالدين الجديد . وكانت الوفود تمثل هذه الاقليات ، لا القبائل كلها .

وفي ٨ حزيران (يونيه) سنة ٦٣٢ م توفي الرسولُ بعد مرض قصير ، وذلك بعد ان أنجز الشيء الكثير. فقد هيأ للقبائل الوثنية القاطنة في غرب الجزيرة ديناً جديداً يقف ،بسبب قوله بمبدأ التوحيد وبسبب ما يشتمل عليه من مبادىء خلقية ، في مستوى ارفع من الوثنية التي حل محلها. وقد زود الدين الجديد بكتابٍ منزل،اصبح ، في القرون التي تلت ، المرشدَ لملايين كثيرة من المسلمين في الفكر والسلوك ، بل فعل أكثر من ذلك: فقد اسس ايضاً مجتمعاً ودولة

حسنة التنظيم جيدة العدة جعلتها قوتها وشخصيتها العاملَ المسيطر في جزيرة العرب .

اذن ما هي دلالةُ حياة النبي النهائية ؟ نادراً ما يتبادر هـذا السؤال الى ذهن المسلم. فمحمد في نظر اتباعه خاتم الرسل واعظمهم. بُعث ليبلغ الجنس البشري كلمة الله . وحياته ونجاحه ، عندهم ، رُسما من قبل ، وتحتم حدوثهما ، وعلى هذا فليسا موضع بحث . وقد كسا خيال المسلمين الورعين الذين جاؤوا فيما بعد شخصيةَ الرسول الغامضـةَ بنسيج أسطوري غني متعدد الالوان من الخرافات والاساطير والمعجزات،غير عالمين بأنهم يسلبونه واحدةً من اهم صفاته الجذابة حين يُقللون من قيمته الانسانية التاريخيـة الحقيقيـة .

وقد [١] اوجد الغرب كذلك أساطيره عن محمد وشخصيته – من الاخطاء غير المعقولة والتهجمات الجدلية البذيئة والطعن الساخر في القرون الوسطى،حتى شخصية محمد العلمانية التي صورها فولتير. فقد بدأت هذه « التشنيعات » القروسطية بتصوير النبي كشيطان من الشياطين او إله دجّال يُعبد عبادة عربدة في ثالوث غير مقدس، وانتهت الى تصويره رئيس الهراطقة الذي وضعه دانتي في موضع لا يصعب تمييزه،عقاباً له على كونه ناشراً للوشايات والفضائح والشقاق. واخيراً ، بعد عصر الاصلاح ،صُوّر النبي كدجال خبيث اناني .

---

(١) نحب ان ننبه الى ان القصد من ترك هذه الفقرة على حالها هو اطلاع القارىء العربي على الفكرة التي كونها الغربيون عن الرسول في العصور الوسطى. ولا تستحق محتوياتها الرد ، فليست الا من قبيل التهجم البذيء . [المعربان]

وهنالك اسطورة ذاعت في الغرب خلال القرون الوسطى تصور النبي كردينالاً طموحاً مغلوباً على امره ، اقدَمَ ، على اثر فشله في الفوز بكرسي البابوية ، على ادعاء النبوة . ولا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عددٍ من العلماء المعاصرين ومستترة في الغالب وراء الحواشي المرصوصة في الابحاث العلمية .

اما المؤرخ الحديث فلن يصدّق بسهولة ان حركة مهمة كهذه يمكن ان تقوم على اكتاف دجال اناني ؛ ولن يرضى كذلك بتفسير يعتمد ما فوق الطبيعة فحسب ، سواء كان اعتماده على مصدر إلهي او شيطاني . بل سينهج المؤرخ الحديث نَهْجَ جيبون فيحاول – بتواضع لائق – ان يتعرف ، لا الى الاسباب الاولية ، بل الى الاسباب الثانوية التي ادّت الى انتشار الدين انتشاراً واسعاً . فان النبي لم يخلق حركة جديدة بقدر ما بعث تياراتٍ كانت موجودةً لدى العرب في ايامه ، ووجهها هو توجيهاً جديداً

ويوضح لنا الانطلاق الجديد الذي عقب وفاة النبي ، بدل الانهيار الشامل الذي كان يتوقع حدوثه ، ان سيرةَ النبي كانت استجابة لحاجة سياسية واجتماعية ملحة . وكان تطلّع العرب نحو الوحدة قد وجد تعبيراً اولياً اصيب بالفشل وذلك في قيام امبراطورية كندة التي لم تعمر طويلاً .

وقد ادت حاجة العرب الى شكل اسمى من اشكال الدين الى انتشار اليهودية والنصرانية ، والى ما هو اهم منها ، وهو قيام الحنفاء العرب في الجزيرة نفسها . وحتى في حياة الرسول نفسه قام بين القبائل في انحاء الجزيرة عدد ممن ادعوا النبوة . وكان عملهم

هذا تقليداً للرسول من ناحية ، ونتيجـة ً لتطور ديني مشابه من ناحية اخرى .

لقد أيقظ محمدٌ القوى الكامنة المتطلعـة الى بعث وتوسع قومين عربيين ووجههما توجيهاً جديداً . أما إتمامه فقـد تُرك للآخرين .

الفصل الثالث

عصر الفتوح

« وقد رأيت حين هبت ريحهم ، وأشرقت دولتهم بالدعوة، وانتشرت دعوتهم بالملة ، وعزت ملتهم بالنبوة ، وغلبت نبوتهم بالشريعة ، ورسخت شريعتهم بالخلافة ، ونضرت خلافتهم بالسياسة الدينية والدنيوية ... » (ابو حيان التوحيدي : الامتاع والمؤانسة) .

كان الشرق الاوسط والادنى في أوائل القرن السابع تتقاسمه امبراطوريتان عظيمتان متنافستان ، وهما الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية . وتاريخ القرون الثلاثة السابقة ، في أكثره ، سجل للحروب التي دارت بينهما . وكانت الامبراطورية البيزنطية بعاصمتها العظيمة ، وهي القسطنطينية ، إغريقيةً مسيحية في ثقافتها وديانتها ، كما كانت لا تزال الى حد بعيد رومانية في إدارتها . وكانت أهم دعائم سلطانها هي هضبة الاناضول العظيمة التي كانت عندئذ هلينية راسخة الهلينية أو تكاد . وإلى جنوب هذه الهضبة كانت تقع ولايتا سورية ومصر حيث كان السلطان البيزنطي مهدداً من نواحٍ عدة : كان بين سكانها – وهم آراميون في الاولى واقباط في الثانية – وبين الاغريق بون شاسع من ناحية العنصر ، ومن ناحية الثقافة كذلك ، ولكن الى درجة أقل .

والسخط على الحكم البيزنطي وعلى الضرائب الباهظة التي فرضها على هؤلاء السكان يبدو جلياً في قيام الكنائس المونوفيزيتية التي كانت في صراع مستمر ضد مذهب الامبراطورية الرسمي . وفي فلسطين قاسى اليهود، وكانوا لا يزالون يؤلفون عنصراً له خطره [١] ، ان لم يكونوا في ذلك الحين هم اغلبية السكان ، من ظلم البيزنطيين حتى اكثر من المسيحيين الهراطقة . وعلى هذا فلم يضمروا لاسيادهم الا اقل الحب . وكان بين الامبراطوريتين الفارسية الساسانية والبيزنطية شبه عام كبير . فقلب الامبراطورية الفارسية ايضاً كان عبارة عن هضبة — وهي هضبة ايران — يسكنها شعب يتكلم لغة هندية اوروبية ، ويحكم ولاية العراق السامية التي مُنحت الحكم الذاتي على ان تخضع في الامور الاخرى لفارس ، والتي كان اهلها متذمرين من الناحية الدينية . وكانت ثقافة فارس الساسانية آسيوية كما كانت في الواقع مظهراً لرد الفعل ضد الهلينستية الذي تسبب في سقوط الفرتيين . وكانت ديانة الحكومة زرادشتية . وكان بناء الامبراطورية الساسانية الداخلي اقلّ توطداً من بناء الامبراطورية البيزنطية . وبينما اقام تنظيم الثغور الحربية في الاناضول للامبراطورية البيزنطية اساساً اقتصادياً وعسكرياً ثابتاً ، كانت الامبراطورية الفارسية عند نهاية القرن السادس قد خرجت من فترة عامرة بالفتن الداخلية ، تحطم خلالها البناء الاقطاعي القديم ، وقام مكانه حكم عسكري استبدادي استخدم جيشاً من المرتزقة .

---

(١) من الامور المقررة ان اليهود بعد حصار تيطس للقدس في سنة ٧٠ ق.م وتشتت اليهود عندئذ وبعد ذلك بسنوات قلائل اصبحوا عنصراً ضئيل الاثر من كل ناحية . [المعربان]

لا ان النظام الجديد كان بعيداً عن الاستقرار . ونتيجة لاسباب التذمر عند الشعب نشأت سلسلة من الهرطقات الدينيـة الخطرة هددت وحدة الامبراطورية الدينية، وبالتالي وحدتها السياسية ايضاً .

وبين سنتي ٦٠٢ و ٦٢٨ نشبت آخر حرب من سلسلة الحروب التي اندلعت نيرانها بين الفرس والبيزنطيين، وانتهت بهزيمة الفرس ، ولكنها تركت كليهما منهكاً ضعيفاً في وجه الخطر غير المتوقع الذي كان على وشك الهبوب من صحراء بلاد العرب .

وواجهت وفاةُ محمدٍ المجتمعَ الاسلامي الناشيء بأزمـة ذات طابع دستوري. ذلك أن الرسول لم يترك نصاً على كيفية الخلافة ، كما انه لم ينشيء مجلساً على نمط المجلس القبلي الذي كان في مقدوره [لو وجد] ان يتسلم السلطة خلال فترة الانتقـال الحرجة . ولم يسمح طابع السلطة « الفريدة » الشاملة التي اتخذها النبي ، كمبلّـغ وحيد لمشيئة الله ، ان يعيّـن شريكاً او حتى خليفة له في حياته . ودعوى الشيعة بأن الرسول قد جعل علياً زوج ابنته فاطمـــة خليفة له ، ليست الا من قبيل التزوير التام .

وكان تصور الخلافة الشرعية غريباً على العرب في ذلك الزمن ، ومن المحتمل انه حتى لو ترك محمد ابناً لما اختلف مجرى الحوادث . ويؤيد وجهة النظر هذه مصير موسى من قبل. ولم يكن لما جرى عليه العرب من حصر المشيخة في عائلة واحدة سوى اعتبار ضئيل . وعلى كل حال فان مطالب الأصهار ، مثل أبي بكر أو علي ، لم يكن لها غير تأثير بسيط في مجتمع يبيح تعدد الزوجات . وكانت أمام العرب سابقة وحيدة ترشدهم سواء السبيل وهي انتخاب شيخ

جديد للقبيلة . وأراد أهل المدينة ان يكون الخليفة من الخزرج ، وبهذا كشفوا مصادفةً عن ضعف في اسلامهم .

وواجه الأزمةَ [الناشئة عن وفاة النبي] بجزم ثلاثة رجال ، وهم ابو بكر وعمر وابو عبيدة الذين قلبوا الحكومة ، وفرضوا أبا بكر على المجتمع خليفةً وحيداً للرسول . ولما ووجه الانصار والمكيون في اليوم التالي بالامر الواقع ، تقبلوه مرغمين ، واعطي ابو بكر لقب « خليفة » . وكان انتخابه بدايةَ نظام الخلافة العظيم في التاريخ . ولم تكن لدى ناخبيه اي فكرة عن واجبات هذه الوظيفة وتطورها فيما بعد . اما عندئذ ، فلم يقوموا بأية محاولة لتحديد واجباته وسلطاته . ولم يشترطوا عليه عند تعيينه سوى الابقاء على تراث الرسول سالماً .

وتختلف السلطة التي مارسها ابو بكر منذ البداية عن سلطات شيخ القبيلة عند العرب من عدة وجوه هامة . فقد اصبح رئيساً لمنطقة لا لمجتمع فقط ؛ وصار يتمتع بسلطات تنفيذية ، واصبح تحت إمرته جيش. ولما كان الوضع الذي تلا انتخابه خليفةً يتطلب القيام بعمل سياسي وعسكري ، فقد اتخذ لنفسه سلطة سياسية وعسكرية اصبحت على مر الزمن قسماً اساسياً من وظيفة الخليفة . وبعد سنتين ، عندما توفي ابو بكر ، اصبح عمر ، الذي كان القوة الدافعة وراء العرش ، خليفة بالتعيين . ولم يلق تعيينه معارضة جدية .

وكان اول ما ينبغي على الحاكم الجديد ان يفعله ، هو القيام بعمل عسكري تجاه الحركة التي قامت بين القبائل والتي تعرف في الاخبار

« بالردة ». وهذه الكلمة، التي تعني الالحاد والتي يوردها المؤرخون المتأخرون الذين ينظرون الى الامور من خلال منظارهم الديني، تمثل في الواقع تشويهاً لأهمية الحوادث التي جرت بالفعل. فمع ان هذه القبائل رفضت الاعتراف بخلافة أبي بكر، الا أن رفضها هذا لم يكن، في واقع الامر، رجوع جماعة مسلمة الى وثنيتها الاولى، بل كان إنهاءً بسيطاً وآلياً لاتفاق سياسي توفي أحد الطرفين القائمين عليه. وكانت أقرب القبائل الى المدينة قد اسلمت، وصحّ اسلامها. ومصالحها ايضاً كانت متحدة مع مصالح المسلمين إلى حد حال دون تسجيل تاريخها على انفصال. أما بالنسبة الى باقي القبائل، فقد أتت وفاة محمد على ما كان يربطها بالمدينة واستردت حرية العمل. فقد شعرت أنه لا يربطها شيء بانتخاب ابي بكر، ذلك الانتخاب الذي لم تشترك فيه. فأوقفت في الحال دفع الجزية، وما تلزمها به المعاهدات من تعهدات. ولكي يعيد أبو بكر للمدينة سيادتها كان عليه أن يعقد معاهدات جديدة. وفي الوقت الذي تقبلت فيه بعض القبائل القريبة هذه المعاهدات رفضتها القبائل البعيدة. واضطر ابو بكر الى إخضاعهم بقوة السلاح تمهيداً لادخالهم في لاسلام.

وتحولت حروب الردة، التي كان هدفها في البداية إعادة الناس الى حظيرة الاسلام، الى حرب فتح تجاوزت اخيراً حدود الجزيرة العربية، وتغلغلت فيما وراءها. وكان الفتحان، اي فتح الجزيرة وفتح الولايات المجاورة لها مثل العراق وسورية ومصر، متشابهين ومتداخلين لا متتابعين وكان من الجائز ألا تقهر قبائل

بلاد العرب لو لم تهيىء هذه الفتوح في الشمال حلًا جذاباً لمشاكل بلاد العرب الداخلية والاقتصادية . ولم تكن أولى الحملات التي وجهت الى الشمال سوى غارات غرضها النهب لا الفتح. وعقب ذلك ، وعندما كشف العرب ضعف اعدائهم ، قاموا بالفتح . وكانت سيطرة المدينة منذ البداية ضعيفة ومقتصرة على توجيه السياسة العامة . وأدت صعوبة المواصلات في ذلك الزمن الى ترك الامور كلها ومعظم الاعمال التي لا مجال فيها لاستشارة الخليفة ، في ايدي القادة والحكام ، وذلك ليتمكنوا من الفصل فيها في الحال .

وأحد الشخصيات البارزة في الفتوح العربية هو خالد بن الوليد ، قائد ابي بكر الاول . فبعد ان انجز أوامر الخليفة اليه ، فأعاد الحالة الى ما كانت عليه عند وفاة النبي ، قرر بمفرده الخطوة التالية التي تقضي بتنفيذ برنامج توسعي حربي . وكانت معركة عقرباء التي جرت سنة ٦٣٣ في شرق نجد أول الفتوح الاسلامية . وقد اثبت النصر الذي احرزه العرب فيها مقدرة حكومة المدينة ، وأفضلية الخضوع لها . ومن ثم وُجهت سلسلة من الحملات الى جميع الجهات .

وكانت بين المدينة وسورية عدة قبائل عربية تميل الى النصرانية وتشكل حاجزاً يقف في وجه اي تقدم من الصحراء . ومع ان المصادر لا تتطرق الى ذكر هؤلاء فلا بد أنهم قاموا بدور [في حركة الفتوح] . ولا يسع المرء الا ان يفرض ان قطع هرقل للمنحة المفروضة لهم سابقاً من قبل الدولة البيزنطية ، دفعهم

الى اتخاد جانب العرب الفاتحين . وفي سنة ٦٣٣ م وجه أبو بكر نداء الى المتطوعة للقيام بحملة الى سورية .

وأرسل عدة جيوش متفرقة الى فلسطين وسورية . وهزم العرب جيشاً بيزنطياً صغيراً في السنة التالية ، وقاموا بعدد من الغارات البسيطة في جنوب فلسطين ،ولكنهم تراجعوا الى الصحراء في انتظار المدد من المدينة . وقد حدث هذا بينما كان هرقل يحشد الجيوش . وفي ذلك الوقت وصل خالد فجأة من العراق سالكاً طريق الفرات ثم تدمر ، وظهر امام دمشق في نيسان سنة ٦٣٤م وبعد ان نهبها انسحب وانضم الى القادة الآخرين في الجنوب. وفي هذه الاثناء وصل البيزنطيون الى القدس . ولكنهم هزموا على يد جيش عربي موحد في واقعة اجنادين . وبعد سلسلة من الهزائم البيزنطية الاخرى ، وبعد حصار دام ستة اشهر ، افتتح العرب دمشق . فتفرقوا في الحال في انحاء فلسطين ، بينما اتجه خالد الى الشمال . وفي هذه الاثناء اعد هرقل جيشاً غالبيته من الأرمن ، تسانده فرق من الخيالة جمعت من بين العرب الخاضعين له. وعندما فوجىء العرب بجيوش تفوقهم كثيراً في العدد ، انسحبوا من دمشق ، واحتشدوا على اليرموك حيث ألحقوا بالبيزنطيين فيتموز (يوليه) سنة ٦٣٦ م هزيمة ساحقة وضعت تحت رحمتهم سورية وفلسطين كلها ما عدا قلعتين بيزنطيتين حصينتين ، وهما قيسارية والقدس وحالما تم فتح سورية عزل خالد وحل محله ابو عبيدة ، الرجل الاداري الذي اخذ مكان خالد العسكري. وفي سنة ٦٣٧م زار عمر سورية ووضع خطوط الحكم الرئيسية .

جاء اقتراح غزو العراق في الاصل من شيوخ القبائل العربية القاطنة في تخوم جزيرة العرب. فحين وجد هؤلاء انفسهم محصورين بين المسلمين في الجنوب والفرس في الشمال رأوا ان الطريق الوحيدة لخروجهم من هذا المأزق هي قبول الاسلام، واتخاذ جانب المسلمين لمهاجمة فارس. وفي سنة ٦٣٣ م غزا خالد الحيرة بجيش صغير جمع معظمه محلياً، وأدى نجاح الغزوة غير المتوقع الى محاولات أخرى انتهت بهزيمة العرب هزيمة ساحقة سنة ٦٣٤ م [في موقعة الجسر] على يد جيش فارسي تحت قيادة الامبراطور يزدجرد وفي الحال نظم العرب هجوماً جديداً. وفي صيف سنة ٦٣٧ م هَزمت قوة عربية قليلة العدد عشرين ألف فارسي هزيمة حاسمة في القادسية. وتابع العرب نصرهم باحتلال المدائن، عاصمة فارس، ثم احتلوا العراق بأكمله. وهزمت قوة فارسية حُشدت على عجل في جلولاء، واندفعت الجيوش العربية الى الشمال مخترقة سورية والعراق، والتقت فيما بين النهرين، وأكملت فتح الهلال الخصيب.

وبدأ غزو مصر، طبقاً للرواية العربية، بدون رضا الخليفة، وذلك بسبب استياء عمرو بن العاص من إهمال [الخليفة] له في سورية. وكانت حالة البلاد في مصر تساعد على الفتح شأنها في سورية والعراق. فقد كان الاقباط شديدي التذمر من حكم الاغريق، كما كانوا على استعداد لمعاونة الغزاة. ووصل عمرو في ١٢ كانون الاول (ديسمبر) سنة ٦٣٩ م مدينة العريش، الواقعة على حدود مصر، على رأس جيش يتألف من ثلاثة آلاف فارس يمني. فاحتلها

بسهولة ، الأمر الذي شجعه على التحول من الغزو الى الفتح . وبعد ان احتل بلوزيوم (التي تدعى الآن الفرما) زحف على حصن بابليون البيزنطي قرب موقع القاهرة الحالي . وحين تلقى من المدينة مدداً يتألف من خمسة آلاف جندي هزم البيزنطيين بسهولة في تموز (يوليو) سنة ٦٤٠ ميلادية . وفي السنة التالية استسلمت المدينة ، ولم يبق للبيزنطيين في مصر إلا مدينة واحدة وهي الاسكندرية . وبعد حصار دام سنة واحدة لهذه المدينة عقدت معاهدة بين عمرو بن العاص وبطريرك الاقباط سلمت المدينة بموجبها للعرب ، وانسحبت حاميتها البيزنطية . ولم تصب محاولة بحرية قام بها البيزنطيون في سنة ٦٤٥ لاستعادة المدينة الا نجاحاً مؤقتاً . الا ان هذه الحملة انتهت في السنة التالية بالفشل .

وتقول قصة شائعة في الكتب إنه بعد ان احتل العرب الاسكندرية امر الخليفة بحرق مكتبة المدينة مستنداً الى المنطق التالي : « واما الكتب التي ذكرتها فإنْ كان فيها ما يوافق كتابَ الله ففي كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليها ، فتقدّم بإعدامها » . إلا ان البحث الحديث بيّن ان القصة لا أساس لها مطلقاً . ولا تشير اية تواريخ ، حتى المسيحية منها ، اي اشارة الى هذه القصة التي ذُكرت أول مرة في القرن الثالث عشر . وعلى اي حال ، فان مكتبة السيرابيوم العظيمة كانت قد أُتلفت اثناء الفتن الداخلية التي نشبت في المدينة قبل مجيء العرب .

وكان دخول العرب في البلاد الجبلية غير السامية الواقعة الى

شمال الهلال الخصيب وشرقه أكثرَ بطئاً وأشدَّ صعوبـــة . إذ استمرت المقاومة في الهضبة الفارسية عدة سنين . ولم يـــتم فتح خراسان في شرقي فارس إلا خلال حكم معـاوية . وثبت ان المصاعب القائمة في الأناضول لا يمكن التغلب عليهـا . ولا تزال سفوح طوروس الحدّ الاقصى للسان العربي من ناحية الشمال.

وكان يقرر استراتيجية العرب في حروبهم العظيمة انتفاعهم من الصحراء التي استخدموها على أُسُس شديدة الشبه باستخدام الدول الاستعمارية المعاصرة للبحر : كانت الصحراء معروفة لديهـــم ومسخرة لتنقلاتهم دون اعدائهم . وكان في استطاعتهم استخدامها كوسيلة لنقل المؤن والامدادات . وكانت عند الضرورة ملاذاً أميناً لهم في حالة تقهقرهم . ولم يكن من قبيل الصدف أن أقـام العرب قواعدَهم الرئيسية في مدن تقوم على أطراف الصحـــارى والسهول . وكانوا يستخدمون المدن القائمة مثل دمشق ، حين يكون موقعها ملائماً لهم ، كما كانوا يؤسسون ، اذا اقتضى الأمر ، مدناً جديدة مثل الكوفة والبصرة في العراق ، والفسطـــاط في مصر ، والقيروان في تونس .وكانت هذه العواصم في الامبراطورية العربية الاولى ، تقوم مقام جبل طارق وسنغافورة اليوم . وبنى العرب في هذه المدن أحياءهم وثغورهم، كما انها ظلت المراكز الرئيسية للحكومة طوال العهد الاموي. وقامت هذه المدن ــ او الامصار كما تعرف في التاريخ العربي ــ بدور هام في تأسيس النفوذ العربي وتوطيده في البلاد المفتوحة . وبينما كان العرب يشكلون أقليات في الولايات بالاضافة الى مجموع السكان فقد كانوا يشكلون الاكثرية

في الامصار حيث اصبح اللسان العربي أداة تفاهم السكان الرئيسية. وكانت الامصار اسواقاً لمنتجات المقاطعات المجاورة الزراعية ، كما امتد اللسان العربي عن طريقها الى الريف المجاور . وسرعان ما قامت حول كل ثغر مدينة تعج بالصناع وأصحاب الدكاكين والعمال من السكان المقهورين ، الذين كانوا يوفرون للطبقة العربية الحاكمة حاجاتها . وكان يساعد على انتقال السكان من الريف الى المدن الضريبة المعينة المفروضة على الزراع غير المسلمين ، وهبوط اثمان المنتجات الزراعية الذي لا بد من حصوله بسبب توزيع الدخل عيناً وعلى نطاق واسع بين العرب الفاتحين .

وكانت الفتوحات العظيمة في الاساس توسعاً لا للاسلام بل للأمة العربية التي دفعها اشتداد ازدحام السكان في موطنها الاصلي الى ان تبحث عن مخرج في البلاد المجاورة . وهي [اي الفتوحات] واحدة من سلسلة الهجرات التي حملت الساميين مرة اخرى الى الهلال الخصيب وما وراءه . ولم يكن التوسع العربي فجائياً كما قد يبدو عند النظرة الاولى . ونجد انه حين كان السد [سد مأرب] ، الذي كان يمسك العرب في جزيرتهم ، أقوى من أن ينهار مرة واحدة، كان اشتداد ازدحام السكان يجد مخرجاً جزئياً له في تسرب العناصر العربية الى اراضي التخوم تسرباً منتظماً . وتوجد شواهد كثيرة على تسرب العرب الهام [الى بلاد التخوم] في القرنين السادس والسابع ، وخاصة الى حوض الفرات والى جنوب شرقي سورية . وكان في المدينتين البيزنطيتين ، بصرى وغزة ، اذا اكتفينا بذكرهما، سكان عرب لهم خطرهم حتى

قبل الفتوح . ولا يُشك في ان الغزاة وجدوا كثيرين من اقربائهم قد استوطنوا في اقرب البلاد التي افتتحوها .

ويبالغ بعض الكتاب المتقدمين في تقدير الدور الذي قام به الدين في الفتوح ، كما ان بعض الكتاب المعاصرين لا يقدرونه حق قدره . وتبدو أهميته في التغيير السيكولوجي الوقتي الذي أحدثه في شعب طبع على سرعة التأثر ، وحدة المزاج ، ولم يعتد الرضوخ لأي نوع من أنواع النظام . وعلى الرغم من ميـــله الى الاقتناع بالحجة ، فانه لم يكن يقبل ان يُؤْمر . فولّد فيهم الدين ، الى حين من الزمن ، الثقة بالنفس ، وأسلس قيادهم . وكان الدين اثنـــاء حروب الفتح رمز الوحدة العربية والنصر . وكانت القوة الدافعة في الفتوح دنيوية اكثر منها دينية .. وتتضح هـــذه الحقيقة عند دراسة شخصيات بارزة بينها رجال من طراز خالد ، ذلك اننـا نجدهم نفعيين لا يولون الدين الا اهتماماً شكلياً .

وباستثناء قلائل ، نجد ان الدور الذي قام به المسلمون الاتقياء في تشييد الامبراطورية العربية ضئيل .

واورد لنا المؤرخون العرب في القرون التالية تفصيلات مسهبة عن الادارة التي اوجدها عمر للامبراطورية الجديدة . وعلى كل حال فقد بين النقد الحديث والوثائق الادارية المعاصرة التي وصلت الينا من القرن الاول الاسلامي في اوراق البردي المصرية ان هـــذه الاخبار ليست الا نموذجاً لما تم في عصر متأخر . وكان الخلفـــاء الاولون يعملون في هذا الباب مدفوعين باعتبارات عملية . ولم يشعروا بحاجة تدفعهم الى تحديد الاصطلاحات والواجبات وصياغة القوانين .

وينبغي ان تقوم دراسة احكامهم على أسس من الاحكام البسيطة . وكانت تقرر سياستهم في الدرجة الاولى ، مصالح الطبقة العربية الارستقراطية التي تكونت بعد الفتح ، لا مصالح الشعوب المقهورة . وكان سلوك القادة والحكام يشكل تلك السياسة الى حد بعيد .

واحتفظ العرب في بادىء الامر بجهاز الحكم الفارسي والبيزنطي بموظفيه ، كما احتفظوا بالنقد القديم . وحين ادرك عمر ، بعد سنة ٦٤٠م بقليل ، الحاجة الى قوانين جديدة ، وضع نظاماً جديداً يمكن بواسطته وضع الامبراطورية كلها في وصاية الجماعة الاسلامية ، ويكون الخليفة بموجبه الوصي الوحيد . وكانت للشعوب المغلوبة المختلفة قوانين وعادات مختلفة . وإذ كان العرب قد اقتبسوا النظم القديمة ، فلم يكن للامبراطورية قانون موحد . فبالنسبة الى سورية ومصر اضطر عمر الى احترام العرف المحلي لانهما فتحتا صلحاً . اما في العراق الذي فتح عنوة ، فقد كان لعمر حرية في التصرف اكبر مما كان له في سورية ومصر .

ولم يستولِ العرب الا على اراضي الدولة واراضي اعداء الحكومة الجديدة . اما الملاكون الذين خضعوا لها فقد اقروهم على املاكهم شريطة ان يدفعوا ضرائب معينة . اما الاراضي المصادرة فقد سُجلت وأديرت بواسطة الدولة . وسمح للمسلمين بامتلاك الاراضي خارج بلاد العرب . ومنحت الدولة الكثيرين منهم اراضي تُعرف باسم « القطائع » . وكانت هذه القطائع من الاراضي المفتلحة ، كما كانت احياناً من الارض الموات . وفي حالة منح النوع الثاني كانت الدولة تقدم لمن تقطعهم الارض

مساعدة تكون على شكل اعفاء من الضرائب ، او منح مبالغ مالية لاستصلاحها . وبينما قدم عمر منحاً قليلة من هذا النوع ، قدم خلفاؤه الكثير منها . ولم يكن الملاكون العرب خارج بلاد العرب يدفعون الخراج كاملاً ، فقد اخذوا يدفعون بعد قيام نزاع بسيط ، ضريبة اقل تعرف باسم « العشر » . وما عدا ضريبة دينية بسيطة فرضت على المسلمين ، كانت جميع الضرائب الاخرى بما فيها الجزية والخراج تجمع من الرعايا غير المسلمين . وفي العصور المتأخرة تغير هذان الاصطلاحان [أي الجزية، والخراج] بحيث أصبحا يدلان على ضريبة الرأس وضريبة الأرض المفروضتين على غير المسلمين . وكان هذان الاصطلاحان في زمن الخلفاء الاوائل متداخلين ، يفهم منهما مجموع الضريبة التي يجمعها العرب جملةً من كل منطقة . وعهد الى الموظفين البيزنطيين وغير البيزنطيين تقدير الضريبة وجمعها حسب النظام القديم .

ولم يتدخل الفاتحون في الادارة الداخلية الدينية والمدنية للشعوب المغلوبة الذين أصبح يطلق عليهم اسم « الذميون » ، أي اصحاب الديانات التي اقرها القرآن . ويظهر ان استبدال الحكم العربي بالحكم البيزنطي كان موضع ترحيب الشعوب المغلوبة التي وجدت النير الجديد أخفّ وطأة من القديم من حيث الضرائب وغيرها . حتى لقد فضل سكان سورية ومصر المسيحيون الحكم الاسلامي على حكم البيزنطيين أصحاب العقيدة الرشيدة . وكتب يهودي عراف عن العصر الاسلامي الأول فجعل ملاكاً يقول لكاهن « لا تخف يا ابن يهوه ، فالخالق ، تبارك اسمه ، لم يقم

مملكة اسماعيل الا ليخلصكم من هذا الشر (أي بيزنطة) .. وسوف يبعث لهم القدوس ، تبارك اسمه ، حين يشاء ، نبياً يفتح لهم البلاد .. وسوف يستعيدونها بأنفسهم » . ويمكننا أن نقارن بهذه الكلمات كلمات مؤرخ مسيحي سرياني من عصر متأخر حيث يقول : « ولهذا فلقد خلصنا الاله المنتقم من قبضة الروم على يد العرب .... وليس النفع الذي جنيناه من خلاصنا من قسوة الروم وحقدهم المرير ، بالقليل . » ولم تقف الشعوب المغلوبة عند قبول الدين ، بل تعدته ، فساعدت أحياناً بنشاط في تأسيسه . ففي فلسطين قدم السامريون للفاتحين مساعدة فعالة جعلت هؤلاء يعفونهم من بعض الضرائب وتوجد شواهد أخرى كثيرة في التواريخ المتقدمة على مساعدات محلية يهودية ومسيحية .

وعدم تفريق العرب بين الاسلام والعروبة واضح في موقفهم تجاه المسلمين الجدد الذين أخذوا يتدافعون من بين الشعوب المغلوبة الى الدخول في الاسلام . وكانت فكرة وجود مسلمين من غير العرب غير متوقعة الى حد أنه لم يكن يسمح لهؤلاء بدخول الدين الا اذا اصبحوا موالي او انصاراً لاحد القبائل العربية . ومع ان الموالي كانوا من الناحية النظرية يقفون على قدم المساواة مع العرب ، ومُعفَيْن من أكثر الضرائب ، فقد ظل العرب ينظرون اليهم نظرة استعلاء واستخفاف بهم . وظلوا مدة طويلة يحرمونهم من المنافع المادية التي اسبغها عليهم الاسلام . واهم هذه المنافع قبض العطاء والمنح المالية من الديوان ، اي

الدائرة التي انشأها عمر لتوزيع دخـل الفتوح بين المحاربين العرب .

وكانت الفرضيات التي قام عليها نظام عمر تتلخص في عدم التفريق بين كلمة عربي وكلمة مسلم وجعلها مرادفين ، والمحافظة على السيادة الدينية التي كان الخليفة يمارس سلطانه عن طريقها . واصبح انهيار هذا النظام حتمياً حين فقدت هذه الفرضيات ما لها من اعتبار .

وقتل الخليفة عمر في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ٦٤٤ م على يد عبد فارسي . ولما كان قد ادرك خطر الحرب الاهلية التي كانت تتهدد الاسلام ، فقد عيَّن وهو على فراش الموت « مجلس الشورى » أو مجلس الناخبين ، ويتألف من اصلح المرشحين للخلافة . واشترط عمر عليهم ان ينتخبوا من بينهم خليفـة آخر للمسلمين . وهناك اخبار متضاربة حول اعمال مجلس الشورى هذا . الا انها تمخضت عن النتيجة المفاجئة وهي اختيار عثمان بن عفان . فقد عُرف عثمان بضعفه ، وحتى لقد كان متهماً بالجبن ، وهو نقيصة في نظر العربي . وكان انتخابه يمثل انتصار الاوليغاركية المكية القديمة التي اظهرت في قبول منافع الديانة الجديدة استعداداً اكبر من ذلك الذي ابدته في قبول النبي نفسه . وكانت هـذه الطبقة لا تزال تحتقر اولئك المشردين (اي المهاجرين) الذين اصبحوا يسيطرون على المدينة . وعلى الرغم من جهود ابي بكر وعمر في ربط المكيين بقضية الاسلام ، وذلك بتعيينهم في الوظائف العاليـة – ومن الامثلة على هذا اختيار عمر لمعاوية والياً على سورية – فانهم كانوا

لا يزالون غير راضين ، يسعون الى استعـــادة سيادتهم التي كانوا يعتبرونها حقـاً من حقوقهم . وكان عثمان مثل معاوية من افراد اسرة امية ، الاسرة المكية صاحبة الزعامة قبل الاسلام. وعثمان، في الواقع، هو الممثل الوحيد من بين اتباع النبي الاولين لاشراف مكة ، وله من المكانة ما يؤهله لان يكون مرشحـاً للخلافة . فكان انتخابه نصراً وفرصة مواتية لهم . فلم يفوتوا هـذه الفرصة ، فوقع عثمان في الحال تحت تأثير هـــذه الاسر المكية البارزة ، وأعطيت الوظائف العالية في الامبراطورية واحدة بعـد اخرى لأفرادها .

وترتب على ضعف عثمان وتحيزه ان بلغ التذمر ، الذي كان يعتمل في صدور المحاربين ، منذ زمن ، ذروته . وتعزو الاخبار العربية الانهيار الذي وقع خلال حكمه الى نقـائصه الشخصية . والحق ان اسبابه تعود الى جذور أبعد غوراً . وينحصر خطأ عثمان في فشله في تبيُّن هذه الاسباب والسيطرة عليها وعلاجها. فحروب الفتح التي كانت هي الدافع الاول في التاريخ العربي حتى وفاة عمر توقفت بعد وفاته . وكانت هجرة الشعب العربي قد بلغت ذروتها تقريباً ، فتدفقت جماعات عربية كبيرة على البلاد المفتوحـــة واستوطنت فيها . وخفت وطـأة ازدحام السكان . واعترضت العرب مرة أخرى حواجزُ جديدة مانعة مثل هضبة ايران العالية المعادية لهم ، وهضبـــة الأناضول في الشرق والشمال . واعترضهم البحر في الغرب ، وأصبحت حروب الفتح اكثر صعوبة وأشـد بطئاً مما كانت عليه الحال في السابق . وهيأ توقف الفتح للقبـــائل

فرصةً للتفكير في مشاكل السلم. وسرعان ما نشطت نزعات الرحل للتخلص من سيطرة الحكومة المركزية، فادى ذلك الى انهيار الادارة واندلاع ثورة عامة. وكان من الميسور، في الواقع، تبين عناصر المعارضة منذ زمن عمر، وربما كانت من اسباب وفاته ولكنها برزت بوضوح في زمن عثمان الضعيف.

ولم تكن الثورة عليه دينية او شخصية، بل كانت ثورة الرحل ضد كل سيطرة مركزية، ثورةً لا ضد حكومة عثمان، بل ضد اي حكومة. ذلك ان تصور الرحل للسلطة تصورٌ بدويٌ، اي ملموس وشخصي، يَعتبر اطاعة النظام منحة اختيارية يقدمها الفرد. فلما فشل عثمان في فرض هذه الطاعة شعروا انهم احرار في تقديمها او امساكها.

ومع ان الهجوم المسلح على عثمان جاء من مصر، فقد كان مركز المعارضة الحقيقية في المدينة نفسها. فهنا كان طلحة والزبير وهما مكيان متذمران، وعمرو الذي كان مستاءً بسبب تعيين رجل آخر والياً على مصر بدلاً منه، وعائشة ارملة الرسول، الذين شكلوا خلايا التآمر والتحزب ضد الخليفة. وربما كان لهم ضلع في الاحداث التي ادت الى مقتله. واذ ادرك عمرو وعائشة مصيرَ هذه الاحداث فقد احتاطا للامر. فقاما بعمل من شأنه ان يبرئهما، وهو مغادرة المدينة في اللحظة الحاسمة. فاتجه احدهما الى بئر السبع، والآخر الى مكة. اما الدور الذي قام به علي فليس واضحاً. فمع انه كان من المرشحين البارزين للخلافة، وانه لم ينتخب ثلاث مرات، فلا يظهر انه تقع عليه مسئولية مباشرة في

مقتل عثمان ، هذا على الرغم من ان موقفه السلبي وفشله في استخدام نفوذه وشخصيته للحيلولة دون وقوع الحادث قد وضع في يد اعدائه سلاحاً فعالاً ضده .

وفي ١٧ تموز (يوليه) سنة ٦٥٦ م . اقتحمت جماعة مسلحة من عرب مصر الثائرين ، الذين كانوا قد جاءوا الى المدينة لتقديم شكاواهم ، بيتَ الخليفة وجرحوه جرحاً مميتاً . ويعين مقتله نقطة فاصلة في تاريخ الاسلام . فقد أقام مصرعه ، على يد المسلمين الثائرين سابقة محزنة ، أضعفت النفوذ الخلقي والديني لمنصب الخلافة الذي كانت تقوم عليه وحدة المسلمين .

ونودي بعلي في الحال خليفة في المدينة . ولكن حتى بعض أولئك الذين ناصبوا عثمان العداء ترددوا في الاعتراف به ، لانه وان لم يكن له ضلع في المؤامرة ، فقد كان مديناً الى حد كبير في تسنمه الخلافة الى قتلة عثمان . وكان لا يزال آخرون ، ممن لم يكونوا يحبون عثمان ، لا يرغبون في الاعتراف بالخليفة الجديد . وظهرت في الحال جماعة موالية لعثمان أخذت تطالب بمعاقبة المجرمين . ولم يكن في مقدور علي أن يذعن لهم . وعندما ألغى التعيينات التي كان قد أصدرها الخليفة المتوفى ، أوجد لنفسه عدداً كبيراً من الاعداء الجدد . وبدأت المعارضة حين هُرع طلحة والزبير وعائشة الى مكة واخذوا ينادون بالحرب وبضرورة الانتقام متناسين الدور الذي قاموا به في الاحداث السابقة . وشرع هذا الثالوث يجمع الجيوش لمحاربة علي . وانتقلوا الى البصرة حيث أملوا في الحصول على مساعدات محلية .

وفي تشرين الاول (أكتوبر) من سنة ٦٥٧ م زحف علي من المدينة على رأس جيشه. وكانت لهذه الحادثة أهمية مزدوجة: ففي الدرجة الاولى تعيين نهاية المدينة كعاصمة للأمبراطورية الاسلامية، وكانت في الدرجة الثانية، هي المرة الاولى التي قاد فيها خليفة جيشاً إسلامياً الى حرب أهلية ضد اخوان له في الدين.

توجه علي على رأس جيشه الى الكوفة ودخل المدينة وسط هتافات السكان، وذلك بعد ان فاوض الحاكم «المحايد» أبا موسى. ومن ثم زحف على البصرة، وهزم قوات الحلف الثلاثي في واقعة تعرف بـ «واقعة الجمل»، وسميت بهذا الاسم لأن القتال دار حول الجمل الذي كانت تركبه عائشة «أم المؤمنين». وانتهت المعركة بانتصار علي وقتل طلحة والزبير. اما عائشة فقد أُعيدت الى مكة. وبعد احتلال قصير الامد للبصرة، فشل علي خلاله في كسب الشعب الى جانبه، عاد الى الكوفة التي اصبحت عاصمته منذ ذلك الحين. وأصبح الان سيد الامبراطورية الاسلامية ما عدا سورية. ولكن على الرغم من قوته الظاهرة فقد أضعف من مركزه تفرق القبائل، وعدم خضوع مناصريه له، وتضارب آراء المتدينين والثيوقراطيين الذين كانوا يؤلفون قسماً كبيراً من اتباعه، والذين كانوا دوماً يشكون في حقه في الحكم، ويتحدون سلطانه. اما معاوية فقد كان مركزه في سورية راسخاً. كان رئيساً لادارة مركزية هي الاولى من نوعها في الاسلام في ذلك الوقت. وكان يحكم ولاية موحدة هادئة، وتحت إمرته جيش قوي اكتسب دربةً وتنظيماً اثناء حروبه مع البيزنطيين. وكان مركزه قوياً ايضاً من الناحية

المعنوية . وكانت شرعية سلطانه لا غبار عليها ، إذ كان قد عينه عمر وثبَّته عثمان آخر خليفة معترف به من قبل الجميع . وكانت مطالبة معاوية بالانتقام لمقتل عمه عثمان طبقاً لعادة عربية قديمة اقرها القرآن نفسه . وفي اوائل النزاع بين علي وخصومه ابدى معاوية حكمةً بوقوفه على الحياد . وحتى الآن لم يطالب معاوية بالخلافة ، بل اقتصر على مطالبته بمحاكمة القتلة . وكانت النتيجة الطبيعية لمطالبته هذه انه طعن في شرعية خلافة علي حين حمله مسؤولية ادبية في تجاوزه عن قتلة الخليفة وعدم ملاحقتهم . وكان يساعد معاويةَ عمرو بن العاص الداهية ، وجيوش سورية الموحدة . واول عمل صريح قام به معاوية ضد علي هو رفضه بقوة وإصرار التنازل عن ولايته للوالي الجديد الذي عينه علي بدلاً منه . فلما اضطر علي إلى إخضاعه زحف على رأس جيشه والتقى بالجيوش الشامية ، قرب صفّين ، المدينة الرومانية الخربة الواقعة على الفرات ، وذلك في أيار (مايو) سنة ٦٥٧ م . وسبق القتال كالعادة مفاوضات غير مثمرة طلب معاوية خلالها تسليم قتلة عثمان ومعاقبتهم . وربما طلب أيضاً تنازل علي وتعيين مجلس شورى جديد لاختيار خليفة للمسلمين . وأخيراً وقعت المعركة . وفي ٢٦ تموز (يوليه) أحرزت قوات عليّ النصر . ولما وجد السوريون انفسهم مهزومين قاموا بحيلة رفع القرآن على أسنة الرماح ، واخذوا ينادون «الحكم لله» . وكانت هذه الدعوة الى التحكيم لا تشير إلا الى النظر في مسألة القتلة ، لأنه كان يعسر عليهم ان يجدوا في القرآن هادياً لهم عند النظر في مشكلة الخلافة . وأدرك علي الحيلة ، ولكن المتدينين في معسكره

أجبروه على ان يقبل الهدنة . واتفق على ان يختار كل فريق حكماً ، كما اشترط على القائدين المتنازعين ، ان يقبلا نتيجة التحكيم . وعين معاوية عمرو بن العاص ممثلاً له ، وبهذه الوسيلة كسب معاوية نصراً معنوياً . اذ أنزل علي ، في الواقع ، من مركز خليفة حاكم للمسلمين الى مطالب بالخلافة . وتسبب التحكيم في خلق صعوبات أخرى لعلي . فقد ثار عليه جماعة من أتباعه ، ممن لم يرضوا عن هذه الخطوة . واقتضى اخضاعهم نشوب معارك دموية بينه وبينهم . وعُرف هؤلاء الذين ثاروا عليه بالخوارج (اي الذين خرجوا على الجماعة) وسيظهرون مرات أخرى فيما بعد في التاريخ الاسلامي .

والتقى الحكمان سنة ٦٥٩ م في « اذرح ». والروايات العربية عن أعمالهما متضاربة الى حد يوقع اليأس في نفس الباحث ، غير انه من الواضح ان ما انتهيا اليه لم يقبله علي ، وربما اشتمل على تنازله. فرفض القرار ، وعادت الحالة الى ما كانت عليه قبل صفّين مع اختلاف واحد وهو ان مركز علي تضعضع وضعف بسبب قيام الخوارج وانحطاط معنويات أتباعه . وفي الاشهر التالية أصابته خسائر اخرى . اذ استطاع معاوية الاستيلاء على ولاية مصر ، فحرم علياً من مورد غني بالمال والامدادات . وبينما تجنب معاوية الاشتباك في القتال ضد علي أخذ يغير على العراق ويناوش جندها متجنباً الخسائر .

ويكتنف الغموض أحداث السنة الاخيرة من حياة علي . فمن الجائز أَن يكون قد عقد هدنة مع معاوية ، أَو أنه كان يعد العدة

لمعركة جديدة ، الا انه قتل في كانون الثاني (يناير) سنة ٦٦١ م على يد خارجي يدعى ابن ملجم . ووضع الحسن ابنه حداً للصراع مع معاوية ، فتنازل له عن حقوقه في الخلافة . ونودي بمعاوية في سورية خليفة وقبلته الامبراطورية كلها . .

الفصل الرابع

الدولة العربيـــة

« قال عمر لسلمان : املك انا ام خليفة ؟
فقال سلمان : ان انت جبيت من ارض المسلمين
درهماً او اقل او اكثر ووضعته في غير حقه فانت
ملك غير خليفة .
وبكى عمر . »
الطبري ج ٣ ص ٢٧٩ (ط. القاهرة)

واجهت معاوية حين ارتقى الى الخلافة صعوبات عـدة : فقد كان سلطان الدولة المركزي قد ضعف ، وضربت فيه الفوضى. ونتج عن انفجار فوضوية البدو ونفورهم من النظام ان سادالدولةَ عدم الاستقرار ، ووضحت حاجتها الى الوحدة . وفصم قتـــل عثمان ، واندلاعُ الحرب الأهلية التي تلتــه ، ونقلُ العاصمة من المدينة ، عرى الرابطة الدينية التي كانت قد حفظت تماسك الخلافة الأولى . وهُزمت الاوليغاركية في مكة ، وساءت سمعتهـــا . وتنحصر المشكلة التي كانت تواجه معاوية في إقامة اساس جديـد لوحدة الامبراطورية . وكان الحـل الذي اخذ به معاوية يقضي

بتحويل الحكم ، الذي كان من الناحية النظرية دينياً إسلامياً ، الى حكم دنيوي يقوم على سيادة العنصر العربي .

ووجه المؤرخون العرب ، الذين جاءوا بعد الدولة الاموية وكتبوا في ظل أسر خلفت الامويين ، هممهم إلى الحط من شأن البيت المخلوع . فامتنعوا عن إطلاق لقب « خلفاء » على معاوية ومن جاء بعده من الحكام . واخذوا بعد زمن علي يتكلمون عن « مُلك » معاوية وباقي حكام الامويين ، باستثناء عمر الثاني الورع (٧١٧—٧٢٠) الذي فاز ، دون باقي الامويين بلقب « خليفة » . ولم يستعد حاكم المسلمين لقب « خليفة » الا عند قيام العباسيين في سنة ٧٥٠م . ومع ان لتهمة «النزعة الدنيوية» هذه أساساً من الصحة ، فيجب علينا ألا نبالغ في تقديرها .. نعم ، لقد أولى معاوية وخلفاؤه الناحية السياسية والاقتصادية لحكمهم أهمية متزايدة ، إلا ان العامل الديني ، على الرغم من إحلاله المكان الثاني ، كان لا يزال عظيم الاثر . وقد استغله معاوية بمهارة في حملاته المتوالية ضد البيزنطيين ، التي مكنته من ان يبدو حامي ذمار المسلمين وقائد الحرب المقدسة ، وأن يطالب معظم العرب بأن يمنحوه ولاءهم الديني وان يفوز بكسبه .

وتطلب أمر مركزية الحكم ، الذي كان ضرورياً للابقاء على وحدة الامبراطورية ، القيام بعدد من الخطوات ، أولاها نقلُ العاصمة الى سورية التي ظلت أهم ولايات الامبراطورية خلال حكم بني أمية . أما عاصمة الامبراطورية الفعلية فكثيراً ما كانت تتغير . واذْ كان الأمويون قادةَ شعب فاتح قام حكمهم على قوة

الصحراء ، فقد بنوا قلاعهم على حدود الصحارى والمناطق البعيدة عن الخطر . ولا تزال المباني التي شادوها وخلفوها لنا شاهداً قيماً على سياستهم وثقافتهم . واستقر معاوية في دمشق ، التي بدت ، بفضل موقعها المتوسط وتراثها الاداري والثقافي صالحة لاقامة حكومة فيها ، قادرةً على السيطرة على الولايات البعيدة .

وقام الاساس الاخلاقي الجديد، الذي كان سيحل محل الرابطة الدينية القديمة ، على اخلاص الامة العربية لرئيسها الدنيوي . وكانت السلطة التي مارسها معاويةُ عربيةً في أساسها . حقاً انها لم تعد دينية . ولكنها لم تكن ملكية حتى الآن . لقد كانت إحياء وتوسيعاً لسلطة « السيد » في النظام السائد قبل الاسلام . ويصف المؤرخ البيزنطي ثيوفانيس معاوية لا كملك أو امبراطور وانما كمستشار اول(Proto - Symboulos)ووصفه هذا لطبيعة السلطة التي كان يمارسها معاوية في محله . فقد كانت أداة حكمه الاولى هي الشورى او مجلس الشيوخ الذي كان يدعوه الخليفة او الوالي للاجتماع ، والذي كان يتمتع بسلطات استشارية وتنفيذية. وترتبط بهذه المجالس القبلية « الوفود » وهم مندوبون عن القبائل . وكانت هذه المجالس والوفود تؤلف معاً بناء واهياً يعتمد الى حد كبير على إخلاص العرب وموافقتهم اللذين كانوا (اي العرب) احراراً في منحهما للخليفة او حجبهما عنه . وقلما كان معاوية يلجأ في حكمه الى الامر ، بل كان ماهراً في تنفيذ ارادته بطريق الاقناع ، وهي الطريق التي كان يفضلها ، وباستخدام نفوذه وكفاءته الشخصية . وكان يقوم على تنفيذ سلطانه في الولايات ولاة يعينهم هو ، واعظمهم

زياد بن ابيه حاكم العراق (اكثر الولايات قلاقل وأصعبها حكماً) وحاكم الشرق في الوقت ذاته .

ولم تكن الخلافة الاموية، من ناحية الادارة، حكومة عربية بقدر ما كانت وريثة للامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية . فقد أبقى على الجهاز الاداري القديم بموظفيه. واتخذ معاوية احد نصارى سورية مستشاراً اول له. وكانت مسألة تنظيم وراثة العرش مشكلة حيوية بالنسبة الى توطيد اركان الامبراطورية. والسوابق الوحيدة في التاريخ الاسلامي التي كان بامكان معاوية اتباعها في مسألة تنظيم وراثة العرش هي الانتخاب او الحرب الاهلية . وبينما كانت الاولى غير عملية كانت للثانية نقائص واضحة .. وكان اسلوب الخلافة بالوراثة غريباً عن تصور العرب ، بحيث كان يتعذر قبوله في الحال . فاهتدى معاوية بديبلوماسيته المشهورة الى حل وسط وهو تعيين ابنه يزيد خليفة له . والطريقة التي تم بها تعيين يزيد مَثَلٌ جيد على الاسلوب الذي كانت تعمل وفقه البرلمانية القبلية . لقد اتخذ الخليفة ومجلس شورى دمشق قراراً بتعيين يزيد . وحين تأيد باستشارة القبائل عن طريق وفودها أُعلن للملأ . ولجأ معاوية الى الحجة والرشوة في إخماد المعارضة اكثر مما لجأ إلى القوة ..

واتسعت الامبراطورية خلال حكم معاوية . فاستولى العرب في اواسط آسيا على هراة وكابل وبخارى . وتابعوا تقدمهم في شمال إفريقية غرباً حتى المحيط الاطلنطي . واستمرت الحرب ضد البيزنطيين دون انقطاع. وتمكن العرب بسبب وجود أسطول عربي من إحراز نصرهم الأول العظيم على البيزنطيين في معركة ذات

الصواري سنة ٦٥٥ م ، وذلك ايام كان معاوية والياً على سورية .
وأعظم حادثة عسكرية وقعت خلال حكم معاوية هي هجومه على القسطنطينية سنة ٦٧٠ م . ومع ان العرب نجحوا في احتلال موقع جنوب غربي العاصمة البيزنطية عدة سنين ، فقد فشلت الحملة في النهاية ، وتوقفت عند وفاة معاوية . وحققت الحروب مع بيزنطة غرضين : أولهما انها ساعدت على تقوية نفوذ معاوية الديني ، والثانية انها أكسبت جيش سورية العربي مراناً ارقى ، وتنظيماً احسن ، وخبرة اوسع .

وفي سنة ٦٨٠ م ، لم تصاحب ارتقاء يزيد الى الخلافة أية قلاقل خطيرة . وكان يزيد حاكماً ماهراً قديراً وعلى جانب كبير من كفاءة أبيه . وكان أيضاً مثل ابيه موضع ذم المؤرخين العرب الذين جاءوا فيما بعد . ونشأت المصيبة الكبيرة التي نكب بها من تطور الحوادث في العراق . فقد أدى حكم زياد القاسي وحكم ابنه عبيد الله الذي لا يقل قسوة إلى تفاقم تذمر العراقيين ، وبالتالي الى قيام حركة موالية للحسين بن علي . وفي سنة ٦٨١ م . قتل الحسين مع عدد من أهله واتباعه على يد القوات الأموية في واقعة كربلاء . ولم تكن للحادث أهمية مباشرة كبيرة . ولكن نتائجها البعيدة كانت هائلة . وساعد الاستشهاد الروائي المطالب العلوي بالخلافة على تقوية الفريق المعارض للحكم الأموي الذي كان يرتكز الى مطالب آل علي في الخلافة .

وفي سنة ٦٨٣ م توفي يزيد ، وترك وراءه ابناً يافعاً وهو معاوية الثاني ، فأصبح خليفة بعده . فبدأت فترة

تكتنفها الشدائد ويحوطها الغموض . كما شهدت هذه الفترة نشوب نزاع قبلي وخيم واسع النطاق بين العرب انفسهم . ولم يحكم خلال الشهور الستة التي تلت وفاة معاوية الثاني أحد، واندلعت اثناءها الحرب الأهلية الثانية في التاريخ الاسلامي . فقد قام عبدالله بن الزبير ، وكان ابوه قد حارب ضد علي في الحجاز ، وطالب بالخلافة لنفسه ؛ ولكنه أضاع فرصة ، ربما كانت ثمينة ، حين رفض بعناد ان يغادر مكة [1] وان يقيم سلطانه في سورية . وقام في سورية نفسها صراع سافر بين القبائل العربية المتناحرة انتهى بانتصار الامويين على خصومهم في معركة مرج راهط سنة ٦٨٤ م . ونودي بمروان (٦٨٤ — ٦٨٥) ، وكان ينتمي الى فرع آخر من البيت الاموي ، خليفة . وسيطر مروان بالفعل على سورية ومصر . ونجح ، قبل وفاته ، في نقل الخلافة الى ابنه عبد الملك (٦٨٥ — ٧٠٥) الذي وقع على كاهله عبء اعادة وحدة الامبراطورية ، وسلطان الحكومة ، وخلق نظام جديد للحكم يحل محل النظام المتداعي الذي وضعه معاوية الاول .

وكانت الحرب الاهلية الثانية اكثر تعقيداً وأشد خطراً من سابقتها . فقد أخذت الميول نحو التفكك تعمل على نطاق اوسع وبصورة أشد ، بينما تكونت عوامل جديدة جلبت معها مشاكل وصعوبات جديدة .

ولا نعرف الكثير عن الحياة الاقتصادية في الدور الاموي .

---

(١) المدينة في الأصل . [المعربان]

والمصادر العربية عن هـــذا الموضوع كتبت في زمن متأخر . ومعظم ما توصلت اليه من نتائج، مضطرب. لأنها تعزو لهذا الزمن ما تم من اصلاح في وقت متأخر ، ولأنه يسيطر عليها كلها التحامل ضد البيت الاموي وما قام به من اعمــال . ومما يضاعف صعوبة وصف الحياة الاقتصادية في العهد الاموي سلوكُ الامويين انفسهم ، اذ كانوا يتصرفون طبق اهوائهم ، وفي الغالب بطريقة خاطئة دون اهتمام كبير بالعُرف او النظام .

وكان المجتمع الأموي يقوم على سيـادة العنصر العربي الذي كان عنصراً اجتماعياً وراثياً اكثر منه امة. وكان لا يدخله شخص الا بطريق الولادة. ولم يكن افراده يدفعون ضرائب عن اراضيهم ، بل كانوا يدفعون ضريبة دينية شخصية ، وهم وحـدهم الذين كانوا يجندون في الامصار — وهكذا صاروا يؤلفون أغلبية المحـاربين المُدْرَجة اسماؤهم في سجلات الديوان فيقبضون رواتب شهرية وأعطية من غنائم الفتوح ودخل الولايات المفتوحة ، نقداً وعيناً .

وبدأ العرب ، حتى قبل قيـــام الامويين ، بامتلاك الارض خارج بلاد العرب . ومنذ زمن معاوية أخذ عدد هؤلاء الملاكين يزداد زيادة مضطردة. وكانوا يمتلكون الارض بطريقين : بطريق شرائها من الملاكين غير العرب ، وبطريق منحهـــا لهم على يد الحكومة العربية . وورثت الدولة العربية الجديدة أراضي واسعة كانت من قبل تابعة للحكومتين البيزنطية والفارسية بالاضافة الى أراضٍ كثيرة تركها ملاكون بيزنطيون كبار هربوا مع جيوش الامبراطورية المهزومة . وكانت هذه الأراضي، والاراضي المقفرة

غير المنزرعة ، تؤلف ما يسمى بالارض « الموات » على حد تعبير فقهاء المسلمين . ولكي تضمن الدولة زراعة هـــذه الارض وجمع الضرائب المفروضة عليهـــا ، جرى الخلفاء على تقديم منح منها تسمى « القطـــائع » ، أو الصوافي كما كانت تعرف في العراق ، الى افراد من اسرتهم أو إلى غـيرهم من العرب البارزين وذوي اليسار . وهـــذه القطائع شبيهة بمـــا كان يسمى عند البيزنطيين Emphytensis ، وبنيت على نمطها . وكان الاشخاص الذين تعطى لهم هذه المنح يُلزمون بفلاحتها خلال فترة معينة وبجمع الضرائب المفروضة عليها وتقديمهـــا الى الحكومة . وكان الملاكون العرب ، خلافاً لما كان عليـــه حال الملاكين والفلاحين من غـــير العرب الذين كانوا يدفعون الضريبة كاملة حسب النظام القديم ، لا يدفعون سوى ضريبـة العشر . وتكاثر عدد القطائع بسرعة ، وأصبحت تشغل مساحة من اجود الاراضي وكان يجوز بيعها وشراؤها ؛ ثم اصبحت في الواقع ملكاً خاصاً بالفرد . ولم يكن أصحاب هـذه القطائع في العادة يقيمون فيها ، بل كانوا يقيمون في الامصار او في العاصمة . وكانوا يستثمرون اقطاعاتهم بتشغيل عمال وطنيين او عمال حالهم اشبه بحال العبيد .

ولا يعرف على وجه التحديد عدد العرب الذين استوطنوا في الولايات المفتوحة ، ولكن لا بد انهم كانوا يؤلفون اقلية ضئيلة بالنسبة الى اهل البـلاد . ويقدر عدد الذين استوطنوا في سورية وفلسطين عند أواخر القرن الاول الاسلامي بحوالى ربع مليون شخص . وكانت الغالبية الساحقة من هؤلاء من الجند والموظفين

وغيرهم من سكان المدن والبدو . ولم يكن المرء يجد عرباً يفلحون الارض غير أولئك العرب الذين كانوا قد تسربوا [الى الهلال الخصيب] قبل الاسلام . ويقدر مصدر مصري عدد الفلاحين العرب في مصر عند نهاية العصر الاموي بثلاثة آلاف . وكان كثير من الامراء الامويين اصحابَ املاك واسعة . وأَوْلى قسم منهم استثمار املاكهم وتحسينها اهتماماً وعناية فائقين . ويعزو ابن عمير – احد الملاكين الاثرياء ومن اهل اليسار – الى الرسول الحديث التالي وفحواه من يُقتل دفاعاً عن ارضه يموت شهيداً . ومع ان صحة هذا الحديث موضع شك بالغ ، إلا انه مثل صادق على النظرة الدينية التي تكونت عند طبقة الملاكين الاثرياء الجديدة التي شكلت عنصراً هاماً من عناصر الطبقة العربية الحاكمة .

ويبدو أن الثروات التي جمعها بعض العرب الفاتحين لم تأت بطريق استثمار اموالهم او بطريق المتاجرة . فحتى الطبقة التجارية في مكة ، اذا استثنينا منها افراداً قلائل ، تركت عملها القديم مفضلة عليه القيام بدور الارستقراطية العسكرية . الا ان الخلفاء الامويين انفسهم وكثيرين غيرهم من الاثرياء عاشوا في ترف باذخ في المدن وحتى في البادية ، وصرفوا مبالغ طائلة على بناء القصور وتأثيثها . وكان اقتصاد هذا الزمن يقوم في الدرجة الاولى على النقد . وكانت رواتب الجنود والموظفين تدفع نقداً وعيناً ، كما كانت الضرائب تجبى بالطريقة نفسها . وتؤيد النقود الباقية من عصر الخلافة الاولى قولَ المؤرخين بأن دُور ضرب النقود التي استولى عليها المسلمون من الفرس والبيزنطيين واصلت ضرب

العملة الذهبية والفضية بكميات تكفي لتداول العملة .

وقد ساعد توفر الثروات الهائلة من النقد لدى الطبقة العربية الحاكمة على نمو طبقة جديدة وهي طبقة الموالي (ومفردها مولى) ، وهو أيّ مسلم لا يؤلف عضواً كاملًا من أعضاء احدى القبائل العربية وذلك بطريق الولادة .. وهكذا كان بين الموالي فرسٌ وأرمن ومصريون وبربر وغيرهم من الشعوب غير العربية التي دخلت في الاسلام ؛ كما كان بينهم بعض الناطقين بالعربية ، أو بعض من هم عرب بالتأكيد ولكنهم لسبب ما فقدوا أو فشلوا في الحصول على عضوية تامة في الطبقة العربية الحاكمة ..

ولم تكن كلمة « موالي » تشمل أهل الذمة اي اتباع الديانات التي أَقرها الاسلام وشملها بحمايته . فهؤلاء كانوا يتمتعون بحماية الحكومة الاسلامية وتسامحها معهم مقابل قبولهم دفع نسبة اعلى من الضرائب ، ومقابل حرمانهم من بعض الحقوق الاجتماعية .

واحتشد الموالي بأعداد كبيرة في الأمصار العربية ، فبنوا خارجها مدناً واسعة أقام فيها العمال والصناع واصحاب الدكاكين والتجار وغيرهم ممن كانوا يوفرون للأرستقراطية العربية حاجاتها. واذ كان هؤلاء مسلمين فقد كانوا يقفون من الناحية النظرية على قدم المساواة مع العرب ؛ وبالفعل طالبوا بالمساواة الاقتصادية والاجتماعية معاً ، إلا ان الارستقراطية العربية لم تمنحهم هذه المساواة كاملة في العصر الأموي. وبينما نجح بعض الملاكين الموالي في ان يدفعوا ضريبة مساوية لما كان المسلم يدفعه ، وذلك مقابل خدمات أدوها للحكومة الجديدة ، فان غالبيتهم فشلت في ذلك . وفي زمن

عبد الملك لجأت الحكومة الاسلامية الى عدم تشجيع الدخول في الاسلام، وطردت الموالي من المدن ، وأعـادتهم الى اراضيهم وحقولهم ، وذلك لكي تعيد دخل الدولة المتناقص الى ما كان عليه . وحارب الموالي بالفعل الى جانب العرب في الجيوش الاسلامية وخاصة في الولايات الواقعة على التخوم في خراســان والمغرب الاقصى . ولكنهم حاربوا على أي حال كمشاة . وكانت رواتبهم وانصبتهم من الغنائم دون ما يأخذه الخيالة العرب . والناظر في ادب ذلك الزمن يرى بوضوح انحطاط مكانة الموالي الاجتماعية . فمثلاً اعتُبر زواج احد الموالي من عربية اصيلة في عروبتها زواجـاً معيباً . ويتساءل احد كتاب العرب عما اذا كان مثل هذا الزواج يمكن ان يعقد حتى بين سعداء الجنة .

وازداد عدد الموالي بسرعة ، وسرعان ما فاق عـــدد العرب انفسهم . ونشأ من استيطانهم جماعاتٍ في الولايات شعبٌ متذمر خطر أخذ يقوى مع الزمن شعوره بأهميته السياسيـــة المتزايدة وبتفوقه الثقافي وبنصيبه المتزايد حتى في الاعمال الحربية . وكانت ظلامتهم الرئيسية اقتصادية . فقد كان بناء الدولة العربية كله يقوم على الفرضية التالية : وهي ان اقلية عربيـــة ستحكم اكثرية غير مسلمة تدفع الضرائب . وفي حالة مساواة الموالي بالعرب من الناحية المالية كان لا بد من تناقص الدخل وتزايد الخرج . واذا تحققت هذه المساواة فلا مفر من انهيار الدولة التام . وعلى الرغم من ان التفريق بين الطائفة صاحبة السيادة وبين الموالي كان يتفق الى حد كبير مع الفروق العنصرية بين العرب وغير العرب ، فقد كان هذا

التفريق في اساسه اقتصادياً واجتماعياً أكثر مما كان قومياً . فقد انزل العرب الفقراء في العراق والبحرين ممن لم تدرج أسماؤهم في سجلات الديوان الى مرتبة الموالي ، فاصبحوا يشاطرون هؤلاء ظلاماتهم . وكيّف كثيرون من افراد الطبقة الفارسية الحاكمة أنفسهم طبقاً للنظام الجديد .

ووجد تذمر الموالي تعبيراً دينياً عنه في الحركة المعروفة باسم الشيعة (اي شيعة علي او حزبه) . . وقد بدأ التشيع حركة عربية خالصة وحزباً سياسياً صرفاً التف حول مطالب علي في الخلافة . وقد نشأ عن نقل علي للعاصمة الى الكوفة ، ثم نقل الامويين لها الى الشام ، أن ناصرت الحركة الوطنية العراقية الشيعة . وبدأ تطور حركة الشيعة الحقيقي بعد استشهاد الحسين في كربلاء . فقد أخذ الشيعة يسعون الى النصر بصفتهم طائفة إسلامية ، وذلك بعد ان فشلوا في كسبه كحزب عربي . ونجح الشيعة في نشر دعوتهم بين الجماعات المتذمرة ،وخاصة بين الموالي الذين كانت تؤثر فيهم فكرة قيام خليفة شرعي من نسل الرسول اكثر مما تؤثر في العرب أنفسهم . وأصبح التشيع في اساسه تعبيراً في مصطلحات دينية ، عن معارضة الدولة والنظام القائم الذي كان قبوله يعني موافقة السنة او المذهب الاسلامي الحقيقي .

لم تقتصر هذه المعارضة للنظام القائم على غير العرب بأية حال من الاحوال . فقد قام العرب في العواصم الثائرة ، وخاصة في الكوفة ، مسقط رأس حركة الشيعة الثورية ، بدور هام ، في حركة المعارضة بل كانوا في بادىء الامر هم اصحاب الدور

الرئيسي فيهـــا . فالعرب هم اول من جلب التشيع إلى فارس حيث كانت مدينة "قم" الحربية احدَ معاقـــل الشيعة الرئيسية . وكانت هذه المعارضة التي يعبر عنها التشيـع ثورةً اجتماعية ضـد الارستقراطية العربية وحكومتهم وعقيدتهم اكثرَ منها ثورة قومية ضد العرب .

ولم يكن مناصرو النظام القائم كلهم من العرب . ذلك ان من بقي من الارستقراطية الفارسية الاقطاعية [في الدولة العربية] تقبـــلوا ضياع حقوقهم السياسية المؤقت لانهم احتفظوا بوظائفهم وامتيازاتهم الاجتماعية والاقتصادية، بل كانوا يتعاونون مع العرب طالما اقرهم هؤلاء على امتيازاتهم . وحين دخـــلوا في الاسلام استبدلوا الاسلام على المذهب السني بالديانة الزرداشتية الحقّة . اما من اسلم من فلاحي الفرس وعامتهم ، وكانوا لا يزالون يحاربون [الارستقراطية] عدوّهم نفسه ، فقد استبدلوا بديانة زرادشت المذاهب الاسلامية الخارجة على السنة ، معارضين بذلك الارستقراطية المسيطرة عرباً وفرساً .

وكما هو متوقع ، اجتذبت اشكال التشيـع المتطرفة الـتي لا تقبل التوفيق الموالي من الفرس وغير الفرس . فأدخل هؤلاء فيها كثيراً من الافكار الدينية الجديدة الـتي استقوها من معتقداتهم المسيحية واليهودية والفارسية الاولى . وربما كان تصور المهدي (اي المهديّ سواء السبيل) هو اهم هـــذه الافـكار الدينية الجديدة . وكان « المهدي » في اول الامر زعيماً سياسياً فحسب ، ولكنه سرعان ما اصبح داعية دينيـاً منقذاً . ونرى اول مظهر

مميز لهذا المذهب في ثورة المختار الذي نظم في ٦٨٥ – ٦٨٧ م ثورة في الكوفة باسم محمد بن الحنفية ، ابن علي من زوجة غير فاطمة . وأثرت دعوة المختار في الموالي بصفة رئيسية . ومن الطريف ان نلاحظ ان العرب ، كما يقول مؤرخ عربي ، وبخوا المختار لانه جند « موالينا وهم فيء ، أفاءه الله علينا ، وهذه البلاد جميعاً [١] » . وأخذ المختار بعد وفاة محمد بن الحنفية يذيع بين الناس أنه لم يمت وإنما اختفى في الجبال قرب مكة ، وأنه سيعود في الوقت المناسب الى الدنيا ويملأها عدلاً . وانهارت ثورة المختار وسط الدماء ، ولكن فكرة المنقذ التي نشرها بين الناس رسخت . وظهر خلال ما تبقى من حكم الامويين دعاة علويون وأدعياء يدعون النسب العلوي من ذرية محمد بن الحنفية ومن ذرية فاطمة ، وطالب كل منهم بولاء المسلمين له على انه الحاكم الشرعي الاوحد للمسلمين . ولحق واحد من هؤلاء بعد الآخر بأسلافه ، اي اختفوا ، فزودت قصص أعمالهم وفشلهم أسطورة المهدي بتفصيلات جديدة . وكان الدعاة من ابناء فاطمة يمثلون بوجه عام الجناح المعتدل لحزب الشيعة ، وناصرهم كثيرون من بين أفراد العناصر المتذمرة من العرب انفسهم . وتقترن اسماء الدعاة من ذرية محمد ابن الحنفية بالتطرف في العقيدة والعمل ، ويمثلون ظلامات الموالي ، التي كانت في حاجة الى علاج سريع ، بصورة أوضح .

وكان على الأمويين ان يواجهوا تذمر رعاياهم المتفاقم ، إلا انه لم يكن في مقدورهم ولا بمجال الاعتماد على مناصرة

(١) انظر الطبري ج ٤ ص ٥١٧/٥١٨ ط القاهرة [المعربان] .

العرب لهم مناصرة تامة . إذ كان الشعور القبلي العام بالفردية والاستقلال ، الذي لم يكن موجهاً ضد الامويين بقدرما كان موجهاً ضد ايّ حكومة ، لا يزال قوياً بين العرب الرحل. ووجد هذا الشعور تعبيراً في قيام سلسلة من الحركات . ففي مكة والمدينة شكّل المتدينون ، الذين لم يقبلوا مطلقاً باخلاص طريقة معاوية في التوفيق بين العروبة والمركزية ، معارضة ثيوقراطية تؤكد على المظاهر الدينية وعلى الجانب الاختياري في الخضوع للخلافة المشيخية التي كانوا يعتبرونها مثلهم الاعلى . وينشر تحامل هذه الجماعة المتدينة على الامويين ظله على نتاج العصر الاسلامي الأول الديني والتاريخي الذي كانوا هم انفسهم يضعون اسسه في تلك الاثناء . ومع ان معارضة هؤلاء الأمويين قلما كانت تتخذ شكل الثورة المسلحة ، الا ان دعايتهم المتواصلة ساعدت على هدم سلطان الامويين المركزي .

وهناك مظهر آخر اكثر خطراً من السابق للرغبة في رفض مركزية الحكم والرجوع الى النظام السائد قبل الاسلام مع الابقاء على المظاهر الاسلامية ، وهو حركة الخوارج . وهم ، كما رأينا ، جماعة من أتباع علي ثاروا ضده عندما قبل التحكيم في موقعة صفين وأرادوا حكم الله بين الجماعتين ، أي الحرب . وانسحب اثنا عشر الفاً منهم ، واستطاع علي ان يقنعهم بالرجوع اليه ، فانضموا اليه فترة من الزمن . الا ان اربعة آلاف منهم انفصلوا عنه مرة اخرى ، فاضطر الى مهاجمتهم وقتل عدد كبير منهم في واقعة النهروان سنة ٦٥٨ م . وبدأت حركة الخوارج دينية خالصة ،

لكنها استحالت بالتدريج الى معارضة هجومية فوضوية لا تقر بسلطان غير سلطان الخليفة الذي اختاروه والذي كان في استطاعتهم ، كما فعلوا كثيراً ، أن يعزلوه حين يشاؤون . وفي العشرين السنة التي تلت وفاة علي قام الخوارج بثورات صغيرة في العراق كانت اشدها الثورة التي انفجرت على أثر وفاة يزيد . وفشل الخوارج بسبب طبيعة حركتهم التي تنطوي على التفرقة وما فيها من ميل للفوضى وإثارة النزاع الداخلي . وهُزم الخوارج في العراق زمن عبد الملك بن مروان شرّ هزيمة وطردوا بالتدريج إلى فارس . وفي اوائل القرن الثامن الميلادي قُضي عليهم قضاء مبرماً . ومذهب الخوارج في الحكم هو مذهب العرب في الحكم قبل الاسلام ، فهو يقوم على رضى الافراد ، ويتمتع فيه الفرد بحرية الرأي التامة . ووضعت نظرياتهم بحق على الوجه التالي « تمثيل لميل العرب الطبيعي الى التمرد ، مسند بالصيغ العقلية ، مدعم بالتنظيم ، موغر بالحقد ، مسرف في التعصب الديني . »

وكان الضعف الداخلي الرئيسي في النظام الأموي الذي سقط الامويون بسببه هو الخصومات القبلية العربية المتكررة . فالرواية العربية التقليدية نفسها تقسم القبائل الى مجموعتين رئيسيتين وهما : عرب الشمال وعرب الجنوب . ولكل من هاتين المجموعتين شجرة نسب تبين الروابط بين القبائل داخل نطاق المجموعة ، كما تبين تحدر هذه القبائل من جد مشترك . وحدثت بين القبائل نزاعات قبل الاسلام لكنها قامت بين قبائل متجاورة يرتبط في الغالب بعضها ببعض برابطة النسب . وجاء تطور هذه الخصومات

الى نزاعات بين مجموعات كبيرة من القبائل نتيجـــةً للفتوح ، وكان عرب الامصار يقيمون في أحياء مرتبـــة بحسب قبائلهم فكونت هذه الاحياء احزاباً متنافسة لا على اساس جغرافي بل على اساس شكله أشبه باعمال الفسيفساء . وجداول الانساب التي وضعتها الرواية العربية من صنع الخيال على الارجح . الا انها مهمة من الناحية التاريخية ، لأنها نشرت ظلها على الحياة العربية في العصر الأموي . وأول ظهور غامض للنزاع القبلي بين «العصبتين» الشمالية والجنوبية ، يعود تاريخه الى زمن معاوية . ومن ثم أخذ يزداد قوة . وكان يندلع أواره كلما ضعف سلطان الحكومة المركزية . وحدث هذا عند وفاة يزيد ، وذلك حـــين رفضت « قيس » ، وهي إحدى قبائل عرب الشمال الكبرى ، مبايعـــة خلفه ، وبايعت عبدالله بن الزبير. الا ان الامويين تمكنوا بمساعدة بيلة كلب اليمنية من التغلب عليهم في موقعة مرج راهط . لكن بيت الاموي خرق بعمله هذا حياده وأقحم نفسه في حومـــة النزاع .. وجرى الخلفاء بعد عبد الملك بن مروان على الاعتماد على هذا الجانب أو ذاك . وهكذا عملت الخلافة على الحط من قيمتها حين اصبحت فريقاً في الصراع القبلي . ويرى احد المؤرخين ان صراعاً مستمراً مستحكم الاصول مثل هذا الصراع لا بد وان تكون له اسباب أخرى أشد خطراً من شجرة الانساب الخيالية التي توردها لنا الرواية العربية. وقد وجدت هذه الاسباب الاخرى في تضارب مصالح العرب الذين كانوا قد تسربوا الى البلادالمفتوحة قبل حركة الفتوح الاسلامية – ومعظمهم من عرب الجنوب – مع

مصالح عرب الشمال الذين رافقوا جيوش الفتح وكانوا يؤلفون غالبيتها . ويؤيد هذا القول الحقيقة التالية : وهي ان القبائل الجنوبية كانت بوجه عام أكثر تقبلًا لدعوة الشيعة ، مما يوحي بأنه كانت هناك مصالح مشتركة بينهم وبين الموالي .

وكان ميدان الصراع الرئيسي في الحرب الاهلية الثانية هو العراق ، حيث كانت جميع عوامل الصراع ماثلة وقوية . وكانت الكوفة ، وهي إحدى المدن الهامة النامية ، مركز الصراع الرئيسي مما جعلها تشهد عدداً من الحركات المتتابعة العنيفة . وكان اهم ما شغل عبدالملك في سني حكمه الأولى هو إعادة توطيد النظام بين العرب وتنظيم شؤون البيت المالك ، وإقامة السلم على التخوم الشمالية ، وذلك بالاتفاق مع الامبراطور البيزنطي .. وعندما دخلت سنة ٦٩٠ كان عبد الملك على أتم استعداد لمحاربة الثوار . وتمكن في غضون ثلاث سنين من حمل الجميع على الاعتراف به .

واعترضته بعدئذ مشكلة وضع نظام جديد للدولة . والحل الوحيد الذي كان يتحتم عليه الأخذ به هو تقوية الحكم المركزي ، وذلك بجمع السلطان في يد الحاكم وجعله يستند الى قوة الجيش الشامي . وكانت خلافة عبدالملك لا تزال ملكية مركزية اكثر منها اوتوقراطية على النمط الشرقي . وكان يخفف من حدة مركزيتها التقاليد العربية وبقايا فكرة الحكم الثيوقراطي . وفي زمن عبدالملك بن مروان بدأت حركة « التنظيم والتعديل » على حد تعبير المؤرخين العرب . فبدأت حركة استبدال النظم الفارسية

والبيزنطية التي كانت لا تزال نافــذة في مختلف الولايات بالتدريج ، والاخذ بنظــام جديد تكون اللغة العربية بموجبه لغـــة الادارة والحسابات وأنشئت في سنة ٦٩٦ م دار لضرب النقـــود واستخدامها بدلاً من النقود الفارسيـة والبيزنطية التي كانت متداولة حتى زمن عبد الملك . وعبد الملك ومستشاروه هم الذين بدأوا بوضع نظام مالي تبلور في عهد خلفائه وأصبح نظاماً إسلامياً خاصاً جديداً للضرائب . وترك عبد الملك لخلفائه امبراطورية قوية يخيم في ربوعهـا السلام ، وعامرة بسبب المجهودات التي صرفت على المشاريع العامة والتعمير . إلا ان المشاكل الرئيسية تركت دون حل .

وكان حكم الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ – ٧١٥) من نواحٍ كثيرة ، الاوج الذي بلغه سلطان الامويين . وكانت اهم مسألة تثير اهتمام الناس في هـذه الفترة هي استئناف الحرب والتوسع اللذين امتدا في هـذا العهد الى ثلاث مناطق جديدة . وكان قتيبة بن مسلم ، الذي انتدبه الحجاج والي عبد الملك على العراق ، أول من وطد سلطان العرب في وسط آسيا في بلاد ما وراء نهر جيحون ، وذلـك باحتلاله بخارى وسمرقند وإحرازه انتصارات اشتهر أمرها . وفي جنوب هذه البلاد تمكن جيش عربي من فتح ولاية السند في بلاد الهنـد . إلا ان العرب لم يواصلوا فتوحهم في هذا الاتجاه ، كما انهم لم يفتحوا الهند إلا بعد زمن طويل . وكان أهم من هذا كله نزول العرب في إسبانيا في سنة ٧٠٩ م واحتلالهم عقب ذلك جزءاً كبيراً من شبه جزيرة إيبريا .

وأرسل سليمان بن عبد الملك (٧١٥ – ٧١٧) حمـــلة الى القسطنطينية كانت آخر هجوم واسع النطاق قام بـــه العرب على هذه المدينة. وأوقع فشل هذه الحملة السلطان الاموي في أزمة خطيرة. فقد اشتطت الدولة في تحصيل الضرائب، الامر الذي كان قد اثار معارضة شديدة الخطر في وجه الامويين ، وذلك بسبب ما تكلفه تجهيز الحملة والانفـاق عليها من اموال . وفقدت الدولة الاموية نتيجة لتحطيم اسطولهـــا وجيشها النظامي تحت اسوار القسطنطينية اساس قوتها المادية. وفي هذه الآونة الحرجة عين سليمان وهو على فراش الموت خليفة له ، عمر بن عبد العزيز الورع الذي كان اصلح امراء البيت الأموي لعملية التوفيق التي كانت الوسيلة الوحيدة لانقاذ الحكومة الأموية .

كانت مهمة عمر الثاني هي الابقاء على وحـــدة العرب وعلى الامبراطورية العربية وذلك بارضاء الموالي . وبادر الى انجاز هذه المهمة ، فأحدث عدداً من الاجراءات الماليـة التي نجحت ، على الرغم من انهيارها آخر الامر في التغلب على الازمة . والمشكلة الرئيسية التي واجهته نشأت من دخول اهل الذمة جمـــاعات في الاسلام ، ومن ازدياد عدد الملاكين العرب زيادة مطّردة . فقد ترتب على دخول اهل الذمة في الاسلام وتعاظم عدد الملاكين ان تضاعف عدد الذين رفضوا دفع الضريبة الا بشكلها المخفض المفروض على المسلم . وعالج الحجاج هذه المشكلة بأن أعاد الموالي عنده الى اراضيهم وطالب الملاكين المسلمين بدفع الضريبة كاملة . إلا ان حله هذا بالاضافة الى انه غير عملي اثار استياء الناس منه وسخطهم

عليه . وحاول عمر الثاني ان يحل هذه المشاكل ، فوضع نظاماً يقضي بأن يدفع الملاكون المسلمون ضريبة العشر فحسب دون الخراج (الذي كان الحد الاعلى للضريبة) ؛ إلا انه حظر انتقال الارض التي تدفع الخراج للمسلمين بعد سنة ١٠٠ هجرية (٧١٩م) واستحدث اجراء قانونياً آخر مكّن المسلمين من استئجار هذا النوع من الارض بشرط ان يدفعوا عنها ضريبة الخراج . ولكي يسكن عمر الثاني من ثائرة الموالي سمح لهم ان يقيموا في العواصم ، واعفاهم من الخراج والجزية اللذين ُخصص مدلولهما فأصبح يعني ضريبة الرأس التي يدفعها غير المسلمين ، ومهما يكن من امر فقد كان الموالي في جميع انحاء الامبراطورية باستثناء خراسان يقبضون عطاء أقل مما كان يدفع للمحارب العربي . اما فيما يختص بالعرب انفسهم فقد ساوى عمر بينهم وبين السوريين الذين كانوا حتى عهده يقبضون عطاء اعلى مما كان ُيدفع لغيرهم من العرب . وخصص عمر رواتب لأبناء المحاربين العرب وزوجاتهم . ورافقت هذه الاجراءات سياسة اشد نحو اهل الذمة : فقد أقصوا عن الادارة التي كان لا يزال عدد كبير منهم مستخدمين فيها . كما ان عمر ألزمهم بالخضوع التام للقوانين التي فرضت عليهم والتي تقضي بحرمانهم من بعض الحقوق الاجتماعية والمالية .

ونتج عن ادخال هذه الاصلاحات أن ازداد الخرج ونقص الدخل في الحال . وأدى رفض استخدام اهل الذمة في الادارة الى حدوث فوضى واضطراب واتبع خلفاه ، يزيد الثاني (٧٢٠ - ٧٢٤ م) وهشام (٧٢٤ - ٧٤٣) نظاماً جديداً

ظل نافذاً مع ادخال قليل من التغييرات عليه بعد سقوط الدولة الاموية بوقت طويل . وتجمع الروايات الشرقية كلها على ان هشاماً كان حاكماً مقتراً حريصاً ، وان اهتمامه بجمع الضرائب فاق اهتمامه بغيره من الامور . وما في ايدينا من معلومات لا يكفي لرسم وصف عام للسياسة المالية في زمن الخلافة كوحدة . وعلى كل حال فلدينا بعض المعلومات عن السياسة المالية التي انتهجها ولاة هشام الثلاثة الكبار وهم عبيد الله بن الحباب في مصر ، وخالد القسري في العراق ، ونصر بن سيار في خراسان . وفي مقدورنا ان نُكوّن من هذه المعلومات صورة للسياسة التي اتبعت في العهد الثاني من الدور الأموي . فكانت اهم دعائم النظام الجديد هي النص القانوني على ان الارض ، لا مالكها ، هي التي تدفع الخراج . ومعنى هذا ان جميع الاراضي الخراجية صارت منذ هذا الوقت تدفع الضريبة كاملة بغض النظر عن دين صاحبها وقوميته . اما الاراضي العشرية التي تكونت في ظل الخلافة الاولى ، فقد ظلت تدفع الضريبة المخفضة (اي العشر) الا انه لم يعد من المستطاع زيادة هذا النوع من الارض . وكان الذميون ، بالاضافة الى ضريبة الخراج يدفعون ضريبة الجزية ، اي ضريبة الرأس . وحين عُين في الولايات مشرفون ماليون [او عمال] منفصلون عن الولاية ، وانيط بهم القيام بمسح الارض واحصاء السكان كأساس لوضع الضرائب الجديدة ، اصبح هذا النظام ، الذي قدر له ان يصبح النظام المعتمد في التشريع الاسلامي ، اكثر فعالية .

وبعد وفاة هشام سارت الدولة بخطى حثيثة في طريق الانهيار. اذ حمي وطيس النزاع القبلي، واستأنف الشيعة والخوارج مقاومتهم للدولة بعنف زائد الى درجة أنه لم تأت سنة ٧٤٤ م، حتى كانت حقوق الحكومـــة المركزية موضع التحدي حتى في سورية، وفقدت اعتبارها في باقي أنحاء الامبراطورية. وكان مروان الثاني، آخر الخلفاء الامويين، حاكماً ذكياً قديراً ولكنه جاء في وقت متأخر لم يكن من المستطاع فيه إنقاذ الدولة الاموية.

وجاءت نهاية الدولة على يد حزب دعا نفسه بالحزب الهاشمي. وكان أبو هاشم بن محمد بن الحنفيـة، الذي حارب المختارُ باسمه، على رأس فرقة شيعية متطرفة يناصرها فريق من الموالي. ولما حضرته الوفاة في سنة ٧١٦ م ولم يكن له أولاد، تنازل عن مطالبه في الخلافة لمحمد بن علي بن العباس من ذرية عم الرسول. ولمـــا قبلت هذه الطائفة محمداً، تمكن الاخير من السيطرة على دعوتهم وعلى منظمتهم الثورية. واتخذ نشاط هذا الحزب من خراسان مركزاً رئيسياً لأعماله. وكان عرب البصرة والكوفة قد كونوا فيها مستعمرات عربيـة حوالى سنة ٦٧٠ م، وجلبوا اليها معهم نزاعاتهم القبلية التي تفاقمت واتسعت دائرتها في هذا الوطن الجديد. وكوّن العرب أقلية ضئيلة بين شعب فارسي محارب بطبعه، ومتذمر بسبب عدم مساواته بالعرب من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية.

ويظهر أن دعاة بني هاشم تعاونوا في البداية مع الشيعة المعتدلين الذين كان سليمان بن كثير، وهو عربي يمني، يمثلهم في خراسان. ونشط بنو هاشم في بث دعوتهم حوالى سنة ٧٢٠ م. وأعدم أول

زعيم من زعمائهم على أثر قيام ثورة فاشلة بعد ثماني عشرة سنة . ولكي يستعيد محمد بن علي بن العباس ثقة الشيعة المعتدلين أناط بسليمان بن كثير أمر تنظيم الدعوة في خراسان يعاونه مجلس يتألف من اثني عشر عضواً ثمانية منهم من العرب وأربعة من الموالي . الا ان محاولة التوفيق هذه لم تثمر ، وحين جردت الحركة مما يهم الموالي اضمحلت وخمدت . وفي هذه الاثناء توفي محمد بن علي العباس وخلفه ابنه ابراهيم الذي اقرت منظمة الشيعة في العراق حقوقه في الخلافة . وفي سنة ٧٤٣ م أرسل ابراهيم الامام ابا مسلم الخرساني ، وهو أحد موالي الفرس في العراق ، نائباً عنه وداعية له الى الموالي الفرس . وأصاب ابو مسلم نجاحاً كبيراً في نشر الدعوة بين الشعب الفارسي وحتى بين الارستقراطية الفارسية في الارياف . ومع ان الفريق المعتدل كان لا يزال متذمراً ، تخالجه بعض الريبة ، فقد قبل الجميع زعامة ابي مسلم . وفي سنة ٧٤٦ م بدأت ثورة بني هاشم ، ورفعت رايات العباسيين السوداء في خراسان . وكان اللون الاسود في الغالب يمثل شعار العباسيين الخاص . وكان استخدام الرايات السوداء ، في واقع الامر ، محاولة [من جانب العباسيين] لتحقيق ما تفرضه احدى النبوءات بشأن ظهور المنقذ التي كان كثير منها شائعاً بين سكان الدولة العربية الساخطين . ولقد رفع الاعلام السوداء ثائرون آخرون غير العباسيين ، لكن نجاح هؤلاء هو الذي جعل السواد من خصائص البيت الحاكم الجديد . واصبح العباسيون بعد سنين قلائل يعرفون في بيزنطة وفي الصين بلابسي السواد .

اما بقية الحوادث فقد توالت بسرعة . وحال الصراع الذي كان قائماً بين القبائل العربية نفسها في خراسان دون قيامها بمقاومة الحركة الجديدة مقاومة مثمرة . وحين تأهبت لمقاومتها كان وقت العمل المثمر قد فات .. واذ توطد الحكم الجديد في الشرق زحفت جيوش ابي مسلم بسرعة الى الغرب وهزمت آخر جيوش الامويين في معركة الزاب الكبير . وبذلك ذهب البيت الاموي وذهبت الدولة العربية ، ونودي بابي العباس الملقب بالسفاح خليفةً للمسلمين .

الفصل الخامس

الامبراطورية الاسلامية

« مكان جميل ، وزمن ممتع ، اذ كان
ذلك في العهد الذهبي لهارون الرشيد ».
(تنيسون : مشاهد ألف ليلة وليلة)

كان حلول العباسيين محل الأمويين في حكم الجماعة الاسلامية اكثر من مجرد تغيير الأسرة الحاكمة ، لقد كان ثورة في تاريخ الاسلام ، تعيّن نقطة فاصلة فيه ، ولها من الاهمية ما للثورتين الفرنسية والروسية من اهمية في تاريخ الغرب . ولم يتم هذا التغيير نتيجة لمؤامرة من مؤامرات البلاط ، او لانقلاب في الحكم ، بل تحقق بفعل دعوة وتنظيم ثوريين ناجحين واسعي الانتشار ، يمثلان ويعبران عن استياء عناصر هامة من الشعوب من الحكومة السابقة ، ومُهِّد لهما ونُفِّذا خلال فترة طويلة من الزمن . وجاءت هذه الحركة ، مثل معظم الحركات الثورية ، نتيجة لائتلاف مصالح مختلفة جمعت بينها رغبة مشتركة في إسقاط النظام القائم . غير انه كان مقضياً على هذه الحركة بالتفكك والانقسام الى جماعات متضاربة

حالما يتحقق النصر. فكانت اولى مهام العباسيين المنتصرين هي سحق جناح الحركة المتطرف الذي اوصلهم الى السلطان. فقتل العباسيون أبا مسلم الخراساني، أكبر بناة الثورة مع عـــدد من زملائه، واخمدوا فتنة اثارها اتباعهم.

لكن ماذا كانت طبيعة الثورة؟ ومن كان اولئك الثوار؟ وما الذي كانوا يسعون الى كسبه؟ فقد ضللت نظرياتُ جوبينو وغيره العنصريةُ المستشرقين الاوروبيين في القرن التاسع عشر، ففسروا الصراع بين الامويين والعباسيين والانشقاق الديني كله في اوائل التاريخ الاسلامي على انه صراع عنصري بين سامي الجزيرة وآريي إيران. واعتبروا فوز العباسيين نصراً للفرس على العرب مكنهم من تأسيس امبراطورية فارسية جديدة، متشحـة بقناع فارسي – اسلامي، مـكان الدولة العربية الدائلة. وفي المصادر العربية ما يؤيد وجهة النظر هذه.. فيقول الجاحظ احـد كتاب القرن التاسع: «دولة بني العباس أعجمية خراسانية، ودولة بني مروان اموية عربية». بَيْد أن البحث الحديث اظهر لنا انه على الرغم من ان للعداء العنصري اثراً في الثورة التي ادت الى سقوط الامويين، الا انه لم يكن العامل الرئيسي المحرك لها، وأنه على الرغم من وجود عدد كبير من الفرس بين المنتصرين، الا أنهم لم يحرزوا النصر بصفتهم "فرساً"، كما انهم لم يهزموا اعـداءهم بصفتهم عرباً. وضمت جيوش الثورة عرباً كثيرين، وخاصة من قبائل الجنوب التي لم تكن بعد ثابتة القدم في أرستقراطية الفاتحين. ولم يكن الموالي، وكانوا عِمادَ الحركة الرئيسي، كلهم من الفرس بأية

حال ، بـل كان بينهم عراقيون وسوريون ومصريون ، وحتى عرب ممن لم يتمتعوا بكل ما يتمتع به أعضاء الارستقراطية القبلية . وكان ملاكو الفرس الدهاقين قد كيفوا انفسهم ، كما فعلت طبقات الموظفين البيزنطيين السابقين في الولايات الغربية ، طبقـــاً للحكم الاموي ، وقاموا بدور هام في تنفيذه . فهم الذين كانوا يقدرون مجموع الضرائب التي فرضها العرب على كل ولاية ، ويجمعونهـا . وبهذه الطريقة كانوا ولا شك، يستثنون أنفسهم من دفع ما عليهم.

يجب علينا ان نبحث عن القوة المحركة للثورة في التـــذمر الاجتماعي والاقتصادي بين سكان المدن ممن لم يتمتعوا بامتيازات الأرستقراطية ، وخاصة التجار والصناع من الموالي ، الذين اصابوا نجاحاً في العواصم التي أنشأها العرب . وقد اصبحت الارستقراطية العربية بسبب من توقف حروب الفتح – تلك الحروب التي كانت تمثل نشاطها الوحيد المنتج – ضئيلة الاثر من الناحية التاريخيـة ، الأمر الذي مهد الطريق لتأسيس طبقة اجتماعية جديدة تعتمد على الاقتصاد السلمي في ميداني التجارة والصناعة ، وطبقة حاكمة أممية من المواطنين والتجار والصيارفة والملاكين والعلماء ، أي طبقـة علماء الدين ، والفقهاء والمعلمين وكبار الموظفين الذين كانوا أقرب ما في الاسلام الى الكهانة. . وسهّل قيام هذه الطبقة ضعفُ العرب السياسي وخلافاتهم الداخلية ، وتخلي كثيرين منهم عن الحركـة الثورية .

وتبدو طبيعة الثورة بأوضح شكل في التغييرات التي اعقبت النصر . وكان اولَ هذه التغييرات واوضحها نقلُ مركز الثقل من

سورية الى العراق ، المركز التقليدي للامبراطوريات العالمية العظيمة في الشرق الاوسط والادنى . وأقام السفاح (٧٥٠ - ٧٥٤ م) ، اول خليفة عباسي ، في مدينة صغيرة تدعى الهاشمية ، بناها على ضفة الفرات الشرقية قرب الكوفة لايواء اهل بيته وحرسه . ثم نقل العاصمة الى الانبار . وكان المنصور ، وهو الخليفة العباسي الثاني (٧٥٤ — ٧٧٥) وموطد الحكم الجديد من نواح كثيرة ، مؤسس العاصمة العباسية الدائمة في مدينة جديدة على ضفة الفرات الغربية ، قرب خرائب المدائن ، عاصمة آل ساسان القديمة . واسم هذه المدينة الجديدة الرسمي هو « دار السلام » . الا انها تعرف في الغالب باسم القرية الفارسية التي كانت تقوم في الموقع ذاته ، وهو بغداد . واختار المنصور هذا الموقع لبناء عاصمته لأسباب عملية معقولة : بنى المدينة قرب قناة صالحة للملاحة بين دجلة والفرات ، وفي مكان متوسط بين طرق متقاطعة تتفرع الى جميع الجهات ، كما انها في الوقت ذاته تقوم على طريق الهند . . ويخبرنا الجغرافي اليعقوبي ، عندما يتكلم على تأسيس المدينة ، ان المنصور توقف عند بغداد خلال احدى رحلاته وقال

« مشرعة للدنيا ، كل ما يأتي في دجلة من واسط والبصرة والأبلة والأهواز وفارس وعمان واليمامة والبحرين وما يتصل بذلك فإليها ترقى وبها ترسي ، وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة وآذربيجان وارمينية مما يحمل في السفن في دجلة ، وما يأتي من ديار مصر والرقة والشام والثغر ومصر والمغرب مما يحمل في السفن في الفرات

فيها يحط وينزل ، ومدرجة اهل الجبل وكور خراسان. فالحمد لله الذي ذخرها لي ، واغفل عنها كل من تقدمني ، والله لابنينها ثم اسكنها ايام حياتي ، ويسكنها ولدي من بعدي، ثم لتكونن اعمر مدينة في الارض . »

وكان وسط بغداد عبارة عن مدينة مستديرة يبلغ طول قطرها حوالى ميلين ، وتؤلف قلعة يقوم فيها مقر الخليفة واحياء الموظفين والحرس الخراساني الذين جلبهم الخليفة معه من الشرق. وسرعان ما قامت وراء هذه المدينة المدورة قصبة تجارية عظيمة .

وكانت نتائج نقل العاصمة كبيرة : فقد تحول مركز الثقل من ولاية سورية الواقعة على البحر الابيض المتوسط الى بلاد ما بين النهرين ، وهي عبارة عن واد خصب ترويه مياه النهرين ، وواقع عند تقاطع طرق تجارية كثيرة . كما ان هذا التحول يرمز الى التغيير الذي اصاب الدولة : فبعد ان كانت دولة وراثية على النهج البيزنطي، اصبحت امبراطورية من امبراطوريات الشرق الاوسط على الطراز التقليدي ، واخذت تلعب فيها المؤثرات الشرقية القديمة ، وابرزها الفارسية ، دوراً يقوى مع الزمن .

وقد ادى تغير الاسرة الحاكمة الى اتمام تنظيم الدولة الذي بدأ في زمن الامويين . فبعد ان كان الخليفة مجرد شيخ قبيلة يستمد سلطانه من رضى الطبقة العربية الحاكمة الممنوح عن غير طيب خاطر، اصبح حاكماً اوتوقراطياً يدعي ان سلطانه مقدس، ويدعم هذا السلطان بجيش نظامي مسلح ، ويتخذ هيئة طبقية من الموظفين لتنفيذه . ويتمثل ازدياد اهمية القوة، كعنصر من عناصر السلطان،

في المكانة الهامة التي يتمتع بها الجلاد في البلاط العباسي والجلاد معروف عند قراء الف ليلة وليلة . واصبحت وسيلة التقدم في النظام الجديد هي رضى السلطان لا النسب ، وحلت جماعات الموظفين محل الارستقراطية العربية . وتمثلت هيبة الخليفة في ألقابه الجديدة . ولم يعد خليفةً لرسول الله ، بل اصبح خليفة الله، وادعى انه يستمد سلطانه منه مباشرة . وتظهر هذه الفكرة في اللقب الطنان الذي اتخذه الخليفة وهو «ظل الله على الارض». وبينما كان الخلفاء الأولون عرباً كغيرهم وفي استطاعة من شاء ان يتصل بهم وان يخاطبهم بأسمائهم المجردة ، أحاط الخلفاء العباسيون انفسهم بالأبهة والمراسم التي كانت تلازم اي بلاط طبقي . واصبح الاتصال بهم لا يتم الا عن طريق عدد من الحجاب . وكان الخليفة لا يزال من الناحية النظرية ، خاضعاً لأحكام الشريعة وهي قانون الاسلام المقدس إلا ان هذا الحد من سلطانه لم يكن ذا أثر من الناحية العملية ، وذلك لعدم وجود وسيلة أخرى لفرضه غير الثورة . وهكذا أصبحت الخلافة العباسية حكماً مطلقاً يستند الى القوة العسكرية ويدعي لنفسه حقاً إلهياً مقدساً. وكانت الخلافة العباسية أقوى من الاموية من حيث ان العباسيين لم يعتمدوا على مناصرة العرب لهم ، الامر الذي جعلهم يفرضون حكمهم دون اللجوء في الغالب الى الحجة والاقناع . وكانوا من ناحية اخرى ، أضعف من الحكومات الشرقية المطلقة من حيث انهم لم يعتمدوا على مناصرة طبقة إقطاعية راسخة وطغمة كهنوتية عريقة .

وكانت الادارة عند العباسيين تطوراً للادارة عند الامويين المتأخرين ، واعترف المنصور بدينه الكبير للخليفة الاموي هشام ابن عبد الملك في تنظيم الدولة . الا ان تأثير النظام الفارسي المعمول به ايام الساسانيين أخذ يزداد قوة ، وكثير من شعائر العباسيين تقليد معتمد للعادات الساسانية التي اصبحت معروفة في هذا الزمن عن طريق الموظفين الفرس ومما تبقى من الادب الفارسي . ولم يعد النظام الاداري العباسي قائماً على التفريق بين العناصر ، أو على أساس طائفي ، بل أصبحت طبقة الموظفين الواسعة تضم عدداً من الموالي أكبر بكثير مما كان عليه الحال قبلا . وأصبح لهذه الطبقة مكانة اجتماعية عالية . وأدخل أفراد هذه الطبقة في عدد من الدواوين أو الوزارات بما فيها ديوان العدل ، والجيش والخاتم ، وبيت المال ، والبريد . وكان جيش الموظفين المستخدم في هذه الدواوين يخضع لاشراف الوزير . وقد أوجد العباسيون وظيفة الوزير ، وربما كانت من أصل فارسي .

وكان الوزير يرأس الجهاز الاداري كله . ولما كان هو الاداة التنفيذية الاولى بعد الخليفة فقد جمع في يده سلطة كبيرة . وكان احد الوزراء الاوائل من أهالي آسيا الوسطى ممن دخلوا حديثاً في الاسلام ، ويدعى خالد البرمكي . ثم شغل الوظيفة نفسها عدد من رجال اسرة برمك الى ان قضى عليهم هرون الرشيد سنة ٨٠٣ م .

وكان يتعاون على اقامة السلطة في الولايات الامير أو الوالي ،

والعامل أو المراقب المالي ، والى جانبهما موظفوهما وجندهما . ومارس هذان نوعاً من الحكم الذاتي خاضعاً لمراقبة صاحب البريد الذي كان من واجبه ان يبعث بتقارير عما يحدث الى ديوان البريد والاخبار مباشرة .

وفقدت طبقة المحاربين في الجيش ما كان لها من الاهمية ، وانقطع عن افرادها العطاء شيئاً فشيئاً ، ولكنه ظل يدفع للجنود النظاميين . وأصبح الجيش يتألف من فرق تدفع لافرادها الرواتب ، وبعض هذه الفرق كانت تظل تحت السلاح ، وبعضها كان يتألف من متطوعين يشتركون في حملة واحدة . وكانت نواة الجيش تتألف من الحرس الخراساني المخلص ، دعامة الدولة الجديدة . واستخدمت ، خلال فترة من الزمن ، فرق عربية انتخب افرادها من بين المخلصين للدولة ، وعرفت باسم « عرب الدولة » . لكنها سرعان ما فقدت اهميتها ، وصار اكثر رجال الجيش عبيداً يدربون خصيصاً للجيش ، ويعرفون باسم « المماليك » . واكثر هؤلاء العبيد من اصل تركي ، من آسيا الوسطى .

ولما كان العباسيون قد وصلوا الى السلطان على رأس حركة دينية ، فقد سعوا الى الاحتفاظ بمناصرة الشعب لهم ، وذلك بالتأكيد على مظهر سلطانهم الديني . ونلاحظ ان الخلفاء العباسيين الاوائل كانوا على الدوام يقربون اليهم زعماء الدين والفقهاء ، وانهم كانوا يحرصون كثيراً ، بين الشعب على الاقل ، على مراعاة آداب الدين وشعائره . ويقول في هذا ابن الطقطقى « ان هذه الدولة ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك . فكان اخيار الناس

وصلحاؤهم يطيعونها تديناً والآخرون يطيعونها رهبة او رغبة »
وكان من شأن التنظيم الديني أن ملأ الثغرة التي تركها تفكك الوحدة العربية العنصرية ، وان اصبح هو الرابط بين عناصر السكان المختلفة من بشرية واجتماعية . ونتج عن اهتمام العباسيين المتعاظم بأمر طابع مجتمعهم وسلطانهم الديني ان اتهموا كثيراً بالنفاق ، كما دفع احد الشعراء الى ان يقول :

« يا ليت جور بني مروان عاد لنـــا
يا ليت عـدل بني العباس في النار »

ونرى في حيـــاة الامبراطورية العباسية الاقتصادية طبيعة التغييرات التي احدثتها الثورة في اوضح صورها . فقـد كان تحت تصرف الامبراطورية موارد غنية . وكان القمح والشعير والارز بحسب ترتيبها هي الحاصلات الرئيسية لأودية الانهار العظيمة ، بينما كان التمر والزيتون يؤلفـــان اهم الاطعمة الثانوية . وتوفرت المعادن ايضاً لدى الدولة . فكانت الفضة ترد من الولايات الشرقية وخاصة من هندوكوش حيث استخدم عشرة آلاف من عمـال المناجم ، كما يقول واحد من مؤرخي القرن العاشر ، من قبـــل اصحاب رؤوس الاموال . وكان الذهب يرد من الغرب ، وخاصة من النوبة والسودان ، والنحاس من منطقة اصفهان حيث كانت مناجم النحاس تدفع في القرن التاسع ضريبة تبلغ خمسـة آلاف درهم ، والحديد من فارس وآسيا الوسطى وصقليـــة . وكانت الاحجار الكريمة موجودة في نواحٍ كثيرة من الامبراطورية . وكانت اللآلىء تجلب من مغاصات اللؤلؤ الغنية في الخليج الفارسي .

اما الخشب فكان قليلاً ، إلا انه كان متوفراً ، الى درجة ما ، في الشرق . وعن طريق حركة الاستيراد الواسعة كانت المؤن تجلب من الهند وما وراءها .

وقام العباسيون بأعمال الري على نطـــاق واسع ، فوسعوا مساحة المنطقة المفلوحة ، وعملوا على تجفيف المستنقعات . ويذكر المؤرخون انهم نجحوا في هذا المضمار . وزادت الثورة من حقوق الفلاحين الملكية ،واوجدت نظاماً لفرض الضرائب أكثرمساواة، فأصبح الفلاحون يدفعون نسبة مئوية من المحصول ، بعد ان كانوا يدفعون مقداراً ثابتاً منه. ومع هذا فقد ظلت حالة الفلاحين سيئة ، بل زادت سوءاً مع الزمن ، وذلك بسبب استغلال التجار والملاكين لهم ، وبسبب تسخير العبيد في المزارع الكبيرة ، مما ادى الى تدهور احوال العمال الاقتصادية والاجتماعية .

وتَقْسِمُ موسوعة اسلامية من العصر الوسيط الصناعة والمهن الى مجموعتين : أولاهما رئيسية وهي التي تدخر للناس حاجاتهم الاساسية ، وثانيهما ثانوية او كمالية . وتنقسم الاولى الى الطعام والمسكن والملبس . وكانت صناعة الملابس ارقى صناعات الامبراطورية الاسلامية ، وصناعة النسيج أهم الصناعـــات ، اذا اخذنا بعين الاعتبار عددَ المستخدمين في هذه الصناعة وكمية الانتاج . وقد بدأت هذه الصناعة زمن الامويين واتسع نطاقها زمن العباسيين . فصارت تصنع جميع انواع البضائع للاستهلاك المحلي وللتصدير – مثل القطع الصغيرة ، والملابس ، والسجاجيد ، والاقمشة المطرزة ، والمفروشات والوسائد الخ .. وكان الكتان

يصنع اكثره في مصر ، حيث قام الاقباط بدور هام في صناعته ، وذلك في المراكز الرئيسية الثلاثة ، وهي دمياط ، وتنّيس ، والاسكندرية . وكان القطن في الاصل يستورد من الهند الا انه اصبح ، في زمن وجيز ، يزرع في شرق فارس ، وانتشرت زراعته غرباً حتى الاندلس . وتركزت صناعة الحرير ، التي اقتبست من الامبراطوريتين البيزنطية والساسانية ، في الولايتين الفارسيتين جرجان وسيستان . أما صناعة السجاد فكانت في كل مكان تقريباً ، إلا ان صناعة طبرستان وارمينية كانت تعتبر افضلها . وكان تنظيم الصناعة يخضع بعضه لاشراف الدولة ، والبعض الآخر يقوم به الافراد . وكانت الحكومة منذ اواخر زمن الامويين قد أقامت مصانع ومراكز صناعية لانتاج « الطراز » وهو القماش الذي كان يستعمل لصنع ألبسة الحكام والحلل الرسمية التي كانت تخلع على كبار الموظفين وقادة الجيوش وكان نظام الانتاج العادي داخلياً ، فكان في استطاعة الصناع ان يبيعوا إنتاجهم إما لوكلاء الدولة أو لأحد المتعهدين الذين كانوا يمولونهم . وفي بعض الحالات ، كان الصناع يعملون لقاء راتب معين ، وكان الواحد منهم ، على ما بلغنا ، يتقاضى في مصر في القرن التاسع أجراً قدره نصف درهم في اليوم .

وتقول الروايات ان الورق صنع لأول مرة في الصين سنة ١٠٥ ق . م . وفي سنة ٧٥١ ب . م . انتصر العرب على بعض الفرق العسكرية التابعة للجيش الصيني شرقي نهر سيحون فكان بين من أسروا عدد من صناع الورق الصينيين ، فأدخلوا صناعة

الورق الى العـــالم الاسلامي . وفي زمن هرون الرشيد أدخلت صناعته الى العراق . ومع ان استعمال الورق انتشر بسرعـة في انحاء العالم الاسلامي ، ووصل مصر في ٨٠٠ م ، والاندلس في سنة ٩٠٠ م ، فقد انحصرت صناعته في البداية في الولايات الشرقية التي استخدمت الورق قبل غيرها من انحاء الامبراطورية . ومنذ القرن العاشر وما بعده نجد شواهد واضحة على قيام صناعة الورق في العراق وسورية ومصر ، وحتى في شبه جزيرة العرب . وعقب ذلك قيام معامل لصنع الورق في شمال افريقية واسبانيا . وبين مراكز صناعة الورق المعروفـة سمرقند ، وبغداد ، وطرابلس من أعمال سورية ، وفاس في مراكش وبلنسية في الاندلس .

وقامت صناعات اخرى من بينها الفخار والمصنوعات المعدنية والصابون والروائح العطرية .

ويسّرت موارد الامبراطورية من تجارة المرور ذات الاهمية الحيوية بين أوروبا والشرق الاقصى ، اتساع نطـــاق التجارة وتقدمها . وساعد على هذا أيضاً توطيد النظام الداخلي واستتباب الامن وانشاء علاقات سلميـة مع البلاد المجاورة بدلاً من حروب الفتح الدائمة التي قام بها الامويون .

كانت تجـــارة الامبراطورية واسعة النطاق . فكان التجار المسلمون يسافرون من موانىء الخليج الفارسي وهي سيراف والبصرة والابلة ، ومن عدن وموانىء البحر الاحمر ، احياناً ، الى الهند وسيلان وجزر الهند الشرقيـة والصين فيجلبون الحرير والاطياب والعطور والاخشاب والقصدير وغيرهـــا ، وذلك

للاستهلاك الداخلي وللتصدير. وكانت هناك طرق اخرى يسلكها التجار الى الهند والصين تسير براً عبر آسيا الوسطى . ويأتي احد المصادر على ذكر البضائع التي كانت تجلب من الصين : مثل الحرير والبضائع المصنوعة منه ،والآنية والورق والحبر والطواويس والخيول ، والاسرجة ، واللباد، والقرفة ، والداوند ،والادوات الذهبية والفضية ، والنقود الذهبية والعقاقير ، والانسجة المشجرة، والاماء، والحلى ،والاقفال، ومهندسي الماء والزراعة، والحجارين، والخصْيان . وكانوا يجلبون من الهند النمور والفهود والفيلة ، وجلود النمور ، والياقوت ، وخشب الصندل الابيض ، وخشب الأبنوس ، وجوز الهند . ويتضح لنا من قراءة كشوف المسلمين البحرية التي وصلت الينا ان الملاحين المسلمين كانوا قد عرفوا البحار الشرقية معرفة تامة ، وقد استقر بعض التجار من العرب في الصين منذ القرن الثامن للميلاد .

ووجد في اسكنديناڤيا ، وفي السويد خاصة، عشرات الآلاف من النقود الاسلامية تحمل نقوشاً يرجع تاريخها إلى زمن بين اواخر القرن السابع واوائل القرن الحادي عشر . وهي تعين لنا فترة ازدهار التجارة الاسلامية . وما وجد من قطع النقد على طول مجرى الفولغا (إتل) يؤيد ما في المصادر الأدبية من شواهد على قيام تجارة واسعة بين الامبراطورية الاسلامية وبلاد البلطيق عبر بحر الخزر والبحر الاسود والروسيا . واهم ما كان العرب يأخذونه من هذه البلاد هو الفراء والعنبر . ويورد لنا الجغرافي العربي ، المقدسي ، قائمة شاملة لما كان العرب يجلبونه من هذه

البلاد ، يذكر فيها : « السمور والسنجاب وقاقون وفنك ودله والثعالب وخزبوست وخركوش ملون وبربوست والشمع والنشاب والتوز والقلانس وغرا السمك واسنان السمك ،وخزميان وكهروا والكيمخت والعسل والبندق وابوز والسيوف والدروع والخلنج والرقيق ... والاغنام والبقر » . [1]

ولا يحتمل ان يكون العرب قد وصلوا الى اسكنديناڤيا ، والارجح انهم كانوا يلتقون مع اهل الشمال في الروسيا حيث كان الخزر والبلغار القاطنون على الفولغا يقومون بدور الوسطاء . وتبدو لنا اهمية التجارة العربية مع الشمال بصورة اوضح في الحقيقة التالية : وهي ان اقدم النقود السويدية المعروفة اساسها الدرهم ، وان كلمات عربية كثيرة موجودة في الادب الايسلندي القديم .

وقامت ايضاً بين العرب واهل افريقية تجارة برية واسعة ، واهم السلع التي كان الأولون يجلبونها من إفريقية هي الذهب والعبيد. وتوقفت التجارة في بادىء الامر مع غرب اوروبا بسبب الفتوح الاسلامية ، لكنها استؤنفت على يد اليهود الذين كانوا حلقة الوصل بين العالمين المتعاديين . ويقول ابن خرداذبة ، احد جغرافيي القرن التاسع ، عن تجار اليهود من جنوب فرنسا: « الذين يتكلمون العربية والفارسية واليونانية والفرنكية والاندلسية والصقلبية وانهم يسافرون من المشرق الى المغرب ، ومن المغرب الى المشرق براً وبحراً ، يجلبون من المغرب الخدم والجواري

---

(١) انظر المقدسي « احسن التقاسيم » تحرير دي غويه (ليدن، ١٩٠٦) ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ .

والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ، ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ، ويحملون تجارتهم على الظهر الى القلزم ، وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً ، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم الى الجار وجدة ، ثم يمضون الى السند والهند والصين ، فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صيني ، وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا الى القلزم . ثم يحملونه الى الفرما ، ثم يركبون في البحر الغربي ، فربما عدلوا بتجارتهم الى القسطنطينية فباعوها من الروم ، وربما صاروا بها الى ملك فرنجة فيبيعونها هناك .

« وان شاؤوا حملوا تجاراتهم من فرنجة في البحر الغربي ، فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الارض ثلاث مراحل الى الجابية ، ثم يركبون في الفرات الى بغداد ، ثم يركبون في دجلة الى الأبلة ، ومن الأبلة الى عمان والسند والهند والصين ... »

واذا كانت الدولة قد اولت الصناعة بعض العناية والتشجيع لأغراض مالية بوجه خاص ، فانها لم تساعد التجارة . وحتى فيما يختص ببعض الامور مثل المحافظة على الطرق لم تعمل الدولة الا القليل لتنمية التجارة . وعلى هذا كان التجار يضطرون الى الدخول في نزاع دائم مع طبقات الموظفين التي كانت تعتدي على حقوقهم . وكان عمل الدولة في الميدان الاقتصادي مقصوراً في باديء الامر على اصدار قانون يقضي بحظر المضاربات التجارية في اقوات الشعب الضرورية ، الا ان هذا القانون لم ينفذ تنفيذاً فعالاً ، وعهد بتنفيذه الى المحتسب ، وهو احد موظفي المدن ، ووظيفته الاشراف على

الاسواق والتأكد من وجود انواع جيدة من المواد والصناعات ومن استعمال الاوزان الصحيحة . وبدأت الدولة في تاريخ متأخر تتدخل بصورة مباشرة اكثر في التجارة ، وحتى لقد شرعت تتجر ببعض المواد وتحتكرها لنفسها .

وادى نمو التجارة واتساع نطاقها الى ظهور المصارف وتطورها في القرن التاسع . وفي البدء لم تكن النقود الفضية والذهبية مستخدمة في الامبراطورية الاسلامية في المعاملات الاقتصادية ، فكان الدرهم الفضي الفارسي متداولاً في الولايات الشرقية ، والدينار البيزنطي الذهبي متداولاً في الغرب . وابقى الخلفاء على هذه العملة ، ولكنهم حددوا وزن الدرهم ، فجعلوه ٢٫٩٧ من الغرام ، ووزن الدينار فجعلوه ٤٫٢٥ من الغرام . وعلى الرغم من المحاولات الكثيرة التي بذلت لتثبيت النسبة بين قيمة كل من النوعين ، فانه كان لا بد من تغيرها عند تغير قيمة المعدن في كل منهما . واصبح الصراف جزءاً أساسياً من كل سوق اسلامي . وتحول الصراف في القرن العاشر الى صيرفي واسع الاعمال . وكان يسنده — دون شك — اغنياء التجار الذين كانوا يستثمرون اموالهم . ونقرأ في المصادر عن مصارف كانت بغداد مركزها الرئيسي ، ولها فروع في غيرها من مدن الامبراطورية ، كما نقرأ عن نظام راقٍ للصكوك (مفردها صك ومنها الكلمة الاجنبية) والحوالات المالية امكن معه كتابة حوالة مالية في بغداد وقبض قيمتها في مراكش . ونقرأ كذلك ان كل تاجر في البصرة ، وكانت المركز الرئيسي للتجارة الشرقية المزدهرة ، كان له حساب في احد المصارف ،

وان طريقة الدفع كانت بتحرير حوالة مالية لا بالنقد . ووجدت في القرن العاشر مصارف حكومية تحمل اسم « صيارفة الحضرة » وهم الذين كانوا يقدمون للحكومة ما تحتاجه الادارة من مبالغ طائلة مقابل رهن الضرائب غير المحصلة . واذ كان تقاضي الفائدة المالية محرماً على المسلمين فقد كان معظم الصيارفة من اليهود والمسيحيين .

وانعكست الحياة التجارية المزدهرة لذلك العصر على تفكيره وأدبه : فاعتبر التاجر المستقيم مثلاً اعلى للنموذج الخلقي . ويروى عن النبي أقوال مثل : « التاجر الامين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة » و « التاجر الصدوق تحت ظل العرش يوم القيامة » . ويُشك كثيراً في ما ينسب الى الخليفة عمر ومؤداه أَنه لا مكان يسره أن يفاجئه الموت فيه افضل من السوق بينما هو يبيع ويشتري لأسرته . ويشير الجاحظ في مقال له عنوانه « في مدح التجار وذم عمل السلطان » الى ان رضا الله عن اتخاذ التجارة وسيلة للحياة يؤيده وقوع اختياره على جماعة قريش التجار وجعله رسالته فيهم . ويشتمل ادب هذا العصر على صور للتاجر المستقيم المثالي وعلى نصائح جمة للذين يستثمرون اموالهم في التجارة ، وبين هذه النصائح قواعد،إحداها تقول بأنه على التاجر الا يضع رأس ماله في أشياء طلب الناس لها محدود ، مثل الجواهر التي لا يطلبها الا اهل اليسار ، ومثل الكتب العلمية التي لا يطلبها غير العلماء ، وهؤلاء قلة من الفقراء . ولا بد ان تكون هذه القاعدة بعينها قد صدرت عن كاتب ذي خبرة نظرية اكثر منها عملية ، وذلك لان الشواهد

بوجه عام على ان الذين كانوا يتعاملون بالسلع الكمالية الثمينة مثل الجواهر والبضائع القطنية الجميلة هم اوفر الناس حظاً من الغـــنى والاحترام .

ولقد احدثت هذه التغييرات الاقتصادية كلها تغييرات اجتماعية مشابهة ، وأوجدت قائمة جديدة بالعلاقات بـــين عناصر السكان البشرية والاجتماعية . فقد سقطت طبقة المحاربين العرب التي انقطع عن أفرادها ما كانوا يتلقونه من منح ماليـة من صندوق الدولة ، وحرموا من امتيازاتهم .

ونجد منذ الآن ان مؤرخي العـــرب لا يأتون على نزاعات العرب القبلية الا في النادر . وليس معنى هذا ان هـذه النزاعات أخمدت بالقوة ، اذ حتى في القرن التاسع عشر حـدثت نزاعات في سورية بين قيس وكلب ، بل يعني ان الارستقراطية العربيـــة فقدت القدرة على التدخل في الشئون العامة والتأثير فيها ، وان ما كان يحدث فيها من خصومات ونزاعات لم يعد له اهمية كبيرة. ومن الآن فصاعداً صار عرب القبائل يهجرون الامصار ، فعـاد بعضهم الى الحياة البدوية ، التي لم يحدث ان هجروها هجراً مطلقاً ، واستوطن الآخرون في الاراضي المنزرعة . وتغير طابع المدينة الاسلامية ، فبعد ان كانت احدى عواصم الغزاة الفاتحين اصبحت سوقاً تجارية ، وبدأ التجار والصناع في هذه المدن يؤلفون النقابات من اجل تبادل المعونة وللدفاع عن مصالحهم .

بيد ان العرب لم يفقدوا سيادتهم بالكلية . فكانت معظـم الوظائف العليا في البداية بيد العرب . وكانت الاسرة العباسية لا

تزال عربية تفخر بعروبتها ، وكانت اللغة العربية لا تزال لغة الحكومة والثقافة الوحيدة . وكانت سيادة العرب النظرية ما تزال معترفاً بها ، وقد ادت هذه السيادة الى ظهور حركة الشعوبية في الدوائر الادبية والفكرية التي كانت تعرض مطالب غير العرب في المساواة مع العرب . الا ان تغييراً هاماً أخذ يطرأ على مدلول كلمة « عربي » .. فمنذ الآن لم يعد العرب طبقة وراثية مقفلة بل أصبحوا شعباً مستعداً لقبول اي مسلم يتكلم العربية ، على نحو قريب من منح الجنسية واحداً منهم . واصبح تحرير الموالي الاجتماعي يتم بطريق قبول العرب التام لهم كعرب ، وحتى لقد استعرب حرس الخلفاء الخراساني استعراباً تاماً . وكان يساعد على حركة الاستعراب في الولايات الواقعة غربي فارس انتشار العرب المسرحين من الخدمة في الجيش ، وسيادة اللغة العربية في المدن وانتقالها منها الى ما حولها من المناطق الريفية . ويشهد على نمو هذه الحركة قيام أول ثورة عربية قبطية في مصر سنة ٨٣١ م . وحتى لقد أخذ المسيحيون واليهود في العراق وسورية ومصر وشمال افريقية اخيراً يتكلمون العربية . وأصبح اصطلاح « عربي » نفسه يقتصر ، حسب الاستعمال الدارج بين العرب ، على الرحل .

وحلت مكان الارستوقراطية العربية في الامبراطورية الجديدة طبقة حاكمة جديدة تضم الاثرياء والعلماء . وفي اغلب الاحيان كان الأولون يملكون ثروات طائلة من النقد والاملاك ، جمعوها في اثناء وجودهم في الوظائف الحكومية التي كانت تهيىء لصاحبها ،

بالاضافة الى ضخامة المرتب ، فرصاً واسعة للكسب الاضافي من التجارة ، واعمال المصارف والصفقات التجارية ، ومن استغلال الارض بامتلاكها او بفرض الضرائب عليها ، او بضمان هذه الضرائب . ومن الامثلة على هذا ما جاء في احد المصادر عن شاب كان ينتمي الى اسرة تشغل مركزاً رسمياً . استثمر هذا الشاب مبلغ اربعين الف دينار كان قد ورثها . فصرف ألفاً منها في اعادة بناء بيت متداع تركه له ابوه ، والفين في شراء الاثاث والملابس والأماء وغيرها من وسائل الترف ، وأعطى ألفين لتاجر موثوق به ليتاجر له بها ، وأخفى عشرة آلاف في الارض لوقت الحاجة ، واشترى بالعشرين ألفاً الباقية قطعة من الارض يعيش على دخلها .

ويتسع المجال هنا لذكر شيء عن مكانة اهل الذمة ، رعايا الامبراطورية من غير المسلمين .

بالغ بعض الكتاب، الذين جسّموا تسامح الحكومة الاسلامية غير المشكوك فيه، مع اهل الذمة، فذكروا أنها منحتهم المساواة التامة ، كما بالغوا في الاشادة بوضعهم . والحق ان هؤلاء كانوا مواطنين من الدرجة الثانية . فكانوا يدفعون قدراً من الضرائب أعلى مما يدفعه المسلم ، وكانوا محرومين من الامتيازات، وتعرضوا في حالات قليلة للاضطهاد . لكن وضعهم ، على العموم ، كان أفضل بكثير من وضع تلك الجماعات التي كانت على خلاف مع الكنيسة الغربية في غرب أوروبا في الفترة نفسها . فقد كانوا يمارسون عباداتهم بكل حرية ، وكانوا يتمتعون بحقوق الملكية العادية ، وكثيراً ما كانوا يستخدمون في وظائف الدولة ،

وكانوا في الغالب يشغلون أعلاها . وسُمح لهم بدخول نقـابات المهن ، وسيطروا على بعضها ، ولم يجدوا انفسهم مجـبرين على الاستشهاد ، كما انهم لم يتعرضوا للنفي ، في سبيل معتقداتهم

وأولى علائم اضمحلال هذه الحضارة القوية كانت في تداعي بناء وحدتها السياسية . وكانت الامبراطورية التي بناها المنصور حتى زمن هرون الرشيد (٧٧٦ – ٨٢٩) ، الذي يعين لنا من نواحٍ كثيرة الاوجَ الذي بلغه سلطان العباسيين ،تبدو وطيدة الاركان على الرغم من الهزات التي كانت تعتريها بسبب الثورات . وحرص العباسيون الاوائل على دوام التحالف بينهم وبين جناح الحركة الذي كان يتألف من ارستقراطيي فارس ،والذي أوصل العباسيين الى السلطان ، وبينهم وبين آل برمك من نبلاء الفرس الذين لعبوا دوراً أساسياً اثناء تقـلدهم منصب الوزارة . وفي زمن هرون الرشيد حدث اضطراب يكتنف اصوله والظروف التي احـاطت به الغموض ، وانتهى بسقوط البرامكة وضياع سلطانهم واموالهم ، والقضاء عليهم فيما اصبح يعرف في التاريخ بنكبة البرامكة . وبعد موت هرون الرشيد تحول الصراع المكتوم بين الامين والمأمون الى حرب اهلية سافرة. وبينما كانت قوة الامين الرئيسية في بغداد ، كانت قوة المأمون الرئيسية في فارس . وقـد فُسّرت الحرب الاهلية بينهما ، اعتماداً على بينة مشكوك فيها ، على انهـا صراع قومي بين العرب والفرس انتهى بانتصار الفرس . والارجح انهـا كانت استمراراً للنزاعات الاجتماعية السائدة في العهـد السابق لهـذه الفترة مباشرة ، ممزوجة بصراع اقليمي ، أكثر منـه

قومياً ، بين فارس والعراق. وقد فكر المأمون، الذي كان معظم انصاره في الولايات الشرقية، في نقل العاصمة من بغداد الى مرو في خراسان. وقد دفع هذا التهديد لمكانة بغداد الحيوية واسباب عيش اهلها ، سكانها الى الالتفاف حول الامين والاستماتة في الدفاع عنه ضد الغزاة .. ومع ان النصر كان حليف المأمون فقد اظهر حكمة في الابقاء على بغداد كعاصمة للدولة ، وكملتقى للطرق التجارية العظيمة .

ومن ثم وجدت المطامح الارستقراطية والاقليمية الفارسية متنفساً لها في قيام الاسر المحلية الحاكمة . ففي سنة ٨٢٠ م نجح احد قواد المأمون الفرس ، ويدعى طاهر ، في الاستقلال عن الدولة في شرقي فارس ، واسس حكومة جعلها وراثية في اسرته. وسرعان ما قامت أسر غيرها ، مثل الصفاريين حوالى ٨٦٧ م والسامانيين حوالي سنة ٨٩٢ م ، بتوطيد سلطانها في اجزاء اخرى من فارس . وكانت هذه الحكومات مختلفة في طوابعها . فالدولة الطاهرية قامت على اكتاف قائد طموح اتخذ الامارة لنفسه ، ولكنه ظل بوجه عام في نطاق الحضارة الاسلامية العربية . وبينما كان الصفاريون يمثلون فورة حركة فارسية شعبية ، عادت الارستقراطية الفارسية الى سلطانها السياسي ، وأصبحت تتمتع بامتيازاتها السابقة كاملة في ظل السامانيين .

اما في الغرب ، فقد بدأ التفكك السياسي قبل ذلك بزمن . فقد كان نقل العاصمة الى الشرق سبباً في اهمال الدولة شؤون الولايات الغربية . وادى هذا في النهاية الى ضياع سلطانها في هذه

الولايات. واستقلت إسبانيا في سنة ٧٥٦م، ومراكش في سنة ٧٨٨م وتونس في سنة ٨٠٠ م تحت حكم اسر محلية. وانفصلت مصر عن الدولة في سنة ٨٦٨ م ، وذلك عندما نجح احمد بن طولون ، وهو مملوك تركي أرسل من بغداد إلى مصر ، في الاستقلال عن الدولة . وفي توسيع ملكه عقب ذلك مباشرة وذلك باستيلائه على سورية . وتلا سقوط الطولونيين قيامُ اسرة حاكمة تركية اخرى في مصر . ونتج عن قيام حكومة مستقلة في مصر تخضع لها سورية معظم الوقت ، وجودُ منطقة محايدة بين سورية والعراق اتاحت للقبائل العربية في الشام وعلى تخومها ان تستعيد استقلالها الذي فقدته بعد سقوط الدولة الاموية . بل استطاعت هذه القبائل احيانا ان تستولي على المدن في فترات ضعف الدولة العسكري او تفككها وان تقيم اسراً حاكمة لامعة على الرغم من قصر مدة حكمها ، مثل اسرة الحمدانيين في الموصل وحلب في القرن العاشر . واصبح سلطان الخليفة المباشر يقتصر على العراق . وكان عليه ، فيما يختص بباقي انحاء الامبراطورية ان يكتفي بجزية تدفع له في المناسبات ، وان يقنع باعتراف الاسر الوراثية المحلية به اعترافاً اسمياً ، فيذكر اسمه في خطبة الجمعة وتضرب النقود باسمه .

وطوال احتفاظ بغداد بالسيطرة على طرق التجارة الحيوية التي تسير عبرها ، لم يقف التفكك السياسي عائقاً في طريق توسع الحياة الاقتصادية والثقافية ، بل يظهر في بعض الاحيان انه ساعد عليه . غير انه سرعان ما ظهرت تطورات اخرى اشد خطراً ، وتقلص سلطان الخليفة في بغداد نفسها. وادى ترف البلاط المفرط

وتضخم طبقة الموظفين الى حدوث اضطراب مالي ونقص في النقد. وزاد في حدة الازمة خلو المناجم من المعادن او وقوعها في ايدي الغزاة.

ووجد الخلفاء علاجاً للازمة في تضمين موارد الدولة، واصبح الحكام المحليون آخر الامر هم جامعي هذه الموارد. وكان عليهم ان يدفعوا للحكومة مبلغاً معيناً من المال، وان يصرفوا على جيوش ولاياتهم وموظفيها. فأصبح هؤلاء الموظفون، اي جامعو الضرائب، حكام الامبراطورية الحقيقيين، كما غدوا قواد الجيوش وفقد الخلفاء بالتدريج، منذ ايام المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢) والواثق (٨٤٢ - ٨٤٧) سيطرتهم على قادة الجيش والحرس. واصبح في مقدور هؤلاء، كما حدث كثيراً، ان يعينوا الخلفاء وان يعزلوهم. وكان هؤلاء القادة والحرس يتألفون الى حد كبير من المماليك والاتراك.

وفي سنة ٩٣٥ م استُحدثت وظيفة «أمير الامراء» او قائد القواد إشارة الى ان صاحبها أعلى مركزاً من باقي القواد في العاصمة. وأخيراً غزت الأسرة البويهية الفارسية سنة ٩٤٥ ميلادية التي كانت قد أسست لنفسها حكومة مستقلة في غرب ايران، العاصمة، وقضت على ما تبقى للخليفة من علامات الاستقلال. وأصبح الخلفاء، من الآن فصاعداً، باستثناء بعض الفترات، تحت رحمة سلسلة من حجاب القصر أكثرهم من الفرس او الاتراك، جمعوا في أيديهم أزمة الحكم، واستندوا في تنفيذه على ما تحت إمرتهم من جيوش مسلحة. وعلى الرغم من ان الخليفة احتفظ

بمكانته كحاكم أعلى للاسلام ، أي كرئيس للدين والدولة ، وبعبارة أصح بمزيج من الاثنين ، وانه احتفظ بجلال هذا المركز ، فانه كان قد فقد سلطانه الحقيقي . وليس تقليده السلطة للقواد والحكام سوى اعتراف رسمي شكلي بما جرت عليه العادة .

الفصل السادس

ثورة الاسلام

« وذات مرة نزلت الى أحد شوارع بغداد العامرة بالحركة حيث كانت الجماعات تهلل فرحة بالعمل الجديد . . »
(رامبو : الاضواء .)

كان من شأن التطور الاقتصادي السريع الذي حدث في الشرق الأدنى والاوسط خلال القرون التي عقبت قيام الخلفاء العباسيين أنْ تعرّض البناء الاجتماعي للامبراطورية لسلسلة من الازمات والضائقات الخطرة تولّد منها كثير من حركات التذمر والثورة السافرة ضد النظام القائم . وترجع هذه الحركات الى أصول أهمها الاقتصادية والاجتماعية، وكانت لبعضها صبغة قومية. وعلى الرغم من تباين أسبابها وظروفها فقد كانت تشترك في انها كلها تقريباً ظهرت متشحة بثوب ديني . فكان كلّما أوجد السخط او تضارب المصالح حزباً اسلامياً ، جعل هذا الحزب تعاليمه عقيدة ، وأداته طائفة ، ووكيله داعية ، وزعيمه (كما جرت العادة) إماماً هادياً او نائباً له . غير ان وصف هذه الحركات

الخارجة على الدين والمنبثقة من اسباب اجتماعية ، بأنها «أوشحة » ، او « أقنعة » كان مدبرو الخطط يخفون وراءها اغراضهم الحقيقية والمادية ليخدعوا الفئة المتدينة ، ليس الا ضرباً من تشويه التاريخ. فالحكومة الاسلامية التي ولدت من جماعة محمد في المدينة ، والتي غذتها ملكيات الشرق القديمة المقدسة ، كانت من الناحية النظرية، وفي تصور الناس لها ، حكومة دينية . وكان المصدر الاوحد للسلطان والقانون فيها هو الله ، كما أن حاكمها كان نائب الله على الارض . وكانت العقيدة هي الدستور الاساسي للنظام القائم ، كما كانت العبادات هي الرمز الخارجي المنظوُر لوحدتها وتماسكها . وكان العمل بموجب هذه العقيدة والعبادات ، مهما كان ظاهرياً ، برهاناً مانعاً على الاخلاص . وكان التدين عبارة عن قبول النظام القائم ، وكان المروق على الدين والالحاد هو التنديد بهذا النظام ورفضه .

في مجتمع قائم على هذا النحو ، ، يمتزج الدين بالدولة في بناء حكومته وفي عقول رجال الدين وإحساسهم بشكل يصعب معه التفريق بينهما ، كان لا بد للدين وللقضايا الدينية من ان تلعب الدور الذي تلعبه السياسة في عالمنا الحاضر . وكان لا بد لكل حركة ، مهما تكن دوافعها ، من ان تبحث في الدين لا عن قناع لها بل عن تعبير حيوي ضروري واصطلاحات اجتماعية للأماني والآمال التي دغدغتها ، والمظالم التي أذكت حقدها .

ولم تخلُ الحال من حوادث شاذة ـ فمن انقلابات في البلاط وفتن عسكرية في فترات الضعف السياسي

الى ثورات فلاحين ، وحوادث شغب في المدن في فترات الازمات الاقتصادية . إلا أن هذه الحركات لم تكن متتابعة ، بل كانت تقوم بين حين وحين ، وفي أغلب الاحيان لم تكن منظمة ، بل كانت بنت ساعتها ومكانها وظروفها المباشرة ، كما ان اهميتها كانت تقتصر في الغالب على القائمين بها . وكان كلما حاول فريق من الناس أن يقوموا بتحدٍّ منظم مستمر للنظام الاجتماعي القائم كان من الامور الطبيعية والحتمية أن يجدوا وسيلتهم في فرقة دينية، كما يجد أشباههم في العصر الحاضر وسيلتهم في حزب سياسي .

وكان على الخلفاء العباسيين ، منذ قيام دولتهم ، أن يواجهوا تهديدات من هذا النوع . ففي سنة ٧٥٢ م قامت في سورية ثورة يؤيد مُحدثوها مطالب الدولة الاموية الساقطة . وظلت سورية تدين للامويين بالولاء زمناً طويلاً. وسايرت هذه الحركة [الثورية] منحى التطور العام ، فأخذ الفريق الموالي للبيت الاموي يتحدث عن شخصية منقذ أموي سيعود يوماً الى العالم ليقيم فيه الحكم بالعدل . وسرعان ما اظهر الشيعة خيبة أملهم في الحكومة الجديدة التي كانوا قد أسهموا في قيامها . وقام داعية من نسل علي يعرف باسم « محمد ذو النفس الزكية » بتدبير مؤامرة [ضد العباسيين] وأعلن في القدس انه هو المهدي المنتظر . فلما فشلت محاولته في فلسطين أعادها في المدينة ، لكنه هُزم وقتل في سنة ٧٦٢ م .

وتفوق هذه الحركات كثيراً من الاهمية سلسلةٌ اخرى من الحركات قامت في فارس ، ترتبط اصولها بالطائفة التي ظهر منها

العباسيون انفسهم . فقد قام بالثورة العباسية اتحاد من العناصر المناوئة للامويين ، يضم المسلمين المنشقين عرباً وفرساً ، وكان الآخرون من الطبقتين الارستوقراطية والدنيا، إلا أن عرى هذا التحالف انفصمت عقب نجاح الثورة ، وعادت عناصره الى صراعها السابق الذي اشتد الآن بسبب خيبة الامل والفشل اللذين منيت بهما. وأعدم ابو مسلم الخراساني ، الذي اسهم اكثر من أي فرد آخر في انتصار العباسيين على يد المنصور، ثاني خلفائهم .وشاركه هذا المصير آخرون من زعماء هذه الطائفة . وواصل الخلفاء العباسيون اعتمادهم على مناصرة الفرس لهم ، وخاصة الخراسانيين ، لكن حلت محل ابي مسلم وأمثاله أسرة البرامكة الارستقراطية ، التي لعبت خلال حكم عدد من الخلفاء دوراً بارزاً في حياة العاصمة وكفلت للحكومة تأييد الدوائر الفارسية العريقة لها .

ووجد استياء الشعوب المغلوبة متنفساً له في سلسلة من الحركات قامت في انحاء مختلفة من فارس ؛ وكان معظم مناصريها من بين الفلاحين . وكانت هذه الحركات قومية من ناحيتين : الاولى ان الحكم الذي كانوا يقاومونه كان لا يزال عربياً في نظرهم ، والثانية هي ان الاصول الدينية لأفكارهم وتصوراتهم كانت ايرانية . الا ان تعاليمهم لم تكن زرادشتية . ذلك ان المتدينين من اتباع دين ايران الرسمي ، وهم افراد الطبقة الارستقراطية الحاكمة، كانوا قد اتحدوا موقتاً مع الحكومة الجديدة. ولم يقم امراء فارس ، بحركاتهم الاستقلالية، وذلك بانشاء إمارات مستقلة في الولايات الشرقية ، الا زمن المأمون . واستقى هؤلاء

الثوار اكثر الهامهم الديني من إلهرطقات الايرانية القديمة التي كانت تمثل قبل الاسلام ثورة الطبقات الدنيا والمتوسطة على دولة الساسانيين . وكان اهمهم مزدك ، الثائر الاشتراكي الذي استطاع ، أو كاد ، ان يقضي على الامبراطورية الساسانية في القرن الرابع . وعلى الرغم من ان كسرى انو شروان ، احد أباطرة آل ساسان ، سحق حركة مزدك ، بعد أن سفكت دماء كثيرة ، فان ذكرى هذه الحركة ظلت ماثلة في اذهان الفلاحين ، ولعبت تعاليمها دوراً حيوياً في تكوين حركات دينية اخرى قامت في اواخر العصر الاموي ، واستمرت خلال اوائل العصر العباسي . وبقي ابو مسلم وذكراه محطّ أنظار الثوار الفرس الذين ما فتئوا يثيرون قضيته ، ويدّعون أنهم ورثته والمطالبون بالأخذ بثأره من الخلفاء الذين غدروا به . وكانت هذه الحركات في بداية امرها ايرانية العقائد ، ثم أصبحت فيما بعد توفيقية ، واخذت تنشر تعاليم هي مزيج من المزدكية والافكار الشيعية المتطرفة . وظل الزرادشتيون المتدينون بعيدين عنها او شديدي العداء لها .

واول شخص يستحق الذكر هو البهاء فريد ، وكان في اول امره من أتباع زرادشت . وقد ظهر في نيسابور حوالى سنة ٧٤٩م وادعى النبوة . وفيما عدا انه قضى خمس سنين في الصين ، بقصد التجارة كما يظن ، فاننا لا نعرف الا القليل عن حياته الاولى . ولم تصدر المقاومة الرئيسية لحركته عن المسلمين الذين لم يكترثوا لها ، وانما عن أتباع زرادشت المتدينين وخاصة الكهنة الذين استنجدوا بالعباسيين لمقاومته ، والذين عملوا اكثر من غيرهم على هزيمته خلال

سنتين من الزمن .

واحدثت وفاة ابي مسلم تغييراً . فان اكثر اتباعه تطرفاً نظموا سلسلة من ثورات الفلاحين كانت في العادة تنادي بأنه لم يمت ، واغا اختفى ، وانه سيعود الى شعبه . ففي سنة ٧٥٥ م ثار سُنباذ ، وهو زميل سابق لأبي مسلم وربما كان مزدكياً . ويظهر انه جاء من قرية قرب نيسابور . وسرعان ما كسب لنفسه كثيراً من الانصار من بين فلاحي غرب فارس بينهم زرادشتيون ومسلمون مارقون من العقيدة . وانتشرت حركتهُ بسرعة ، واحتل اتباعه عدداً من المدن . وتقدر المصادر العربية عدد اتباعه بين تسعين ومئة ألف . لكنهم سرعان ما هُزموا حين هاجمهم جيش جرّده عليهم المنصور . وقامت بعد سنين ثورة مشابهة بقيادة أحد وكلاء أبي مسلم السابقين ويعرف باسم إسحق الترك ، لأنه كان قد أُرسل لنشر العقيدة بين أتراك أواسط آسيا . وقضي عليه هو ايضاً . وفي سنة ٧٦٧ م قاد أستاذ سيس ثورة في خراسان شكلت خطراً كبيراً على سلامة الامبراطورية .

وأخطر من هذه الحركات كلها حركة المقنع الذي يشكل بالمصادفة موضوع إحدى القصص في كتاب مور المسمى Lalla Rock . ولُقب بالمقنّع لأنه كان يضع حجاباً على وجهه ليحجب ، كما يقول أتباعه ، النور الذي يشع منه ، أو ليسترُ قبحه كما يقول أعداؤه . وكان المقنع من الفرس الهراطقة ومهنته غسل الملابس. وبدأ بنشر تعاليمه في مرو ، ثم انتشرت حركته بسرعة في طول خراسان وعرضها ، وفي أواسط آسيا حيث اتخذت من

بخاري معقلاً لها . وهنا أيضاً نرى بعض البيّنة على وجود ارتباط بينه وبين مزدك وأبي مسلم . ووجدت المصادرُ المتدينة سبيلاً الى اتهامه ، فاتهمته بنشر الاشتراكية في الملكية والنساء وتطبيقها . وعمّرت حركته اكثر من سابقاتها ، فاستطاعت البقاء منذ سنة ٧٧٦ الى سنة ٧٨٩ م .

وكانت اهم حركة ظهرت حتى هذا التاريخ هي حركة بابك (٨١٦ – ٨٣٧) . واشتهر أمر هذه الحركة في الحال بسبب انتشارها وصمودها وقيادتها وتماسكها . وكان بابك من الهراطقة وذا مواهب عسكرية وسياسية عظيمة . وكان معظم اتباعه من الفلاحين الذين استمالهم اليه بحثه وعمله على تقسيم الاقطاعات الكبيرة وتوزيع الارض . وتوجد بعض الشواهد على انه كسب ايضاً مناصرة بعض الدهاقين ، وهم الطبقة الفارسية الحاكمة . وكان هؤلاء قد انحطت منزلتهم عندئذ واصبحت لا تفوق منزلة الفلاحين العاديين الا قليلاً . وكان مركز الحركة في آذربيجان التي يشير اليها الجغرافي ياقوت إشارة لا تخلو من قسوة ، فيقول إنها كانت على الدوام « بلاد فتنة وحروب » [١] ومن آذربيجان تسربت هذه الحركة الى جنوب غربي فارس حيث انضمت اليها عناصر كردية وفارسية ، وإلى ولايات بحر قزوين في الشمال ، والى أرمينية في الغرب . ويظهر أن بابك عقد في إحدى مراحل حركته تحالفاً مع الامبراطور البيزنطي ضد عدوهما المشترك . وقد جعله وجوده على جانبي الطرق التجارية الشمالية عدواً بالغ الخطر .

(١) انظر ياقوت : معجم البلدان مادة اذربيجان .

وتمكن طوال سبع سنوات من مقاومة الدولة بقوة السلاح، وهزم خلالها أربعة من قواد المأمون . إلا أن التحسن العام الذي طرأ على أمن الامبراطورية زمن المعتصم مكّن الاخير من القيام بعمل عسكري حاسم ضد بابك، فحصر أتباع حركته في آذربيجان وقضى عليهم آخر الأمر .

وكانت ثورة العبيد من الزنوج ، الذين يعرفون باسم الزّنج ، بين سنتي ٨٦٩ و ٨٨٣ م ذاتَ طابع مختلف كل الاختلاف . فقد كان الاسلام مجتمعاً يبيح الرق، ولا يزال كذلك في بعض الانحاء. إلا أن العبيد لم يكونوا ، كما كانت الحال في الامبراطورية الرومانية، عمادَ الانتاج الرئيسي. فقد اعتمد الانتاج في الامبراطورية الاسلامية في الغالب على عمل الفلاحين الاحرار وأنصاف الاحرار وعلى الصناع . وكان العبيد يستخدمون بصفة رئيسية في الاعمال البيتية والعسكرية . ويعرف الذين كانوا يستخدمون في المصالح العسكرية بالمماليك . وقد شكل هؤلاء في واقع الامر طبقة عسكرية لها امتيازاتها ، وتمكنت فيما بعد من الهيمنة على شؤون الدولة . واستـُخدم العبيد لأغراض غير التي ذكرناها . فقد استـُخدموا للقيام بأعمال يدوية في عدد من المشاريع الواسعة كالمناجم والاساطيل وتجفيف المستنقعات ، وغيرها . فان نمو طبقة من الرأسماليين الكبار وملتزمي الاعمال ، تحت تصرف افرادها رؤوس اموال كبيرة ، ادى إلى شراء العبيد واستخدامهم بأعداد كبيرة في اعمال الزراعة . وكانوا يُحشرون في مساكنهم جماعات . وكان الملاك الواحد أو ملتزم الاعمال يمتلك في الغالب الآلاف

منهم . واكثرُ العبيد من هذا الصنف من الزنوج . وكانوا يُجلبون في الغالب من شرقي إفريقية ، إما بطريق الأسر والشراء ، او على شكل جزية تقدمها إحدى الحكومات الخاضعة للامبراطورية .

تلك حال الفلاحين الذين كانوا يستخدمون في سهول البصرة السبخة ، حيث كان أثرياء المدينة يستخدمون ، بشكل لم يسبق له مثيل ، أعداداً كبيرة من العبيد في تجفيف المستنقعات السبخة لجعل الارض صالحة للزراعة ، ولاستخلاص الاملاح لبيعها . وكانوا يعملون جماعات يتراوح عدد افراد الواحدة منها بين خمسمئة وخمسة آلاف عبد . وقد ورد ذكر جماعة تتألف من خمسة عشر الف عبد . وكانت احوالهم سيئة الى حد بعيد . فقد كان عملهم شاقاً ومضنياً ، وكان ما يتقاضونه لقاءَ عملهم لا يكفي لاعاشتهم ، ويتألف ، كما يذكر مصدر عربي ، من الدقيق والتمر والسويق . وكان كثير منهم من الافريقيين الذين لم يمض وقت طويل على قدومهم ، وكان بعضهم يعرف بضع كلمات عربية ، والباقون يجهلونها جهلاً تاماً . ويذكر احد المصادر أن زعيمهم كان يستخدم المترجمين للتفاهم معهم . وزعيمهم هذا فارسي يعرف باسم علي بن محمد ، ادعى بأنه من ذرية علي ، وقد يكون من اصل عربي . وبعد ان قام بعدد من المحاولات الفاشلة لاثارة الفتن في اماكن مختلفة ، بينها البصرة ، ذهب الى المنطقة السبخة في ايلول (سبتمبر) من سنة ٨٦٩م واخذ ينشر دعوته بين العبيد ، فأخذ يذكّرهم ، كما يذكر المؤرخ الطبري ، بما هم عليه من سوء الحال » وان الله استنقذهم به من ذلك ، وانه يريد ان يرفع اقدارهم ويملكهم العبيد

والاموال والمنازل » . وتكشف لنا الكلمات الاخيرة عن ضعف في هذه الحركة ؛ إذ لم يكن لها برنامج حقيقي للاصلاح ، كما انها لم تهدف بوجه عام الى الغـــاء الرق ، بل كانت ثورة قسم من العبيد لتحسين أوضاعهم . وحقق زعيمهم علي وعـده لهم عندما مكنته الانتصارات التي أحرزها من توزيع من اسرهم من المسلمين عبيداً بين اتباعه .

وحتى هذه الحركة شبه الهمجية تأثرت بالاتجاه السائد في المجتمع الاسلامي تأثراً جعلها تبحث عن ثوب ديني . وعلى الرغـم من ان صاحب الزنج ادعى أنه من نسل علي فانه لم ينضم الى الشيعة ، بل اتخـذ جانبَ الخوارج دعاةِ المساواة الفوضويين الذين اعلنوا فيما سبق ان افضل الرجال هو الاجدر بالخلافة حتى ولو كان عبـداً حبشياً . وطبقاً لتعاليم الخوارج اعتبروا سواهم من المسلمين كفاراً يجوز استرقاقهم أو قتلهم اذا وقعوا في الاسر .

وانتشرت الحركة بسرعة . وأخذت جماعات العبيد تنضم اليها واحدة بعد اخرى . ويرجح ان العبيد الفارين من المدن والقرى انضموا اليها فيما بعد . وانضمت اليها ايضاً جيوش الامبراطورية المؤلفة من المحاربين السود والتي أُرسلت لقتالهم ، فوفرت لهـــم العدة ورجال الحرب ، بينما جلب لهم الامل في الغنيمة اتباعاً من بين رجال القبائل البدوية الضاربة حولهم . ويظهر ان فلاحي هذه المنطقة الاحرار التفوا حول صاحب الزنج تضامناً معه ، على ما يظن ، ضد الملاكين وما لدينا من الشواهد لا يدل على ان الحركة كسبت اتباعاً كثيرين من بين العناصر المتذمرة الحرة من

سكان المدن ، على الرغم من ان المصادر تذكر أن اثنين من اعوان علي ،صاحب الزنج ، كان أحدهما طحاناً والآخر بائع عصير.

وسجل الزنج العسكري حافل بالانتصارات . فقد هزموا جيوش الامبراطورية واحداً بعد آخر ، فكثرت أعداد عبيدهم وغنائمهم وخاصة السلاح . وفي تشرين الاول (اكتوبر) من سنة ٨٦٩ م هاجم الزنج البصرة، لكنهم لم يتمكنوا من احتلالها . وقام اهل البصرة بهجوم معاكس عليهم ، فهُزم البصريون . وبعد ذلك بزمن وجيز بنى الزنج لأنفسهم عاصمة جديدة تعرف باسم «المختارة» وذلك في بقعة جافة من السهول السبخة . ولا توجد لدينا ، لسوء الحظ ، أخبار عن نظام حكومتهم . وفي ١٩ حزيران (يونيه) من سنة ٨٧٠ م احتل الزنج ميناء الأبلة التجاري المزدهر ، فتعاظمت قوتهم بانضمام العبيد المحررين اليهم . وتوسعوا بعد فترة قصيرة الى جنوب غربي فارس واحتلوا مدينة الاهواز .

وهددت هذه الحركة الامبراطورية الآن في الصميم اذ سيطر الزنج على بقاع واسعة في جنوب العراق وجنوب غربي فارس واحتلوا عدداً من المدن ، واشتد ضغطهم على البصرة ، وهي المدينة الثانية في الولايات الوسطى ، واعترضوا خطوط مواصلات العاصمة نفسها في الجهة الجنوبية الشرقية . وفي ايلول (سبتمبر) من سنة ٨٧١م احتلوا البصرة نفسها. ولكنهم اظهروا حكمة باخلائهم لها عقب احتلالها مباشرة. وكانوا في هذه الاثناء قد ألحقوا الهزيمة بعدد آخر من جيوش الامبراطورية واحتلوا في سنة ٨٧٨م مدينة واسط وهي احدى العواصم الحربية القديمة . وفي السنة التالية امتدت غزواتهم

الى منطقة تبعد سبعة عشر ميلاً عن بغداد . ويعين لنا هـذا أوج انتصاراتهم . وبدأ الموفق ، ولي العهد الحازم النشيط وأخو الخليفة يجهز الآن حملة كبرى باهظة التكاليف . ولم يحلّ شهر شبـــاط (فبراير) من عام ٨٨١ م حتى كان الموفق قـد جرّد الزنج من فتوحاتهم وحصرهم في المختارة عاصمتهم . ورفض قـــائدهم عرضاً مغرياً بالامان وبمعاش من الحكومة . وبعد حصار طويل سقطت المدينة على اثر هجوم شُن عليهـــا في ١١ آب (اغسطس) سنة ٨٨٣ م . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) من هذه السنة أُحضر رأس علي مرفوعاً على سارية الى بغداد .

ويظهر ان هذه الحركات ، التي تمثل ثورة الفلاحين في فارس ، وثورة العبيد في جنوب العراق ، لم تترك اثراً باقياً في سير التاريخ الاسلامي ، كما انها لم تحدث تغييراً اساسياً في بناء المجتمع الاسلامي . ولم تخلّف هذه الحركات سوى تيار خفي من التذمر والانشقاق كان يتجلى من وقت الى آخر في حركات عقيمة . الا أن تذمر عامة سكان الامبراطورية المتزايد تجلى في حركة اخرى ذات نتائـــج اعظم اهمية وأطول بقاء من نتائج سابقاتها ، وهي حركة الاسماعيلية التي تفرعت من الشيعة . وقد رأينا كيف تحولت حركة الشيعة في مراحلها الاولى من حزب عربي الى فرقة قوامها الموالي . وكان أول نجاح عظيم أحرزته هو وصول العباسيين الى الحكم . لكن هذا النجاح قضى على ما كان للدعاة من نسل محمد بن الحنفية من اهمية . وتزعّم الشيعةَ ، منذ هـــذا التاريخ ، رجالٌ من السلالة الفاطمية ، اي من ابنـاء علي من زوجته فاطمة بنت الرسول .

وعرف هؤلاء الزعماء عند اتباعهم بالائمة . وكانوا في نظر هؤلاء الاتباع الخلفاء الشرعيين الوحيدين . غير ان الحقوق التي اتخذوها فاقت ما ادعاه الخلفاء العباسيون لانفسهم من حقوق . فقد كان إمام الشيعة يدعي الاتصال بالله والعصمة ، ويطالب بطاعة اتباعه دون مناقشة .

فلما توفي الامام جعفر الصادق سنة ٧٦٥ م انقسم اتباعه الى فريقين . والتفّ كل فريق حول أحد ابنيه ، موسى وجعفر ، وأيد حقه في الخلافة . واعترف اتباع الاول بالأئمة من نسله حتى الامام الثاني عشر بعد علي بن ابي طالب . ويعتقدون بان الامام الثاني عشر اختفى في ظروف غامضة وينتظرون رجعته. وتتصف تعاليمهم من ناحية عامة بالاعتدال ، ولم يكن بينها وبين تعاليم السُّنة كبير اختلاف . وقد وصفهم عالم فرنسي وصفاً اقرب الى البساطة منه الى دقة التعبير بقوله انهم كانوا « فريق المعارضة الملكي » بالنسبة للخلافة العباسية .

ويختلف تطور فرقة الاسماعيلية ، التي ورثت طابع الحركة الاولى الثوري المتطرف ، عن تطور الشيعة الاثني عشرية تمام الاختلاف .

ويمكن وصف الفترة الواقعة بين القرن الثامن الميلادي وأوائل القرن التاسع بأنها فترة استعداد نَظَّم خلالها اسماعيلُ وابنه محمد وعددٌ من الأتباع المخلصين بناءَ هذه الفرقة والدعوة لها . وتختلف تعاليمهم اختلافاً بيناً عن تعاليم السنة ، كما أنها تضم كثيراً من الافكار الافلاطونية الحديثة والهندية . وقد تمكنوا من إدخال هذه الافكار بقولهم بمبدأ التفسير الباطني الذي يجعل لكل آية

معنيين ، أحدهما ظاهر أو حرفي ، والآخر باطن لا يقف عليه الا أهل العلم .

وكانت التعاليم السرية لهذه الفرقة تنشر على مراتب من التنشئة ، أشبه بمراتب الماسونية، لا يرقى إلى أعلى مراتبها الا من يتم تحوله الى المذهب الاسماعيلي . وكان من شأن هذا التنظيم السري أن ساعد الاسماعيلية على البقاء والازدهار على الرغم من يقظة شرطة العباسيين . وكان رمز الفرقة الاسمي هو الامام،وهو زعيم ديني معصوم من سلالة علي بن ابي طالب. وفي ظروف معينة كان في استطاعة الامام أن يفوض سلطاته لشخص آخر يتبناه روحياً فيصبح وصياً للامام أو نائباً عنه ، ويحق له ممارسة اكثر وظائفه لا كلها .

وكانت الضائقة الاجتماعية قد بلغت في بداية القرن العاشر حداً بالغ الخطورة . اذ كان السخط لا يزال يعتمل في صدور الفلاحين والعبيد المقهورين، كما أن تمركز العمل ورؤوس الاموال المتعاظم كان قد اوجد من بين سكان المدن طبقة عاملة كبيرة متذمرة . وفي سنة ٩٢٠ – ٩٢١ م ادت الاجراءات المالية التي استحدثها الوزير الى قيام حركات شغب في العاصمة طالب مثيروها بالخبز ، كما أدت الى تفاقم التذمر في طول الامبراطورية وعرضها. ويتجلى موقف العناصر المعدمة من الاسلام على المذهب السني في بضعة أبيات من الشعر كتبها واحد من شعراء هذا العصر :

تلوم على تركي الصلاة حليلتي فقلت اغربي عن ناظري! انت طالق
فو الله لاصليتُ لله مفلساً يصلي له الشيخ الجليل وفائق

لماذا أصلي ، أين بغيي ومنزلي وأين خيولي والحلى والمناطق ؟
أصلي ولا فترٌ من الارض يحتوي عليه يميني ؟ إنني لمنافق
[بلى. إنْ عليّ الله وسّعَ لم أزل أصلي له ما لاح في الجوّ بارق] [1]

وسرعان ما استجابت هذه العناصر [المتذمرة] جميعها لتعاليم دعاة الشيعة. ولا يُلقي الاسماعيلية أنفسهم ضوءاً كثيراً على تعاليم فرقتهم الاجتماعية. لكن يتضح من تفنيد علماء الدين السنيين لتعاليم الاسماعيلية أن خطر هؤلاء على النظام القائم كان في أساسه اجتماعياً اكثر منه دينياً. ويورد البغدادي العالم الديني وثيقةً زعم أنها اسماعيلية (ترجمة ا. س. هالكن) تقول :

« ما وجه ذلك الا ان صاحبهم حرم عليهم الطيبات وخوّفهم بغائب لا يعقل وهو الاله الذي يزعمونه ، واخبرهم بكون ما لا يرونه ابداً من البعث من القبور والحساب والجنة والنار ، حتى استعبدهم بذلك عاجلاً وجعلهم له في حياته ولذريته بعد وفاته خولاً ، واستباح بذلك اموالهم بقوله : لا أسألكم عليه أجراً الا المودة في القربى (الشورى : ٢٣) فكان امره معهم نقداً وامرهم معه نسيئة . وقد استعجل منهم بذل ارواحهم واموالهم على انتظار موعود لا يكون . [2] »

ومع ان هذه الوثيقة غير اصيلة على ما يرجح الا انها لا تزال قيمة لانها تطلعنا على الطريقة التي فُهم بها هذا الخطر . وكثيراً ما يشير الغزالي ، احد كبار علماء الدين المسلمين ، في الرد على

---

(١) اضيف البيت الاخير الى الاصل. [المعربان]
(٢) البغدادي ، عبد القاهر : الفرق بين الفرق ص ٢٨٢ .

« فضائح الباطنية » الى ان خطر هـذه الفرقة الرئيسي هو تأثيرها في العامة .

ويبدو ان اكثر اعتماد الاسماعيلية فى اوائل حركتهم كان عـلى مناصرة الفلاحين لهم . ولكنهم سرعان ما كسبوا اتباعاً كثيرين من بين سكان المدن وخاصة اصحـاب الحرف . ومن الجائز ان يكون الاسماعيلية هم الذين أوجدوا النقابات الاسلامية . الا انه من المؤكد انهم استخدموها كأدوات في تنظيم حركتهم . وقد ظلت تعاليم النقابات الاسلامية وبناؤها تحمل تأثيرات اسماعيلية طيلة قرون . ومن التهم المتواترة التي يوجهها خصوم الاسماعيليـة من السنة اليهم هي انهم طبقوا اشتراكية المـال والنساء . وتحفظ لنا المصادر العربية وصفاً طريفاً لما قام به احد دعاة الاسماعيلية في منطقـة الكوفة حوالى منتصف القرن التاسع . فبعد ان ادخل سكان بعض المـدن في عقيدته فرض عليهم سلسلة تصاعدية من الضرائب والجبايات ، واخيراً فرض عليهم « الالفة » ، وهو ان يجمعوا اموالهم في موضع واحد ، وان يكونوا في ذلك اسرة واحدة ، لا يفضل واحد منهم صاحبه واخاه في ملك يملكه [وتلا قوله تعالى « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً » وتلا عليهم قوله تعالى : « لو انفقت ما في الارض جميعاً ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم انه عزيز حكيم] [1] وعرفهم انـه لا حاجة بهم الى اموال تكون معهم : لان الارض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم . وقال لهم :

(١) اضيف ما بين المعقفين الى الاصل .

هذه محنتكم التي امتحنتم بها لنعلم كيف تعملون وطالبهم بشراء السلاح وإعداده وذلك في سنة ست وسبعين ومئتين . واقام الدعاة في كل قرية رجلاً مختاراً من ثقاتها يجمع عنده اموال اهل قريته من بقر وغنم وحلي ومتاع وغيره . فكان يكسو عاريهم ، وينفق عليهم ما يكفيهم ،ولا يبقي فقيراً بينهم ولا محتاجاً ضعيفاً. واخذ كل رجل منهم بالانكماش في صناعته والتكسب بجهده ليكون له الفضل في رتبته . وكانت المرأة تجمع اليها كسبها من مغزلها والصبي أجر نطارته الطير . فلم يملك أحد منهم الا سيفه وسلاحه . فلما استقام له ذلك كله وصبوا اليه ، وعملوا به ، أمر الدعاة أن يجمعوا النساء ذات ليلة معروفة ويختلطن بالرجال وقال ان ذلك من صحة الود والألفة بينهم . »

ولا توجد في المصادر الاسماعيلية شواهد على ان الاسماعيلية مارسوا اموراً من هذا القبيل . ويبدو من المحتمل ان يكون اتهامهم بالشيوعية انعكاساً لمطامح الاسماعيلية الاجتماعية في التحرر ، ومنحهم المرأة لهذا السبب مركزاً أعلى من مركزها السابق .

وظهرت الحركة للعيان في اوائل القرن العاشر حين قامت بين سنتي ٩٠١ و ٩٠٦ فرق اسماعيلية من طائفة تنتسب للاسماعيلية ، ويعرفون بالقرامطة ،بغزو سورية وفلسطين وشمالي مابين النهرين. وتحفظ لنا المصادر نص دعاء كان يردده الاسماعيليون اثناءاحتلالهم لمدينة حمص وهو : « اللهم اهدنا بالخليفة الوارث المنتظر ، المهدي ، صاحب الوقت ، امير المؤمنين . اللهم املأ الارض به عدلاً وقسطاً

ودمر اعداءه ، اللهم دمر اعداءه »

وحركة القرامطة التي قامت في ولاية البحرين (الاحساء الحالية) اهم بكثير من الحركة السابقة . فهنالك كانت التربة خصبة لنمو الحركات الثورية . فقد كانت منعزلة يصعب الوصول اليها . وكان سكانها خليطاً يضم كثيرين ممن ساهموا في ثورة الزنج . وتمكن دعاة القرامطة في اوائل القرن العاشر من ان يصبحوا القوة المسيطرة في الولاية ، بعد ان تمكنوا من طرد رجال الدولة في بغداد . ولم تصلنا ، لسوء الحظ ، سوى قلة من الاخبار عن الحكم الذي اقاموه. ومعلوماتنا عنه مستقاة بصفة رئيسية مما كتبه رحّالتان مواليان للحركة الاسماعيلية زارا هذه المنطقة . ويصف اولهما ، الذي وصل اليها في النصف الثاني من القرن العاشر ، حكومة القرامطة بأنها نوع من الجمهورية الأوليغاركية ، فحاكمها هو أول بين اكفاء ، ويساعده في الحكم مجلس مؤلف من اتباعه المقربين . ويؤيد هذا الوصف ما يورده اسماعيلي فارسي زار البحرين خلال القرن الحادي عشر . فقد وجد الجمهورية القرمطية لا تزال مزدهرة . ويقول بانه كان في العاصمة ، وهي الحسا ، اكثر من عشرين الف محارب ، ومجلس يتألف من ستة اشخاص يحكمون بالعدل والانصاف . وكانوا حين يتحدثون الى الناس يتكلمون بلطف وتواضع . وكانوا لا يُصلّون ولا يصومون . والمسجد الوحيد الذي كان موجوداً بناه الحجاج من اهل السنة على نفقتهم الخاصة . ولم تكن هناك ضرائب او عشور (ويذكر الرحالة الاول كثيراً منها) . وكان المجلس يمتلك ثلاثين الف عبد كانوا يقومون بأعمال الزراعة . واذا افتقر

الانسان او استدان مالاً كان الآخرون يساعدونه ليستعيد مكانته. وكان الفقراء من اصحاب البيوت يتلقون المال من الدولة لاصلاح بيوتهم. وكانت الحبوب تطحن في طواحين الدولة مجاناً. وكانت المعاملات التجارية تتم باستخدام نقود اصطلاحية لا يجوز اخراجها من البلاد. ويؤيد ناحية من وصف هذين الرحالتين للحكومة القرمطية ما وجد من نقود قرمطية مضروبة باسم المجلس.

واحرزت الدعوة الاسماعيلية نجاحاً في منطقة اخرى وهي اليمن. فقد اتخذها أحد الدعاة في سنة ٩٠١ م مركزاً لنشاطه، وعظم نفوذه في زمن وجيز. ومن اليمن أنفذ هذا الداعية الرسل الى الهند وشمالي افريقية وربما الى مناطق اخرى. واصابت بعثة شمالي افريقية نجاحاً باهراً في تونس حيث استطاعت ان توصل الامام عبيد الله الى كرسي الحكم، فأصبح اول خليفة فاطمي في شمالي افريقية. وهكذا نرى ان الفاطميين اتبعوا، من عدة وجوه، خطط العباسيين انفسهم في الوصول الى الحكم. واستخدموا في هذا السبيل الدعوة السرية المنظمة لطائفة خارجة على المذهب السني، وقاموا بمحاولتهم الحاسمة للقبض على زمام السلطان في احدى ولايات الامبراطورية القاصية. لكنهم اختلفوا عن العباسيين في امرين ربما كانا متداخلين: اولهما انهم لم يتمكنوا - كالعباسيين - من بسط نفوذهم على العالم الاسلامي كله، وثانيهما أنهم - بعكس العباسيين - ظلوا رؤساء الطائفة التي أوصلتهم الى الحكم.

وحكم الخلفاء الفاطميون الاربعة الأولون في الغرب فقط، حيث واجهتهم مصاعب عدة، فقد كان تأسيس دولة واسرة حاكمة

يتطلب اشياء تختلف عما تتطلبه طائفة ثورية معارضة للحكم القائم ؛ كما انهم واجهوا ، منذ بداية حكمهم ، فئات متطرفة اتهمتهم بالانحراف عن المبادىء الاسماعيلية والتحول عنها ، واشتبكوا فيما بعد مع قرامطة البحرين للأسباب ذاتها . وقد تم توسع الاسرة الجديدة نحو الشرق بعد محاولات ثلاث فاشلة قام بها المعز لدين الله الذي فتح مصر في سنة ٩٦٩ م . وسبق فتحَها دور استعداد طويل قام بالتمهيد للفتح خلاله الرسل والدعاة السريون الذين شلوا مقاومة المصريين وتصادم الفاطميون ، عقب الفتح ، مع القرامطة الذين شكلوا في وقت ما خطراً حقيقياً يتهدد الحكم الجديد . ويظهر ان القرامطة عادوا فيما بعد الى ولائهم السابق للفاطميين .

واخلص في خدمة المعز رجلان شهيران . واولهما هو قائده جوهر ، وهو مملوك اوروبي الاصل ، ويعدّ فاتح مصر الحقيقي . وقد قام ببناء مدينة القاهرة لتكون عاصمة للفاطميين ، كما بنى الجامع الازهر ليكون مركزاً لنشر عقيدتهم . ومنذ تحول الازهر بعد ذلك بقرون الى الدراسات السنية ظل حتى يومنا الحاضر احد المراكز الرئيسية للفكر الاسلامي والحياة الاسلامية الدينية . ورجل المعز الآخر هو يعقوب بن كلس ، وهو يهودي بغدادي تحول الى الاسلام وانضم الى المعز في تونس ، وساعده قبل فتحه لمصر وبعده . وكان يعقوب عبقرياً مالياً قام بتنظيم الضرائب وتنسيق نظام الخدمة المدنية الذي ظل نافذاً طوال حكم الفاطميين .

وسرعان ما قام الفاطميون بتوسيع رقعة دولتهم ، ففتحوا فلسطين وسورية وبلاد العرب ، ففاق سلطانهم ونفوذهم خلال

تلك الفترة ما كان للخلفاء من سلطان ونفوذ . وكان حكم المستنصر (١٠٣٦-١٠٩٤) الاوج الذي بلغه حكم الفاطميين لمصر . فقد كانت الامبراطورية الفاطمية في عهده تشمل شمالي افريقيه جميعه ، وصقلية ، ومصر ، وسورية وغرب شبه جزيرة العرب . ونجح أحد قواد الفاطميين بين سنتي ١٠٥٦ و ١٠٥٧ م في اخضاع بغداد نفسها واعلان سيادة الخليفة الفاطمي من منابر العاصمة العباسية . غير انه أُخرج منها في السنة التالية . وبعد هذا التاريخ اضمحل الفاطميون. وبدا تدهور سلطانهم اولاً في ميدان الخدمة المدنية ، ذلك التدهور الذي ادى الى قيام سلسلة متتابعة من الحكام العسكريين المستبدين الذين سيطروا على العاصمة ، كما فعل أمثالهم في بغداد خلال فترة من الزمن . فلما جُرِّد الخلفاء الفاطميون من سلطاتهم الهائلة ، وأنزلوا الى مرتبة دُمى عاجزة يسيرها الامراء ، فقدوا مناصرة رجال طائفتهم لهم . واخيراً قام صلاح الدين الايوبي بالغاء حكمهم واعادة المذهب السني الى مصر .

ويختلف حكم الفاطميين لمصر في اوجه عن حكم الدول التي سبقتهم في عدد من الامور : فقد كان على رأس الدولة الفاطمية إمام معصوم ، وهو حاكم مطلق يستند في سلطانه الى حق وراثي مقدس اكتسبه بانتسابه الى أسرة اختارها الله للامامة . وكانت حكومته مركزية ذات وظائف طبقية ، وكانت تنقسم الى ثلاثة فروع : أحدها ديني ، والآخر عسكري ، والاخير مدني . وكان الاخيران خاضعين لاشراف الوزير ، وهو موظف مدني خاضع للخليفة . اما الفرع الديني فكان يتألف من هيئة من

الدعاة مختلفي المراتب ، ويقوم عليهم كبير الدعاة (داعي الدعاة) وكان الاخير شخصية سياسية ، ذات نفوذ بالغ . وكان هـذا الفرع يقوم على توجيه مدارس التعليم العليا ، وعلى تنظيم الدعوة للطائفة الاسماعيلية ، ويظهر انه لعب دوراً أشبـه بالدور الذي يلعبه الحزب في الدكتاتوريات الحديثة القائمة على حزب واحد

وكان قسم الدعوة للاسماعيلية يوجه عـدداً ضخماً من الدعاة المبثوثين في ولايات الامبراطورية الشرقية ، التي كانت لا تزال تحت السلطان الاسمي للخليفة العباسي في بغداد . ويمكن الوقوف على فعّالية هذه الدعوة في اكثر من ميـدان . فالانفجارات المتكررة التي اتخذت من البلاد الممتدة من العراق حتى الهنـد مسرحاً لها تشهد على نشاط دعاة الاسماعيلية ، في حين ان الحياة الفكرية في العالم الاسلامي كله تشهد بطرق شتى على ما كان للدعوة الاسماعيلية من جاذبية وغواية للفئات المثقفة المتطرفة .

فقد كان للأفكار الاسماعيلية تأثير قوي في المتنبي (حوالى ٩٦٤ م) وأبي العلاء المعري (حوالي ١٠٥٧ م) وهمـا شاعران عظيمان من شعراء العرب . وقامت في العراق حركة لجمع المعارف نظمها جماعة يدعون باسم « اخوان الصفا البصريون » قـاموا بنشر سلسلة من الرسائل عددها احـدى وخمسون تبحث في جميع فروع المعرفة عند أهل زمانهم . وتتسم هذه الرسائل بميل واضح للاسماعيلية . وبالاضافة الى ان هـذه الرسائل كانت تقرأ في جميع البلاد من الاندلس الى الهند ، فقد كانت ذات تأثير كبير في الكتاب المتأخرين . وقد ساعد على انتشارهـا

نظام انشاء حلقـــات شبه سرية للدرس تحت اشراف اعضاء من جمعية اخوان الصفا .

وكان العهد الفاطمي عهد ازدهار عظيم في التجارة والصناعـة . ففيما عدا بضع فترات انتشرت فيها المجاعات لعـــدم انتظام النيل او بسبب قيام ثورات عسكرية فقـــد كان عصر رخاء كبير . فقد ادركت الحكومة الفاطمية ، من البداية ، اهمية التجارة لرخاء الامبراطورية ولتوسيع دائرة نفوذها . وقـــد أوجد يعقوب ابن كلس نظاماً تجارياً اتبعه من خلفه من الحكام . وكانت التجارة قبل مجيء الفاطميين ضعيفة محدودة . فعمل الفاطميون على توسيع الزراعة والصناعة وتقدمها . فبدأت في عهدهم حركة تصدير واسعة المنتوجات المصرية . وعملوا بالاضافة الى هـذا على اقامة شبكة واسعة من العلاقات التجاريـة وخاصة مع الهند وأوروبا . ففي الغرب اقاموا علاقات وثيقة ، تعود في تاريخها الى سنيهم الاولى في تونس ، مع الجمهوريات الايطاليـــة وخاصة مع أمالفي وبيزا والبندقية . فكانت المتاجر تسير محملة على ظهور السفن بين مصر والغرب ، كما ان السفن المصرية والتجار المصريين كانوا يركبون البحر حتى اسبانيـــا . وكان الميناءان الرئيسيان في امبراطورية الفاطميين هما ميناء الاسكندرية ، وميناء طرابلس من اعمـــال سورية ، وكلاهما كان سوقاً ذات شهرة عالمية . كما ان الاساطيل الفاطمية كانت تسيطر على حوض البحر الابيض الشرقي .

وفي الشرق اقام الفاطميون علاقـات هامة مع الهند بعد ان نشروا سلطانهم بالتدريج جنوباً عـــلى شاطىء البحر الاحمر .

ونجحوا في تحويل التجارة الهندية مع الشرق الاوسط من الخليج الفارسي الى البحر الاحمر وخاصة الى عيذاب ، الميناء الفاطمي الكبير على ساحل السودان . وقاموا بالمتاجرة ايضاً مع البيزنطيين ومع الدول الاسلامية التي كانت اقل اهمية من هذه الناحية . وحيثما كان التاجر المصري يولي وجهه كان دعاة الاسماعيلية يجدون في اثره ، فأحدث هؤلاء بين مسلمي اسبانيا والهند الهياج الفكري نفسه الذي احدثوه في البلاد الاخرى .

وبانحطاط الخلافة الفاطمية في مهدها اخذت تضعف الصلات بين الاسرة الفاطمية الحاكمة وبين الطائفة الاسماعيلية ، وانفصمت عرى هذه الصلات آخر الامر . وحكم الخلفاء الفاطميون في مصر زمناً آخر ، ولكنهم كانوا خلاله أداة في يد القواد يسيرونهم كما يشاؤون . وقضي على الخلافة الفاطمية بعد ذلك. أما في البلاد التي كانت تابعة للخلافة العباسية في المشرق والتي وقعت تحت حكم الاتراك السلاجقة ، فقد اتخذت منظمة الاسماعيلية الثورية شكلاً آخر .

الفصل السابع

العرب في اوروبا

«اي أبراج تلك؟ انها شامخة ومتألقة !
— ذلك هو الحمراء ، يا سيدي ،
والآخر هو المسجد . »
(انشودة ابن عمر)

لم يكن العرب قبل الاسلام يجهلون البحر جهلاً تاماً . فقد عرف أهل جنوب شبه جزيرة العرب بناء السفن ، وسيروا تجارة بحرية ذات شأن قروناً قبل الاسلام . الا ان عرب الشمال ، والحجازيين منهم على الخصوص ، وعرب تخوم سورية والعراق ، كانوا في الدرجة الاولى شعباً برياً بعيداً عن البحر ، وعلى معرفة ضئيلة به او بالملاحة . ومن أبرز خصائص الفتوحات الاسلامية العظيمة ' قدرة العرب على تكييف انفسهم لهذا الوجه من اوجه النشاط . فلم تكد تمضي سنين قلائل على احتلال سكان صحراء الجزيرة العربية المعزولين عن البحر لسواحل مصر وسورية حتى كانوا قد بنوا وشحنوا بالرجال الاساطيل البحرية العظيمة التي مكنتهم من الوقوف في وجه الاساطيل البيزنطية القوية المدربة ،

ومن توفير شرط اساسي يكفل للخلافة استتباب الامن فيها وتوسعها ، وهو السيطرة على البحر الابيض المتوسط .

وأضاف فتح سورية ومصر للبلاد الواقعة تحت سيطرة العرب شريطاً طويلاً من ساحل البحر الابيض المتوسط موانئه كثيرة واهله متمرسون بالشؤون البحرية . واصبح العرب الذين لم يواجهوا حتى الآن سوى جيوش بيزنطية برية يحاربون أساطيل بيزنطية أيضاً . وكان من شأن عودة البيزنطيين بطريق البحر الى الاسكندرية واحتلالهم لها لمدة وجيزة في سنة ٦٤٥ م ان نبّه العرب الى اهمية القوة البحرية . فاستجابوا بسرعة لهذا المؤثر .

ويرجع الفضل في خلق الاساطيل الاسلامية الى رجلين ، هما الخليفة معاوية ، ووالي مصر عبد الله بن سعد بن ابي سرح . وفي ميناء الاسكندرية وموانىء سورية البحرية حجز العرب وشحنوا بالرجال أساطيل حربية سرعان ما احرزت انتصارات تعادل في شهرتها انتصارات جيوش المسلمين البرية . وفي سنة ٦٥٥ م وقعت اول معركة بحرية عظيمة هزم فيها أسطول اسلامي اسطولاً بيزنطياً يفوقه عدداً قرب ساحل الاناضول .

وعندما نقل العباسيون مركز الخلافة من سورية الى بغداد قل اهتمام الحكومة المركزية بالبحر الابيض المتوسط ، الا ان الولاة المسلمين المستقلين في مصر وشمال افريقية احتفظوا لمدة طويلة باساطيل بحرية مكنتهم من السيطرة على البحر الابيض المتوسط كله وفي الاخبار انه كان تحت امرة الفاطميين لا اقل من خمسة آلاف قبطان بحري . وكانت مراكب المسلمين التجارية

المتزايدة تصل ، في اثناء القرن التاسع ، موانىء سواحل البحر المتوسط الخاضعة للمسلمين احدها بالآخر ، وبموانىء المسيحيين في الشمال .

وكانت اولى الاعمال الحربية التي قامت بها الاساطيل الاسلامية، حديثة التكوين ، موجهة ضد الجزر البيزنطية وهي قبرس واقريطش ورودس التي كانت بين القواعد الرئيسية للاساطيل البيزنطية في الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط . ويخبرنا المؤرخون العرب ان الخلفاء الاولين كانوا يرفضون تجريد حملات بحرية . وينسب المؤرخون الى عمر انه منع قواده من الزحف الى اي مكان قائلًا : « فلا تجعلوا بيني وبينكم مـاء متى اردت ان اركب اليكم راحلتي حتى اقدم اليكم قدمت . » وفي سنة ٦٤٩ م سمح عثمان ، بشيء من التردد ، لمعاوية بان يوجه اول غزوة الى قبرس . وتكرر بعد هذه الغزوة احتلال العرب لقبرس واقريطش لآجال قصيرة . واستطاعوا خلال الدور الاموي ان يسيطروا بعض الوقت على جزيرة او شبه جزيرة في بحر مرمرة نفسه ، وان يتخذوا منها قاعدة بحرية لهجوم بري بحري على القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية .

وكان احتلال الجزر الشرقية في الغالب قصير الامد وبصورة مؤقتة . اما هجوم العرب على صقلية فقد كان اهم من هذا بكثير . ويرجع الفضل في توجيه الغزوات الاولى لهذه الجزيرة الى معاوية . وقامت هذه الغزوات من الشرق الادنى وليبيا . اما الغزوات التي قامت بعد ذلك فقد جاءت من تونس لا من الشرق ، وساعد

على قيامهـــا احتلال جزيرة بانتالريا[1] حوالي سنة ٧٠٠م .ولم تقم اولى محاولات الفتح الاكيدة الا سنة ٧٤٠ م حين حاصر حبيب ابن ابي عبيدة سرقوسة وجمع من اهلها الجزية . لكنه اضطر الى ترك محاولته والرجوع لاخضاع ثورة قام بها البربر في افريقية. وتلا غزوة اخرى قـــامت بين سنتي ٧٥٢ - ٧٥٣ م دور من السلم المضطرب عقد خلاله عدد من الهدنات بين السلطات البيزنطية في الجزيرة وبين حكام تونس المستقلين في ذلك الوقت .

وبدأ الفتح الحقيقي في سنة ٨٢٥ م . ذلك انه لما وجـــد الاميرال البيزنطي يوفيميوس نفسه مهدداً بقصاص الامبراطور له، لذنب كان قد اتاه لا نعلم شيئاً عن طبيعته، ثار ضد الامبراطور واستولى على الجزيرة . وهرب فيما بعد ، عندما هُزمت جيوش الامبراطور ، ومعه سفنه الى تونس . وطلب المساعدة من حاكمها زيادة الله الاغلبي، وحرضه على التقدم لفتح الجزيرة. وعلى الرغم مما ابداه حاكم تونس من تردد فقد انفذ اسطولاً يتراوح عدد سفنه مابين سبعين ومئة سفينة تمكن رجاله من النزول في مازر سنة ٨٢٧ م. وبعـد ان احرز المحاربون تقدماً اولياً سريعاً اصابتهم نكسة ، ولحقت بهم بعض الهزائم . ولم ينقذهم مما احاط بهم من المصاعب سوى حدوث شيء لم يكن في الحسبان ، وهو قدوم جماعـة من المغـــامرين من اسبانيا تمكنوا بمساعدتهم من مواصلة تقدمهم . وفي سنة ٨٣١ م احـــتل المسلمون بلرم الـتي اصبحت وظلت بعد ذلك ، عاصمة للجزيرة طوال حكم المسلمين لهـــا .

---

(1) Pantellaria

واستخدمت كذلك نقطـــة ارتكاز لفتوح اخرى . واستمرت الحرب بين الجيوش البيزنطية والاسلامية في البر والبحر على ارض الجزيرة وفي داخل ايطاليا حتى سنة ٨٩٥ — ٨٩٦ م . ففي هذه السنة عقد البيزنطيون صلحاً مع المسلمين تخلوا بموجبه بالفعل عن صقلية . وكان المسلمون قد احتلوا مسينة حوالى سنة ٨٤٣ م ، وقصريانة في سنة ٨٥٩ ، وسرقوسة في سنة ٨٧٨ م . وكانوا في هذه الاثناء قد نزلوا في اراضي ايطاليا ايضاً ، وأقاموا حاميات في باري وطارنت لمدة من الزمن . وهدد الغزاة المسلمون نابـــل (نابولي) وروما وحتى شمال ايطاليا ، واجبروا أحد البابوات على ان يدفع لهم جزية مدة سنتين . وبين سنتي ٨٨٢ و٩١٥ م نشرت المستعمرة الحربية التي انشأها المسلمون في جوار جليانو الرعب في كامبانيـــا وجنوب لاتيوم . ومن الجائز ان تكون صقلية هي التي انشأت تلك المستعمرة وحكمتها .

وكانت صقلية الاسلامية تابعة في اول امرها لتونس ومرتبطة بها من الناحيتين السياسية والادارية . فلما سقط الاغالبة وحـــل محلهم الفاطميون انتقلت السيادة على الجزيرة الى الخلفاء الجدد . وفي بادىء الامر كانت الدولة الحاكمة هي التي تعين الولاة عـلى الجزيرة . وفي اوقات الضرورة كان اعيان بلرم ينتخبون واليهم . وبانتقال الفاطميين الى مصر سنة ٧٩٢ م ضعف سلطان الحكومة المركزية ، واصبحت حكومة الجزيرة في واقع الامر وراثية في بيت حسن بن عـــلي الكلبي . ويعين حكم الكلبيين الوراثي الذي امتد الى سنة ١٠٤٠م الاوج الذي بلغه سلطان المسلمين ونفوذهم

في الجزيرة . فقد وجد الرحالة ابن حوقل في القرن العاشر ثلاثمئة مسجد في بلرم ، وهو شاهد بليغ على اتساع نطاق توغل المسلمين في الجزيرة . ويخبرنا الرحالة الذين جاءوا بعد ذلك عن ازدهار غني في الثقافة العربية والرسائل التي لم يبق منها لسوء الحظ الا القليل .

وسقطت الدولة الكلبية بسبب قيام حرب اهلية بين مسلمي الجزيرة قضت على وحدتها . وبعد فترة قصيرة حكم بلرم خلالها مجلس من الاعيان ، وحكم باقي الجزيرة امراء محليون ، غزا النورمان الذين كانوا في هذه الاثناء قد احتلوا جنوب ايطاليا ، القسم الاكبر من الجزيرة واحتلوه . وفي سنة ١٠٦١ م استولى رُجار الاول على مسينة . وفي سنة ١٠٩١ م اصبح رجار يحكم كل صقلية باستثناء بضعة مراكز كانت لا تزال في قبضة المسلمين . وفي ظل الحكم النورماني الذي امتد حتى سنة ١١٩٤ م هاجر جزء كبير من الطبقة المثقفة من سكان المدن الى شمال افريقية ومصر .

وطبق العرب في صقلية معظم مبادىء الحكم التي كانت نافذة في الولايات الشرقية ، واحدثوا تغييراً اجتماعياً هاماً في ملكية الارض وتوزيعها . ويرينا بقاء كثير من الاسماء العربية للأماكن شدة تأثير الاستعمار العربي . وتشهد الكلمات العربية الموجودة في اللهجة الصقلية على اهتمام العرب بالزراعة . فقد جلب العرب الى صقلية البرتقال والتوت وقصب السكر والنخيل والقطن . ووسعوا نطاق الارض المزروعة

باهتمامهم بالري . وحتى هذا اليوم لا يزال كثير من الينابيع في صقلية وخاصة في بلرم يحمل اسماء عربية يسهل تمييز اصلها العربي . وقد اختفت تقريباً جميـــع آثار الحكم العربي ، ولم يبقَ من الكتب التي ألفوهـــا سوى نتف . ووصلت الينا كتابات اعظم الشعراء العرب وهو ابن حمديس (حوالى ١١٣٢) فقط في نسخٍ اسبانية وسورية من اشعاره . وتعود أسباب اختفائها الى خراب المادة المكتوب عليها والى هجرة الطبقات المثقفة عقب الفتـــح النورماني ، والى اعمال الفاتحين انفسهم التخريبيـــة في الدرجة الاولى .

لكن النورمان كيفوا انفسهم بسرعة للثقافة التي وجدوها في الجزيرة. والعناصر العربية والاسلامية في بلاط النورمان وثقافتهم كثيرة. وقد استخدم رجار الثاني (١١٣٠ – ١١٥٤)، المعروف بـ« الوثني » بسبب حبه للمسلمين ، جيوشاً عربية ومهندسي حصار عرباً في حملاته في جنوب ايطاليا ، كما استخـدم معماريين عرباً في اقامة مبانيه . وتحمل حلة التتويج الفـــاخرة التي حيكت في معامل الطراز الملكية في بلرم عبارة بالخط الكوفي وتاريخاً هجرياً وهو ٥٢٨ (١١٣٣ – ١١٣٤) وعمل رجار بعـــادة العرب في الاحتفاظ بشعراء المديح في بلاطه . وحفظ لنا شاعر مسلم متأخر قطعاً من الاشعار العربية التي نظمت في مدح هـــذا الملك ، ويعيب عـــلى مادحيه ان يحطوا من قدر انفسهم بمدح الكفار بقوله : « عجل الله بهم الى ألفح ناره المسعّرة » . وفي بلاط رجار كتب الادريسي ، اعظم جغرافيي العرب، موجزه الجغرافي الخالد

الذي أهداه للملك النورماني والذي يعرف « بكتاب رجار » .
وفي سنة ١١٨٥ م زار الرحالة الاسباني المسلم ابن جبير هذه الجزيرة ، ويشير الى ان الملك غليام (وليم الثاني ١١٨٦-١١٨٩) كان يقرأ العربية ويكتب بها بقوله : « وهو كثير الثقة بالمسلمين ، وساكن اليهم في احواله ، والمهم من اشغاله ، حتى ان الناظر في مطبخته رجل من المسلمين .. ووزراؤه وحجابه.[1] » ويشير الرحالة نفسه ايضاً الى انه حتى المسيحيون في بلرم كانوا كالمسلمين في قيافتهم ولباسهم وانهم كانوا يتكلمون العربية . واستمر ملوك النورمان في ضرب نقود تحمل نقوشاً عربية وتواريخ هجرية . وظل كثير من سجلات الحكومة ومنها سجلات البلاط تدون بالعربية .

وفيما بعد ، وفي ظل الاسرة السوابية التي خلفت النورمان ، حلت اللاتينية محل العربية كلغة رسمية . وترجع آخر وثيقة عربية في صقلية الى سنة ١٢٤٢ م . لكن الثقافة العربية عاشت وازدهرت خلال حكم فردريك الثاني (١٢١٥ - ١٢٥٠م) وساعد على تقويتها اتساع العلاقات بين فردريك والشرق الاسلامي . وحتى في زمن مانفرد (١٢٦٦ م) يمكن تمييز علامات التأثير العربي وفي معسكر لوكرا المستعمرة الصقلية الاسلامية التي أنشئت في داخل البلاد على يد فردريك الثاني ، كانت لا تزال تقام الصلوات الخمس. إلا ان الثقافة القديمة كانت في طريقها الى الزوال . وفي اوائل القرن الرابع عشر قضي على اللغة العربية في الجزيرة ،

(١) رحلة ابن جبير (ط . مصر ١٩٠٨) ص ٣٠٨

بينما قضي على الاسلام اما بطريق هجرة المسلمين منهـا أو بطريق الارتداد عنه . اما مكانة صقلية كطريق لنقل الثقـافة الاسلامية الى اوروبا فهي على العموم أقل شأناً مما يتوقعه المرء . واهم مـا أحرزته من هذه الناحية يرجع تاريخه الى حكم فردريك الثاني حين قام عدد من المترجمين ، مسيحيين ويهوداً ، بترجمة مجموعات من المؤلفات العربية إما من الاصل ، او من ترجماتهـا اليونانية ، الى اللغة اللاتينية . وكان من بين هؤلاء ثيودور ، وهـو منجم من اصل شرقي قام بترجمة كتب في علم الصحـــة والبيزرة ، ومنهم ميخائيل سكوت المشهور ،وهو ساحر اسكتلندي انخرط في خدمة فردريك الثاني في صقلية وظل فيهـــا حتى وفاته وآخر المترجمين الصقليين هو طبيب يهودي اسمه فرج بن سالم قام بترجمـة مؤلف طبي عظيم من مؤلفات الرازي للغة اللاتينيـة للملك شارل الاول الأنجيفي سنة ١٢٨٥ م

وكانت اعظم فتوح العرب واطولها بقاءً في ايديهم فتح اسبانيا . ففي سنة ٧٠٩ م نزل جيش من البربر في الجزيرة بدعوة من والٍ ثائر من القوط الغربيين . وفي السنة التالية هاجم قائد من البربر اسمه « طريف » البلاد بين الجزيرة وجزيرة طريف التي لا تزال تحمل اسمه . وشجع نجاح هذه المناوشات التمهيدية طارقاً ، مولى موسى بن نصير ، الوالي العربي على افريقية ، فنزل بجيش كبير واستولى على جبل طـارق ، وقرطاجنة الجزيرة ، والجزيرة . ثم توغل في الداخل وهزم جيش القوط ، واحتل قرطبة وطليطلة . وكانت اكثرية الجيش المحارب في اسبانيا حتى الآن من البربر . الا

ان موسى نفسه وصل في سنة ٧١٢ م على رأس جيش عربي قوي يتألف من ١٠٠٠٠ مقاتل واستولى على اشبيلية وماردة . ومن ثم أصبح تقدم العرب سريعاً . وفي سنة ٧١٨ كانوا قد احتلوا الجزء الاكبر من شبه الجزيرة واخترقوا جبال البرت (البرانس) ووصلوا الى جنوب فرنسا . ولم يمنعهم من مواصلة تقدمهم الا الفرنجة بقيادة شارل مارتل وذلك في موقعة بواتييه سنة ٧٣٢ م .

كانت اسبانيا قبل الفتح الاسلامي في حالة من الضعف يرثى لها. ويصف أحد المؤرخين السابقين حالها بقوله : « لم يبق من كل ما كان لها إلا الاسم فقط . » فقد كانت فيها طبقة مالكة صغيرة تملك إقطاعات ضخمة من الارض ، والى جانبها كتلة هائلة من أقنان الارض والعبيد ، وطبقة وسطى محطمة منحلة . وكانت الطبقة الممتازة معفاة من الضرائب وتعيش في بذخ داعر . اما سواهم من الناس فكانوا متذمرين يعضهم الجوع . وبدأ في سنة ٦١٢ م اضطهاد شديد لعدد كبير من اليهود من سكان شبه الجزيرة ، فأضيف عنصر آخر الى العناصر الكثيرة التي لم تكن تخشى ضياع شيء من وراء حدوث أي تغيير في الحكم ، بل كانت تأمل ان تكسب من ورائه شيئاً كثيراً .

وكان الأقنان المجندون يؤلفون القسم الاكبر من الجيش القوطي . لكن هؤلاء كانوا لا يعتمد عليهم . وأحدثت انتصارات العرب الاولى انهياراً سريعاً في بناء الحكومة القوطية الذي كان قد نخره السوس . فقد أضرب الأقنان ، وثار اليهود على حاكميهم وانضموا الى الفاتحين ، وسلموهم مدينة طليطلة .

وكان الحكم الجديد نزيهاً متسامحاً بحيث جعل المؤرخين الاسبان انفسهم يفضلونه على حكم الفرنجة في الشمال. وأعظم خدمة أسداها للبلاد هي القضاء على طبقة النبلاء ورجال الدين القديمة وتوزيع اراضيهم ، الأمر الذي مكنهم من خلق طبقة جديدة من صغار الملاكين كان لها الفضل الأكبر في إحداث الرخاء الزراعي الذي عم اسبانيا الاسلامية . وتحسنت حال الأقنان كثيراً . اما الطبقة البرجاسية فقد تخلصت من مشاكلها بدخول افرادها في الاسلام بأعداد كبيرة وباختلاطهم بالعرب .

وظل الجنود الفاتحون بعد الفتح في اسبانيا حيث توطنوا وتزاوجوا مع أهل البلاد . وتتابعت خلال القرن الثامن موجات جديدة من المهاجرين من شمال افريقية حملت كثيراً من العرب وحتى مزيداً من الافريقيين الى شبه الجزيرة . وفي سنة ٧٤١ م كان البربر من القوة بحيث استطاعوا إشعال نار ثورة عامة في اسبانيا ضد العرب . فأنفذ الخليفة الى اسبانيا جيشاً عربياً اكثره من السوريين بقيادة بلج بن بشر تمكن بسرعة من الحاق الهزيمة بالبربر . فأقطع أفراده ، مكافأة لهم ،أراضي اسبانيا الواقعة على ساحل البحر الابيض المتوسط . واستوطن المستعمرون السوريون الجدد طبقاً للنظام المتبع في سورية نفسها ، فعُينت بموجبه لكل طائفة من الجند مقاطعة اسبانية . فاستقر جند دمشق في البيرة ، وجند الاردن في مالقة، وفلسطين في شذونة ، وحمص في اشبيلية، وقنسرين في جيان . وكانت باجة ومرسية من نصيب جيش مصر . وكان يجري على هؤلاء العرب أصحاب الاقطاعات نظام

الخدمة العسكرية عندما تستدعيهم حكومـــة قرطبة ، العاصمة العربية لاسبانيا . وكان المفروض ان يعيشوا في أوقات السلم على دخل اراضيهم . إلا ان العرب لم يكونوا حتى ذلك الحين قـــد اعتادوا الزراعة ، فكان القسم الاكبر من اصحاب الاقطاعـات يفضلون الاقامة في عواصم المقاطعات التي تقوم فيهـــا اراضيهم ، والاعتماد في حياتهم على ايرادهم الذي يحصلونه من الاقنان الاسبان او ممن يفلح لهم الارض ويقاسمهم المحصول . والف هؤلاء طائفة جديدة من سكان المدن قوامها طبقة عربيـــة محاربة تعيش على مدخولها ، ويعرف افرادها باسم الشاميين وذلك لتمييزهم من المستوطنين القدماء الذين رافقوا حملة الفتح الاولى .

وخلق تعزيز العنصر السوري في اسبانيا نتيجة لهذه الاحداث جواً ملائماً لعبد الرحمن ، الامير الاموي الذي فر بعد سقوط اسرته في الشرق . وبعد ان مهـــد عبد الرحمن لنفسه بين جنود بلج ، وغالبيتهم كانوا من انصار الامويين ، نزل في المنكب في سنة ٧٥٥ م . وتمكن بسرعة من هزيمة الوالي الذي كان قـــد اعترف بسيادة العباسيين ، واحتل قرطبة في سنة ٧٥٦ م واسس في اسبانيا دولة اموية مستقلة امتد حكمها الى سنة ١٠٣١ م .

وكان القرن الاول من حـــكم الامويين في الاندلس فترة اضطراب شغل خلالها امراء قرطبة بتهدئة البلاد والقضاء عـــلى حركات التمرد السافرة والخفية التي قام بها مختلف عناصر الشعب . وكان اكثر العرب يقيمون في المدن ويؤلفون كبار اتبـــاع ارستقراطية الجند العسكرية . وكانوا في الجنوب الشرقي اقوى

منهم في اي مكان آخر ، وهددوا سلطان الحكومة في الصميم .
وبتوقف هجرة العرب خلال القرن التاسع وازدياد الاختلاط بين العرب والاسبان المستعمرين الذين دخلوا في الاسلام ، ضعف بالتدريج نفوذ الاسر العربية الكبيرة التي لم تعد في العهد الاموي المتأخر تلعب أي دور بارز في الشؤون العامة . وكان البربر يفوقون العرب في العدد وينطوون على خطر اكبر من خطرهم . اذ كانوا في زيادة مستمرة نتيجة لامتداد هجرتهم الى أواخر القرن الحادي عشر . وشكلوا في المدن اقليات امتزجت بسرعة بباقي السكان . اما غالبيتهم ، وموطنها الاصلي مناطق مراكش الجبلية، فقد فضلت ان تستوطن في ولايات اسبانيا الجبلية واجتذبهم اليها تشابه الحياة فيها مع حياتهم السابقة التي تقوم على تربية الماشية والزراعة ، وما يتوفر في هذا النوع من الارض من مزايا عسكرية . واخيراً كان في اسبانيا الاسبانيون انفسهم من المسيحيين واليهود ومعتنقي الاسلام . وكانت هذه الطوائف غير المسلمة ، والتي كانت في حماية المسلمين اكثر عدداً واحسن تنظيماً في اسبانيا منها في اي ناحية أخرى من البلاد الخاضعة للمسلمين . وكانت سياسة الحكومة نحو هذه الطوائف نزيهة متسامحة.
اما ما كان يصيبها من ظلم فيعود في الغالب الى امور سياسية . لكن التحول الى الاسلام ، الذي تم بدافع الترغيب لا الاجبار ، جرى بسرعة وعلى نطاق واسع. وفي زمن وجيز اصبح المتحدثون بالعربية من الاسبان المسلمين ، احراراً وعتقاء وعبيداً ، يؤلفون القسم الاكبر من السكان . وانتشر اللسان العربي ايضاً بشكل ملحوظ حتى بين اولئك الذين ظلوا على

ولائهم لدياناتهم القديمة . وفي زمن مبكر لا يعدو منتصف القرن التاسع يشير ألفارو ، وهو مسيحي من قرطبة ، بأسف الى هذا قائلاً :

« كثيرون من اهل ملتي يقرأون شعر العــــرب وقصصهم ويدرسون كتابات علماء الكلام والفلاسفة المسلمين ، لا لينقضوا أقوالهم وإنما ليتعلموا كيف يعبرون عن انفسهم بالعربية بشكل أكثر دقة وإتقاناً . أين يستطيع المرء اليوم ان يجد رجلاً عادياً يقرأ التعليقات اللاتينية على الكتب المقدسة؟ من من الناس يدرس الأناجيل والرسل والانبياء ؟ جميــع الشباب النصراني من ذوي المواهب لا يعرفون سوى العربية والادب العــربي ، ويقرأون الكتب العربية والادب العربي ، ويجمعون من هذه الكتب مكتبات ضخمة باهظة التكاليف ، ويعلنون في كل مكان ان الادب العربي جدير بالاعجاب. ولا تكاد تجد بين الآلاف منا واحداً يستطيع أن يكتب لصديقه رسالة مقبولة باللغة اللاتينية . ولا يُحصى عدد من يعبرون عن انفسهم بالعربية وينظمون الشعر العربي بأسلوب فني يفوق أسلوب العرب أنفسهم . » وحــوالي الوقت ذاته ارتأى كبير أساقفة قرطبة أنه من الضروري ترجمة التوراة الى العربية وشرحها لا لاغراض تبشيرية وإنما من اجل جماعته . وانخرط كثير من النصارى في خدمة الدولة . حتى لقد كان الامراء الامويون يرسلون اساقفة في بعثـــات ديبلوماسية . ويعرف المتحولون الى الاسلام في التاريخ الاسباني بالمـرتدين ، ويُطلق عليهم العرب في استخفاف كلمة « المولدون » .

وكان حكم عبدالرحمن الثاني (٨٢٢ - ٨٥٢) فترة طويلة من الهدوء النسبي ، تمكن خلالها من أن يعيد تنظيم مملكة قرطبة على نهج الادارة العباسية ، فأوجد مركزية مستبدة ، وبلاطاً يشبه بلاط العباسيين . واشتهر بتشجيعه للآداب ، فجلب من الشرق كتباً كثيرة وعدداً كبيراً من العلماء ، وبهذا وثّق الصلات الثقافية بين المسلمين في اسبانيا وبين مراكز الحضارة الاسلامية في الشرق . وكان من أبرز من حضروا من الشرق زرياب ، وهو موسيقي فارسي طُرد من بلاط هارون الرشيد بسبب حسد استاذه له ، والتجأ الى بلاط قرطبة وأصبح المرجع الاخير في أمور الذوق والازياء في العاصمة الاسبانية . وأدخل كثيراً من فنون الظرف الجديدة غير المعروفة من الحضارة الشرقية ،فتناول مختلف الامور مثل الالحان الموسيقية وارتداء الحلل الجميلة وأكل الهليون .

وفي ظل خلفاء عبدالرحمن تلاشى خطر الفتن الداخلية . فقد اندمج العرب والبربر والاسبان والمسلمون ، وكونوا شعباً مسلماً متجانساً يفخر باستقلاله في الثقافة والسياسة ، وينحو في اتجاهه العام منحى (اقليمياً) ايبيرياً أخذ يقوى في كل يوم وأفادت هذه الحركة نحو التوحيد الثقافي والسياسي الكثيرَ من تحول مجرى الحوادث في بداية القرن العاشر . اذ شهدت هذه الفترة قيام الفاطميين في شمال افريقية وتأسيسهم خلافةً فاطمية خارجة على الخلافة السنية ومعاديةً لها ، وذلك بترؤسهم لحركة ثورية واسعة النطاق تدعو الى التمرد

والعصيان. فدفع هذا عبدالرحمن الى أن يتخذ لنفسه لقب «خليفة» وما يصحبه من أبهة، ونادى بنفسه مرجعاً أعلى للمسلمين في اسبانيا، محطماً بذلك آخر ما يربطه بالولاء للشرق. وكان حكم عبدالرحمن الثالث بداية الأوج الذي بلغه حكم الأمويين في الأندلس، كما كان عهده فترة استقرار سياسي وسلم داخلي، دان خلالها رؤساء العرب الاقطاعيون، والبربر الجبليون بالطاعة لسلطان الحكومة المركزية. وتلاشت في هذه الفترة المؤثرات الشرقية، وبدأت تظهر حضارة عربية اسبانية متميزة وقع فيها التقليد العربي العريق تحت مؤثرات المحيط المحلي الرقيقة. وفي الوقت ذاته استمرت العلاقات التجارية قائمة مع الشرق. ويدل قيام العلاقات الديبلوماسية مع بيزنطة على قوة الحكومة الأموية ومركزها الرفيع. وواصل الحكم الثاني (٩٦١ – ٩٧٦ م) مشجع الادب والأدباء، الذي جمع مكتبة عظيمة تضم آلاف المجلدات، ووزيره المنصور حاكم البلاد الحقيقي بوجه خاص، مهمة عبد الرحمن في خلق مركزية الحكم وتوحيد الشعب.

وعندما توفي المنصور خلال حكم هشام (٩٧٦ – ١٠٠٨ م) تفككت عرى وحدة الدولة، فقد أفسح تراخي السلطات المركزي المجال لظهور المنافسات المكبوتة بين الطائفتين التاليتين، وهما الأندلسية، وتشمل جميع سكان اسبانيا المسلمين، وطائفة البربر حديثي الهجرة من افريقية الى اسبانيا. وفي فترة الحرب الأهلية والفتن التي تلت ذلك لعب فريق ثالث يعرف بالصقالبة دوراً خطيراً حاسماً. وكانت كلمة «صقالبة» تطلق في باديء الأمر على

العبيد الذين هم من اصل اوروبي شرقي ، ثم أصبحت آخر الأمر تشمل من كان منهم من اصل اوروبي وانخرط في خدمة الخليفة . وكان بينهم عدد كبير من الايطاليين وممن اتوا من الشمال من معاقل المسيحيين التي لم يكن قد شملها الفتح بعد . وكان هؤلاء العبيد يُجلبون في سن مبكرة ، كما كانت غالبيتهم من المسلمين الذين يتكلمون العربية . وفي منتصف القرن التاسع اصبحوا ذوي اهمية متزايدة في الجيش وفي القصر . وبلغ عددهم ، في تقدير أحد المؤرخين ، زمن عبد الرحمن الثالث ، ١٣٧٥٠ عبداً . وأعتق كثيرون منهم ، وتمكنوا من جمع ثروات ومن تحسين مركزهم . وكان الأمويون قد اتخذوا منهم قوة تكبح جماح نفوذ رؤساء العرب الاقطاعيين ، فعينوا كثيرين منهم في مراكز حكومية عالية وفي قيادة الجيش . الا أن تمردهم ونزاعاتهم مع البربر ساعدت كثيراً على اسقاط الخلافة الاموية .

وكان النصف الأول من القرن الحادي عشر فترة تفكك سياسي تجزأت اسبانيا خلاله بين سلسلة من صغار الملوك والامراء ينتمون الى اصول بربرية او صقلبية او اندلسية . ويعرف هؤلاء باسم « ملوك الطوائف » . وتعرضت إسبانيا بسبب هذا الضعف السياسي الى غزو مزدوج : فمن الشمال غزاها المسيحيون يساعدهم الفرنجة ، ومن الجنوب غزاها البربر . وفي سنة ١٠٨٥ اطبقت جيوش الفتح المسيحية الزاحفة على طليطلة التي كان ضياعها بمثابة ضربة مميتة لاسبانيا الاسلامية . لكن على الرغم من ضعف البلاد وتفككها السياسيين فقد كان عهد ملوك الطوائف فترة ازدهار

ثقافي . فكانت دور البلاط خلاله مراكز للمعرفة والفلسفة والعلم والادب ، بينما اتاح سقوط الخـــلافة استئناف العلاقات الفعلية ، سياسية وثقافية ، مع الشرق .

وانتهى حكم ملوك الطوائف بقيـام البربر مرة أخرى بغزو اسبانيا من إفريقية . ودخـــل يوسف بن تاشفين ، مؤسس اسرة المرابطين ، إسبانيا بدعوة من الاندلسيين انفسهم لكي يصد خطر المسيحيين . فلمـــا هزم المسيحيين في سنة ١٠٨٦ م مضى يضم الدويلات الصغيرة الى امبراطورية مراكش . وأفسح المرابطون أنفسهم بدورهم المجال لدولة افريقية جديدة هي دولة الموحدين ، وهم طائفة من البربر شديدو التعصب للدين . وفي هـــذه الاثناء استمر المسيحيون في استرجاع اسبانيا . وفي سنة ١١٩٥ م كسب المسلمون آخر نصر لهم في موقعـــة جرت عند الأرك . ومهدت هزيمة المسلمين في موقعة حصن العقاب في سنة ١٢١٢م لانتصارات مسيحية جديدة بلغت ذروتها في احتلال قرطبة في سنة ١٢٣٦ م ، واشبيلية في سنة ١٢٤٨ م . وتجزأت مملكة المرابطين الى سلسلة جديدة من الدويلات كانت قصيرة العمر . ولم تحل نهاية القرن الثالث عشر حتى كان المسيحيون قد استعادوا شبه الجزيرة باستثناء ولاية غرناطة ، بما في ذلك مدينة غرناطة ، التي ظلت تحكمها دولة اسلامية طيلة قرنين آخرين من الزمن . وهناك ، وفي وهج غروب اسبانيا الاسلامية ، قام قصر الحمراء ، تلك الاعجوبة الفخمة التي هي آخر وأسمى مظهر لعبقريتها الخلاقة . وفي الثاني من يناير سنـــة ١٤٩٢ م احتلت جيوش قشتالة وأرغون مدينة غرناطة ، وصدر

بعد ذلك بزمن وجيز منشور ملكي يقضي بطرد جميع السكان غير الكاثوليك من شبه الجزيرة ، وعاشت اللغة العربية برهة أخرى بين من أجبروا على التحول الى النصرانية . لكن حتى هؤلاء أبعدوا الى افريقية في بداية القرن السابع عشر .

وكانت اسبانيا الاسلامية في أوجها مشهداً يدعو الى الفخر . فقد أغنى العرب الحياة في شبه الجزيرة في نواحٍ كثيرة : ففي الزراعة أدخلوا الري القائم على أسس علمية وعدداً من النباتات والاشجار المثمرة الجديدة مثل الحمضيات والقطن وقصب السكر والأرز . ويعود اكثر الفضل في ازدهار الزراعة في ظل الحكم العربي الى التغييرات التي أحدثوها في نظام ملكية الارض وتطورت على ايديهم صناعات كثيرة كصناعة النسيج والخزف والورق والحرير والفضة وغيرها من المعادن . وكان الصوف والحرير ينسجان في قرطبة ومالقة والمرية ، والخزف في مالقة وبلنسية ، والسلاح في قرطبة وطليطلة ، والجلد في قرطبة ، والطنافس في بسطة وقلسانة ، والورق – والعرب هم الذين جلبوه من الشرق الاقصى – في شاطبة وبلنسية . وكان النسيج – شأنه في اي مكان آخر من بلاد المسلمين يؤلف الصناعة الرئيسية . ونقرأ عن وجود ثلاثة عشر الف حائك في قرطبة وحدها . وأنشأت اسبانيا الاسلامية تجارة خارجية واسعة النطاق مع الشرق ، فكانت الاساطيل التجارية تخرج من قواعدها في الفُرض الاندلسية حاملة حواصل الاندلس الى جميع بلدان البحر الابيض المتوسط. وكانت أسواقها الرئيسية هي بلدان شمال

افريقية وفي مقدمتها مصر ، والقسطنطينية حيث كان التجار البيزنطيون يشترون الحواصل الاسبانية ويبيعونها في الهند واواسط آسيا . وترينا الكلمات العربية التي لا تزال مستعملة في امور الزراعة وفي مختلف المهن مدى قوة التأثير العربي . والاصطلاحات العربية الباقية في اللغة الاسبانية في امور الادارة المحلية وفي التعابير العسكرية خير شاهد على قدرة التقليد العربي على الرسوخ . وفي القرن الرابع عشر خلّد الملك المسيحي الذي استعاد « القصر » عمله بنقش بالعربية يقول : « عزّ لمولانا السلطان ُضنْ بضر تع »[1] . وظلت النقود مدة طويلة بعد استعادة المسيحيين لاسبانيا ذات نماذج عربية . وأسهمت الحضارة الاسبانية العربية بقسط عظيم لا سبيل إلى انكاره في الآداب العربية جملة ، كما ان لها مآثر في كل نوع من فروع التقليد العربي الكلاسيكي الذي هي جزء منه . بل كان ما وصل من التراث اليوناني الى عرب اسبانيا وخاصة في زمن عبد الرحمن الثاني ، يفوق ما وصل اليهم من مصادر محلية . ووضح التأثير المحلي في ميدان الشعر الغنائي ، فأوجد فيه عرب اسبانيا اشكالاً جديدة لم تكن معروفة لدى المسلمين في الشرق ، وكان لها تأثير كبير في أشعار اسبانيا النصرانية الأولى وربما ايضاً في آداب بلدان أوروبا الغربية . ولعل أبرز ما ابتدعته اسبانيا الاسلامية هو في الفن وهندسة البناء اللذين احتذيا في الاساس النماذج العربية والبيزنطية الشائعة في الشرق

---

(١) أنظر Amador de los Rios : Inscriptiones Arabes de Sevilla. (Madrid 1875)

الادنى ، ثم تطوروا تحت تأثير المؤثرات المحلية الى شيء جديد ذاتي اصيل . ويعين لنا جامع قرطبـــة المشهور ، الذي وضع أساسه عبدالرحمن الاول ، نقطة البداية في طراز اسباني عربي جديد قدر له فيما بعد ان ينتج روائع مثل برج جيرالدا والقصر في اشبيلية ، والحمراء في غرناطة .

ويتفاوت تقدير المؤرخين الاسبان وحماستهم ، كما هو متوقع ، لما تركه الاحتلال العربي من آثار باقية في حياة اسبانيا ونظمها . ويسرد العالم الاسباني المعاصر (سانشز ألبورنز) في مقال رصين النتائج المضرة الباقية ، في نظره هو ، لسهر اسبانيا الطويـل على حماية الغرب ضد زحف المسلمين ، والمجهود الشاق الذي تكبدته في سبيل استعادة شبه الجزيرة . وأولى هذه النتائج هي تجزؤ البلاد السياسي . فقد قضت عمليتا فتح شبه الجزيرة ثم استعادتهـــا على وحدتها السياسية التي احرزت قدراً كبيراً من التقدم في ظل الحكم الروماني ، ونتج عن استرداد البلاد قطعة فقطعة ان تجـــددت روح الانفصالية الاسبانية القديمة ، وأن تخلفت اسبانيا مراحل وراء باقي اوروبا في مضمار التطور السياسي ومركزية الحكم. ورافق هذا التأخر السياسي تأخر اقتصادي أورثها اياه استنزاف قواها في عملية استرجاع البلاد الشاقة ، فلم يبق لديها من القوة ، ان كان قد بقي شيء منها ، ما يعينها على الارتقاء بالتجارة والصناعـة اللتين تعطلتا على اي حال بسبب انتقال اسبانيا من محيط البحـر الابيض المتوسط وافريقية ، الذي كانت تابعة له في ظل الحـكم العربي ، الى عالم غرب اوروبا . فقد أصبحت في هذا المحيط الجديد

بلداً مستجداً متخلفاً وراء غيره من البلاد في مضمار التطـــور ، ويعيش لسوء الحظ ، على هامش الحياة فيه . ويقول هذا الكاتب اخيراً : « لم يؤخر تأثير الحكم العربي المشؤوم لاسبانيا حياتهـــا الاقتصادية فحسب بل وتنظيمها السياسي ايضاً . وأحدث ، حتى في أدق خلجات النفس الاسبانية ، ردود فعل مثقلة بأسوأ الآثار » .
وظهرت في اسبانية نتيجة للمجهود الشاق الذي بُذل لاستردادها عقلية حربية مغامرة ، وضعفٌ في الادراك السياسي ، حفـــزا الاسبان الى تبديد قواهم في حملات عسكرية غير مثمرة من اجل التوسع الاستعماري ، بينما احدث طابع الحرب الديني تضخماً وبيلاً في رجال الدين والنفوذ الاكليركي اصبح آفة الحيـاة السياسية في اسبانيا . وهناك قالة يرددها علماء الاسبان وفحواها أنه بينما كانت حضارة الخلافة بلا شك غنية منوعة وأغنى في الواقـــع من حضارات اوروبا السائدة آنذاك - فانها لم تعوض عن هـــذه الاضرار ، لان الجزء الأكبر منها أُبعد من البـلاد مع العرب انفسهم ، واقتصر أثرها في اسبانيا النصرانية بشكل محـــدود على الحياة الثقافية التي قامت على الدول المستقلة في الشمال الذي سـلم من الفتح ، أكثر مما قامت على ثقافة مسلمي الجنوب الزاهرة .
حقاً لقد كان تأثير العرب الدائم في اسبانيا اصغر شأناً منه ، على سبيل المثال ، في فارس . فلا تزال جميع الالفاظ الاصطلاحية المتصلة بالثقافة والحياة الروحية في فارس ، على وجـه التقريب ، عربية . لكن حتى الكلمات الكثيرة الباقية ذات الاتصال بالحياة المادية ترينا دين اسبانيا الهـــام للعرب في المسائل الاقتصادية

والاجتماعية ، والى حد ما في الامور السياسية كذلـــك . وفي ميدان الثقافة ايضاً يجب اعتبار التراث العربي ذا أهمية كبـــيرة لاسبانيا وفي الواقع لجميع غرب اوروبا . فقد كان يؤم اسبانيـا مسيحيون ينتمون الى بلاد كثيرة ليدرسوا جنباً الى جنب مـع الاسبانيين الوطنيين على اساتذة مسلمين ويهود يتكلمون العربية . وعرف الغرب جزءاً كبيراً من تراث الاغريق القدماء لأول مرة من طريق الترجمات التي وجدت في اسبانيا . وكانت مدينـــة طليطلة التي استردها الاسبان في سنة ١٠٨٥ اول واعظم مركز لنقل الثقافة من الاسلام الى النصارى في الغرب .

وبقي في طليطلة كثـــير من علماء المسلمين انضافت اليهم في الحال اعداد كبيرة من اليهود لجأوا اليها من الجنوب الواقـع تحت سيطرة المسلمين ، والذي أصبح الآن خاضعاً لحكم الموحدين غير المتسامحين الذين ادخلوا الاضطهاد الديني العنيف الى اسبانيا الاسلامية ، وأجبروا كثيراً من اليهود عـلى أن يبحثوا لأنفسهم عن مأوى مؤقت في طليطلة التي كان يسودها جو اكثر تسامحاً . وأخرجت مدارس الترجمة في طليطلة خـلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وخاصة خلال حكم ألفونسو الحكيم ، ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ - ١٢٨٤) عـــدداً ضخماً من المؤلفات بينها كتاب المنطق لأرسطو وكثير من مؤلفات إقليدس وبطليموس وجالينوس وابقراط . وغنيت هذه الترجمة بما أضافه اليها شراحها العرب ومن جاء بعدهم . وكان التراجمة في العادة يعملون بمساعدة مواطنين يتكلمون لغتين ، وكان بينهم كثير من اليهود وعلمـاء

اسبانيون وأجانب ، نذكر منهم دومينجو ُجند يسلافي ، ويهوداً ممن دخلوا في الاسلام مثل يوحنا الاشبيلي وبطرس الفونسي ، ومترجمين من بـــلاد اخرى مثل جيرارد القريموني من ايطاليا ، وهيرمن الدالماطي من المانيا ، وبريطانيين مثل أديلارد أوف باث ودانيال من مورلاي وميخائيل سكوت .

وقد ترك العرب طابعهم في اسبانيا : في فنون الفلاحين واصحاب المهن الاسبانيين ، وفي الكلمات التي يصفون بها هذه الفنون ، وفي الفن وهندسة البناء ، وفي موسيقى شبه الجزيرة وأدبها ، وفي علوم اوروبا وفلسفتها في العصور الوسطى ، بعد أن أغنوا هـــذين الأخيرين بما نقلوه من تراث الماضي باخلاص وزادوا فيه . اما بالنسبة للعرب أنفسهم فقد ظلت ذكرى اسبانيا الاسلامية ماثلة بين من نفوا إلى شمال افريقية ، ولا يزال كثيرون منهم يحملون أسماء أندلسية بل ويحتفظون بمفاتيح بيوتهم في قرطبة واشبيلية معلقة على جدران منازلهم في مراكش والدار البيضـاء ، ومنذ زمن قريب قام زائرو اسبانيا من الشرق ، مثل الشاعر المصري احمـد شوقي والعالم السوري محمد كرد علي ، بتذكير عرب الشرق بمآثر اخوانهم الاسبانيين العظيمة ، وأعادوا ذكرى اسبانيـــا الاسلامية الى مكانها الجديرة به في وعي العرب القومي .

الفصل الثامن

الحضارة الاسلامية

« والى لسان العرب نقلت العلوم من اقطار العالم فازدانت وحلت في الافئدة وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة » البيروني .

نمَت خلال فترة الأوج التي بلغتها الامبراطوريات العربية والاسلامية في الشرقين الادنى والاوسط حضارة زاهرة تعرف عادةً بالحضارة العربية . ولم يأتِ العرب بها معهم من الصحراء جاهزة ، لكن خلقها بعد الفتوح تعاونُ أمم عديدة من عرب وفرس ومصريين وغيرهم ؛ بل لم تكن اسلامية خالصة ، اذ كان بين مُبدعيها نصارى ويهود وزرادشتيون كثيرون . إلا أن أداة التعبير الرئيسية فيها كانت اللغة العربية ، كما أن الاسلام ونظرته الى الحياة سيطرا عليها . وكان هذان الشيئان ، أي اللغة والدين ، اعظم ما قدم العرب الفاتحون الى الحضارة الجديدة الاصيلة التي نمت تحت لوائهم .

والعربية احدى اللغات السامية . وهي من عـــدة وجوه اغناها . وقد كان العرب قبل الاسلام شعباً بدائياً ذا نمط في الحياة ضيق بدائي ، وعلى شيء قليل من التعلم او الثقافة الشكلية . ويكاد الا يكون لهم آثار مكتوبة . الا انهم كانوا قد ارتقوا الى لغة شعرية وآثار غنية غنى بارزاً ، وشعر له أوزان متقنة معقـــدة ، وقافية وصناعة كلامية ، ودقة في الصيغة عريقة صارت انموذجاً لأكثر الشعر العربي فيما بعد . وشعرهم هذا بما فيه من وفرة في العاطفة والخيال ، وقلة محدودة في الموضوعات ، تعبير صادق عن حيـــاة البدو ، يتغنى بالخمر والحب والحرب والقنص والفلوات المرعبة من جبال وصحارى ، وبشجاعة رجال القبائل انفسهم ، وبجبن اعدائهم وخستهم . وكما هو منتظر فهو ليس بادب تجريد او فكر خالص .

وجعلت الفتوح اللغة العربية لغة الحكم . وسرعان ما صارت أيضاً لغـة ثقافة عظيمة منوعة . وتوسعت اللغة العربيـــة لتسد هاتين الحاجتين بأن استعارت ألفاظاً وتعابير جديدة في أقل الاحيـان ، وبأن تطورت من ذاتها في أغلب الاحيان ، فبنت من الاصول القديمة كلمات جديدة ، وجعلت للالفاظ القديمة معاني جديدة ، وكمثال على هذا التطور نستطيع ان نختار الكلمة العربية « مجرد » ، وهي تعبير عن مفهوم لم تكن للعرب قبـل الاسلام حاجة اليه بالمرة . وهي اسم المفعول من « جرّد » أي عرى ، كما انهـــا اصطلاح يستعمل عادة للجراد ومرتبط بكلمتي جرادة وجريدة وهي الورقة . وصار للغة التي أوجدت بهذه الطريقـــة

ألفاظ حية واضحة المعالم قوية الصور ، ولكل منها جذور عميقة في ماض وتراث عربيين صرفين . ويسرت للافكار ان تصل مدلولاتها الى العقل مباشرة ودون التواء ، عن طريق كلمات بينة مألوفة متغلغلة تغلغلاً غير مقيد الى طبقات الوعي العميقة ومنها .

وبقيت اللغة العربية ، وقد غنيت على هذا الشكل ، الأداة الوحيدة للثقافة مدة طويلة بعد سقوط الدولة العربية الصرفة . ومع لغة العرب جاء شعرهم كمثال ادبي،وجاء عالم الافكار التي يضمها؛ وهو محسوس غير مجرد على الرغم من انه في احيانٍ كثيرة يغدو خفياً كثير الاشارات ، وهو بليغ وحماسي الا انه ليس من صميم النفس ، كما انه ذو طابع شخصي . ومع انه عامر بالتكرار والعاطفة المتفجرة الا انه ليس شعرا قصصيا ولا يدور حول موضوع واحد ، وهو ادب لوقع الكلمات فيه والشكل أهمية تفوق اهمية التعبير عن الافكار . وتتجلى الاعجوبة الحقيقية للتوسع العربي في تعريب الولايات المفتوحة اكثر مما تتجلى في حروب الفتح نفسها . فحين حل القرن الحادي عشر اصبحت اللغة العربية ، بالاضافة الى كونها اللغة الرئيسية للتعبير عن امور الحياة اليومية من فارس الى جبال البرت ، الاداة الرئيسية للثقافة ، وحلت محل لغات الثقافة القديمة كاللغة القبطية والآرامية واليونانية واللاتينية . وبانتشار اللغة الغربية اصبح التمييز بين العرب الفاتحين وبين المغلوبين المستعربين واهياً قليل الاهمية نسبياً . وبينما كان جميع الذين يتكلمون العربية يبدون كأنهم ينتمون الى جماعة واحدة عاد لفظ « العربي » يحدد مرة ثانية بالبدو الذين عُرفوا به

أصلًا أو أصبح دلالة على رفعة النسب دون ان تكون له قيمة اقتصادية او اجتماعية .

بل إن اللغة العربية أثّرت تأثيراً واسعاً في اللغات الاسلامية الاخرى فيما وراء المناطق الواسعة التي تعربت بصورة ثابتة . فالفارسية والتركية الاسلاميتان ، والأردية فيما بعد أيضاً ، ولغة الملايو والسواحلي كلها لغات جديدة تصطنع الخط العربي وتضم مفردات عربية كثيرة جداً تشبه في كثرتها العناصر اليونانية واللاتينية في اللغة الانجليزية ، وتتناول جميع عالم التصورات والافكار .

ثم إن بقاء اللغة العربية واتساعها يعني شيئاً أبعد من اللغة ذاتها ، فهو مثلًا أبعد اثراً من استمرار استعمال اللغة اللاتينية في الغرب زمن العصور الوسطى . فقد صاحب اللغةَ ذوق العربي وسُنَنُه في اختيار الموضوعات وتناولها . ومما يوضح هذا أن نقارن بين الشعر الذي كتبه الفرس بالعربية حتى القرن الحادي عشر والشعر الذي كتب بالفارسية فيما بعد ، عندما نمت في فارس الاسلامية ثقافة اسلامية مستقلة . فالشعر الفارسي العربي يختلف في امور كثيرة ذات شأن عن شعر العرب انفسهم فيما سبق ، ولكنه في اساسه يوافق الذوق العربي ،ولا يزال العرب يعتزون به ويعدونه جزءاً من تراثهم . وهو خالٍ من الشعر القصصي والغنائي الذاتي الموجود في الشعر الفارسي فيما بعد .

ولم يكن الاسلام، الذي هو وليد بلاد العرب والنبي العربي، منهجاً للاعتقاد والعبادة فقط ، بل كان منهجاً للدولة والمجتمع

والشريعة والفكر والفن. كان حضارة فيها عامل يوحدها ويسيطر عليها في النهاية وهو الدين. ومنـــذ الهجرة صار الاسلام لا يعني الخضوع للدين الجديد فحسب بل للجماعة – وهو من الناحية الفعلية خضوع لسلطان المدينة والنبي، ثم اصبح فيما بعـــد خضوعاً لسلطان الدولة والخليفة. وكان الاسلام في بادىء الامر دلالة على «الجنسية» العربية ثم صار فيما بعد دلالة عـــلى المواطن ذي المقام الأعلى في الدولة. وكان قانونه هو الشريعة، وهي القانون المقدس الذي استنبطه الفقهاء من القرآن وأحاديث الرسول. ولم تكن الشريعة مجموعة أمْرِيّةً * للقانون فحسب، بل كانت في مناحيها الاجتماعية والسياسية نموذجاً للسلوك كذلك، ومثلاً أعلى، على الناس والمجتمع أن يسعوا اليه. ولم يعترف الاسلام بأي سلطة تشريعية اخرى ما دام القانون لا يصدر إلا عن الله فقط من طريق الوحي. إلا أن القانون العرفي والتشريع المدني وإرادة الحاكم بقيت بصورة غير رسمية، وكان يحدث أن تنال في بعض الاحيان اعترافاً محدوداً لدى الفقهاء. ونظمت الشريعةُ الموحى بها من الله كل جانب من جوانب الحياة. فبالاضافة إلى العقيدة والعبادة نظمت القانون العام الدستوري والدولي والقانون الخاص الجنائي والمدني. واوضح ما تكون شخصيتها المثالية في الناحية الدستورية. فرئيس الجماعة، بحسب الشريعة، هو الخليفة، وهو نائب من الله مُنْتَخَب، له اليد العليا في كل الامور العسكرية والمدنية والدينية. ويقوم بواجب الابقاء على تراث الرسول الروحي والمادي سليماً. ولم يكن

* normative

للخليفة نفسه سلطان روحي . فكان لا يقدر ان يغير في العقيدة وان يضع عقيدة جديدة . ولم تكن تسنده طبقة كهنوتية ، بل كانت تساعده طبقة من العلماء ، شبه كهنوتية ، وهم الفقهاء الذين كانت تقتصر سلطتهم على التفسير والتأويل . لكن الخليفة اصبح بالفعل ، منذ ان حل القرن التاسع ، ألعوبة في يد القادةالعسكريين والمغامرين السياسيين وفي القرن الحادي عشر ظهر الى جانب الخليفة السلطانُ كحاكم دنيوي ، واقر الفقهاء السلاطين على وضعهم الجديد ، غير راضين ، على أساس الاقرار بالامر الواقع . ويمكن ان نرى التباين نفسه في امر تطبيق القانون . فالى جانب القاضي ، الذي كان يقوم على تنفيذ القانون المقدس ، كانت هنالك محاكم دنيوية غرضها الواضح هو تناول القضايا التي لا تنطوي تحت تشريع القاضي ، وردّ المظالم التي تنشأ عن الاستبداد بالسلطة .

وبطبيعة الحال وقعت هاتان الهبتان اللتان قدمها العربي – اي اللغة والدين – منذ اقدم الازمنة تحت مؤثرات خارجية . وحتى في الشعر الجاهلي والقرآن نجد كلمات دخيلة ؛ وقد تضخم عدد هذه الكلمات في فترة الفتوح . وتبين المصطلحات الادارية من الفارسية واليونانية ، والمصطلحات اللاهوتية من العبريةوالسريانية ، والمصطلحات العلمية والفلسفية من اليونانية ، أثر الحضارات القديمة الهائل في الحضارة الجديدة التي كانت على وشك ان تولد . والمجتمع الاسلامي في فترة ازدهار الحضارة كان تطوراً مركباً يضم في ذاته عناصر كثيرة من أصول مختلفة : فكان يضم أفكاراً نصرانية ويهودية وزرادشتية

عن النبوة والدين الشرعي والثواب والعقاب والصوفية ، وأساليب ساسانية وبيزنطية في الادارة والحكم، ولعل أهمها هو تأثير الحضارة الهلينستية وخاصة في العلوم والفلسفة والفن والعمارة بل وفي الأدب الى حد ضئيل . وكان التأثير الهلينستي عظيماً الى حد وصف معه الاسلام بأنه الوريث الثالث للتراث الهلينستي الى جانب النصرانية واليونانية واللاتينية . لكن هيلينستية الاسلام كانت هلينستية الشرق الادنى المتأخرة التي جعلتها المؤثرات الآرامية والمسيحية شبه شرقية ، والتي هي استمرار غير منقطع للعالم القديم اكثر من كونها بعثاً جديداً لأثينا القديمة كما كان الحال في الغرب .

ولم تكن الحضارة الاسلامية ، رغم تنوع اصولها هذا ، مجرد تجميع آلي للثقافات القديمة ، بل هي بالاحرى خلق جديد انبثت فيه جميع هذه العناصر لتكون حضارة جديدة اصيلة ، وذلك بان انتقلت الى صور عربية اسلامية . وهذه العملية سمة مميزة لكل مرحلة من مراحل تطور هذه الحضارة .

واعظم مآثر العرب في نظرهم واولها في حساب الزمن هو الشعر مع ما يصحبه من فن الخطابة . وقد كان للشعر قبل الاسلام وظيفة عامة واجتماعية . وكثيراً ما كان يبدو الشاعر ، مداحاً كان او هجّاءً ، ذا أثر سياسي خطير . وفي العهد الاموي جمعت الاشعار التي كانت تتناقل مشافهة ، ومن ثم اتخذت انموذجاً لما احرزه الشعر من تطور فيما بعد . وغني الشعر العربي زمن العباسيين بمساهمة عدد من غير العرب فيه وخاصة من الفرس ، الذين كان اول من نبغ منهم بشار بن برد الاعمى الموهوب (توفي سنة ٧٨٤م) واستطاع

هؤلاء خلال فترة من الزمن ان يغلبوا ما ادخلوه من موضوعات واشكال جديدة على النماذج الجاهلية وذلك بعد عراك مرير بين الأقدمين والمحدثين . لكن حتى هؤلاء المجددون انفسهم كانت تقيدهم ضرورة تكييف انفسهم حسب الذوق العربي بين الحكام والطبقة الرفيعة الحاكمة. واستسلموا آخر الامر أمام انتصار حركة كلاسيكية حديثة ،وكان اعظم حاملي لوائها المتنبي(٩٠٥-٩٦٥م) الذي يعتبره العرب اعظم شعرائهم .

والقرآن ذاته اول نص في الادب النثري العربي الذي أنتج في القرون الاولى من الحكم الاسلامي نثراً مسجوعاً ومرسلاً كان اغنى ما يكون في الادب والرسائل . واعظم كتاب الرسائل ، بل وأعظم كتاب النثر العربي كان عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ (وتوفي ٨٦٩ م) . وكان الجاحظ من اهـل البصرة وحفيداً لمملوك أسود، ولكن سعة اطلاعه واصالته وسحر كتابته تجعل له مكاناً فريداً في الآداب العربية . وقد كان العلم والتعلم في الاصل أمرين دينيين. وقد نشأ علم النحو واللغة من الحاجة الى تأويل القرآن وتفسيره. وكان الورعون من أصحاب المدرسة القديمة في المدينة يقصرون انفسهم على العلوم الدينية البحتة : وهي تفسير القرآن واستنباط الاحكام وتدوين الحديث . وأدى هـذا العلم الاخير الى نشوء المذاهب الاسلامية في الفقه والتاريخ التي نبعت من مادة الحديث في التشريع والسيرة . ونما اولهما ، وهو الفقه ، حتى صار مدونة واسعة مهذبة للشريعة الفقهية . اما التاريخ عند العرب فقد بدأ بسيرة الرسول التي غنيت في البداية بتدوين أخبار العرب التاريخية

الجاهلية السماعية ، وفيما بعد وبوجه خاص باحتذاء تاريخ ملوك آل ساسان الذي عرفه العرب بطريق الفرس المسلمين . وللعرب حاسة تاريخية قوية . وسرعان ما صاروا يكتبون تواريخ ضخمة متعددة المناهج كالتواريخ العامة والمحلية وتواريخ الاسر والقبائل والخطط. وأقدم كتب التاريخ العربية لا تزيد على ان تكون مراجع كتبت على صورة مدونات الحديث ، وتتألف من روايات شاهد عيان مصدرة بسلسلة من سند الرواة . ومن هذه الروايات الاخبارية والتي كانت احياناً تفسيرية تطوّرَ التاريخ الذي بلغ أوجه في تاريخ ابن خلدون (١٣٣٢ – ١٤٠٦) أعظم مؤرخي العرب ، ولعله أعظم مفكر تاريخي في العصور الوسطى.

وقد كان الأدب الديني عرضة لمؤثرات نصرانية قوية وخاصة في الفترة الأولى . ودخل في الحديث كثير من مادة كتب الوحي النصرانية والتلمود . وبدأ الأدب الديني الحقيقي تحت مؤثرات النصرانية السريانية ، وفيما بعد ، تحت مؤثرات الفكر اليوناني . وكان المؤثر اليوناني اساسياً في الفلسفة وجميع العلوم: في الرياضيات والفلك والجغرافيا والكيمياء والطبيعيات والتاريخ الطبيعي والطب . وشهد التعلُّم ، بسبب ما بذل من مجهود هائل في ترجمة الكتب اليونانية ، إما مباشرة من الأصل او من ترجمات سريانية ، نموّاً جديداً في القرنين التاسع والعاشر . وكانت المدارس اليونانية قد بقيت في الاسكندرية وانطاكية واماكن اخرى ، وفي الكلية الفارسية في جنديسابور التي أنشأها نساطرة لاجئون من بيزنطة في فارس الساسانية . وبدأت حركة الترجمة في ظل الأمويين عندما

ترجمت بعض المؤلفات اليونانية والقبطية في الكيمياء . وفي عهد عمر الثاني قام ماسرجويه ، وهو يهودي من اهل البصرة ، بترجمة كتب طبية باللغة السريانية الى العربية ، فوضع بذلك اسس علم الطب عند العرب . وكان المترجمون في العادة نصارى ويهوداً اكثرهم من السوريين . وكانت الترجمة في ظل الامويين متقطعة وتقوم على مجهود الافراد ؛ اما في زمن العباسيين فقد نُظمت وظفرت بتشجيع الدولة. واعظم فترة ازدهرت خلالها الترجمة هي القرن التاسع وخاصة في عهد المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) الذي اسس مدرسة للتراجمة في بغداد تضم مكتبة وتعنى بشؤونها هيئة نظامية . وكان حنين بن اسحق (٨٠٩ – ٨٧٧) واحداً من اشهر المترجمين ، وهو طبيب نصراني من جنديسابور قام بترجمة كتب جالينوس الستة عشر وفصول ابقراط الطبية ومؤلفات اخرى كثيرة . وتناول مترجمون آخرون الفلك والطبيعيات والرياضيات ومواضيع اخرى . وكانوا يترجمون من اليونانية الى السريانية او كما كان يحدث غالباً ، الى العربية . وكان الخلفاء يبعثون العلماء الى مختلف النواحي ، وحتى الى بيزنطة ، للبحث عن المخطوطات .

ووضع بعض هؤلاء المترجمين الأولين كتباً من تأليفهم كانت في العادة مختصرات للاصول اليونانية وشروحاً عليها . الا انه سرعان ما ظهر جيل من المؤلفين المسلمين المبتكرين ، وخاصة من بين الفرس ، مثل الطبيب الرازي (٨٦٥ – ٩٢٥ م) والطبيب الفيلسوف ابن سينا (٩٨٠ – ١٠٣٧) والبيروني (٩٨٣ –

١٠٤٨م) وهو اعظمهم ، وكان طبيباً وفلكياً ورياضياً وطبيعياً وكيميائياً وجغرافياً ومؤرخاً . وكان عالماً متعمقاً مبتكراً وواحداً من اعظم رجال الفكر في الاسلام خلال العصور الوسطى .

وفيما يختص بالطب لم يتعرض العرب لنظرية اليونان الاساسية لكنهم أغنوها بملاحظاتهم العملية وتجاربهم الطبية . أما في الرياضيات والطبيعيات فمآثرهم اعظم من ذلك بكثير واكثر اصالة . فقد أدمج الصفر والارقام المعروفة بالعربية ، مع أنها لم تكن عربية في الاصل ، في مادة النظريات الرياضية ، على أيديهم ، ونقلوها من الهند الى اوروبا . وقد تم تطور الجبر والهندسة والمثلثات الى حد كبير على ايديهم .

اما في الفلسفة فقد كان ادخال الافكار اليونانية ذا اهمية عظيمة . وادخلت اول مرة ، زمن المأمون ، عندما اثرت ترجمات مؤلفات ارسطو في اتجاه الاسلام الفلسفي والديني كله ، كما اثرت في كتابات عدد كبير من المفكرين المسلمين المبتكرين نذكر منهم الكندي (توفي حوالى ٨٥٠ م) وهو بطريق الصدفة العربي الوحيد البحت فيهم ، والفارابي (توفي ٩٥٠ م) وابن سينا (توفي ١٠٣٧ م) وابن رشد (توفي ١١٩٨ م) .

وهناك قالة شائعة جرى الناس على تأكيدها ، وهي انه بينما قام الشرق وحده بحفظ التراث الاغريقي القديم في الفلسفة والعلم فانه تجاهل التراث الادبي والفني الذي لم يعرف الا في الغرب . لكن ، إن صدق بعض هذا القول فلا يصدق كله . إذ أن العرب واصلوا التقليد الاغريقي - الروماني في الفن وهندسة البناء ،

لكنهم ما لبثوا أن حولوه الى شيء غني وغريب . كما قَوِيَ في الاسلام اتجاه الفن البيزنطي نحو المشاهد المعنوية والشكلية . وأدى انصراف المسلمين عن تصوير الكائنات البشرية في آخر الأمر الى قيام فن ذي زخارف كتابية وهندسية .

ودَيْن الفن الاسلامي للمؤثرات والمآثر الفارسية والصينية كبير . ففي فنون الزخرفة والصناعة نستطيع أن نتبيَّن بوضوح جانبَيْ الاقتباس والأصالة في الحضارة الاسلامية . فالناظر الى جدران قلاع الامويين في سورية وإلى ما كشفته اعمال الحفريات في العراق ومصر من أدوات وغيرها يستطيع أن يتبين كيف قام العرب أولاً باستعارة الأعمال الفنية - بل والفنانين أنفسهم - من الحضارات الاخرى ، ثم كيف اكتفوا بتقليدها ، وأخيراً كيف صهروها وكيفوها وخلقوا منها شيئاً جديداً أصيلًا منتجاً . فالتحف الخزفية التي عثر عليها في حفائر العراق ، والتي تعود إلى القرن التاسع مثلًا ، تعرض لنا في وقت واحد استمرار الأساليب البيزنطية والساسانية الى جانب الأدوات المجلوبة من الصين والأدوات التي قلد بها العرب هذه ، وكذلك التحف التي أصابها التطور بفضل التجربة مع النماذج الموروثة والمجلوبة . ولعل أهم مآثر الفن الاسلامي هو الخزف الجميل ، ذو البريق المعدني ، الذي انتشر في ظل الاسلام من الصين الى اسبانيا . وعلى النهج ذاته ارتقى رجال الصناعة المسلمون بالفنون المعدنية وفن الحفر على الخشب والتحف العاجية والزجاجية وبالنسيج والسجاد فوق كل شيء . فقد قاموا أولاً باستعارتها من غيرهم ثم قلدوها وأخضعوها لتجاربهم . وأخيراً

ثم لهم ابتكار اساليب جديدة ذاتية متميزة يسهل التعرف الى انها اساليب اسلامية .

ومن الحضارات القديمة ايضاً جاءت فكرة الكتاب كوحدة مادية تضم مجموعة مجلدة من الصفحات لهـا عنوان وموضوع ، وبداءة ونهاية،وصارت فيما بعد تشتمل على رسوم وجلود مزخرفة. وكان المؤلف الادبي ينشر في اول الامر بطريق المشافهة والالقاء، وظلت الكلمة المحكية زمناً طويلاً السبيل الوحيد المعروف لنشر الكتب . وبتضخم المؤلفات الادبية واتساع مادتها ، اصبح من الضروري اللجوء الى تدوين ملاحظات لم تلبث ان تطورت الى املاء، ثم الى مسوّدات ، واخيراً الى الكتاب بصورته الحاضرة . واعان على هذا التطور جلب الورق من الصين في القرن الثامن من طريق اواسط آسيا . وبذلك اتسع انتاج الكتب ورخصت اثمانها . ويمكن مقارنة الورق من حيث تأثيره في الحياة الثقافية بتوسع نطاق الطباعة في الغرب فيما بعد ، ولو ان تأثير استعمال الورق كان على نطاق اضيق .

وادى قبول الاسلام للتراث اليوناني الى قيـــام نزاع بين اصحاب النزعة العقلية للتعلم الجديد من جهة وبين أصحاب نظرية الجوهر أو الاشراق من مفكري الاسلام من الجهة الاخرى . وخلق المسلمون من الفريقين خلال فترة النزاع ثقافة غنية منوعـة لاكثرهـــا أهمية باقية في تاريخ الجنس البشري . وانتهى النزاع بانتصار وجهة النظر الاقرب الى الفكر الاسلامي البحت . ولمـا كان الاسلام جماعة كيّفها الدين فقد نبذوا القيم التي كانت تهـدد

افتراضاتهم الاساسية ، لكنهم في الوقت ذاته قبلوا نتائجها وارتقوا بهذه النتائج بالتجربة والملاحظة . وكان من الجائز أن تتمخض الاسماعيلية ، وهي ثورة الاسلام التي لم يقيض لها ان تنتهي الى غايتها ، عن قبولها التام للقيم الهيلنستية مبشرة بقيام نهضة انسانية من النوع الغربي وأن تتغلب على مقاومة القرآن باللجوء الى التأويل الباطني ، وعلى مقاومة الشريعة بما يتمتع به الامام من حرية تامة في العمل . لكن القوى التي كانت تعضدها لم تكن كافية ، ففشلت في تلك اللحظة عينها التي بلغت فيها اوج نجاحها .

ومن العبث ان نحاول تحليل خصائص الامم على الرغم مما في ذلك من متعة ، اذ انه يلقي في العادة ، من الضوء على المحلل اكثر مما يُلقي على الموضوع المراد تحليله . فالامة نظام معقد ومتشعب الى حد كبير يتعذر معه اخضاعه للاختبار الاحصائي الدقيق الذي بدونه لا نستطيع ان نقيم الدليل على اي قول علمي ذي شأن . وتعترضنا صعوبة اكبر عند تناول حضارة بعيدة عنا من حيث الزمان والمكان سبيلُنا الرئيسيّ الى معرفتها هو آثارها الادبية . ويكاد الادب العربي في العصور الوسطى ان يكون بكليته نتاج اقلية حاكمة تتمتع بامتيازات خاصة ، تشمل فيما تشمل فن الكتابة والاستئثار برعاية الادب . أما عامة الشعب ، فقد لاذت بصمت لا تتخلله غير تلك الاصداء القليلة الخافتة لأصواتها . لكن على الرغم من هـذا التحفظ نستطيع أن نستخلص خصائص مثالية معينة ، إن لم تميز العرب ، فانها على الاقل تميّز حضارة الاسلام السائدة في العصور الوسطى كما تتجلى في فن العرب وآثارهم الادبية .

وأول خاصة تسترعي انتباهنا هي القدرة الفريدة للثقافة العربية على هضم العناصر المختلفة وتمثيلها — تلك القدرة التي وصفت خطأ بأنها تقليد فحسب — إذ وحّدت الفتوحات العربية ، لاول مرة في التاريخ ، المناطق الواسعة الممتدة من حدود الهند والصين حتى مشارف اليونان وايطاليا وفرنسا . واستطاع العرب ان يوحدوا لمدة من الزمن ،بقوتهم العسكرية والسياسية ، ولمدة اطول بلغتهم وعقيدتهم ، في جماعة واحدة ، بين ثقافتين متنازعتين : وهما التقليد المتنوع للبحر الابيض المتوسط في الالف السنة الاولى قبل الميلاد ، وهو تقليد اليونان والرومان والاسرائيليين واهل الشرق الادنى ، وحضارة الفرس الغنية بنماذجها الحياتية الخاصة وفكرها واتصالاتها المثمرة بثقافات الشرق الاقصى العظيمة . ومن امتزاج شعوب وعقائد وثقافات كثيرة داخل نطاق الجماعة الاسلامية وُلدت حضارة جديدة اصولها متنوعة ومبدعوها متنوعون ، لكنها تحمل في جميع مظاهرها طابع الاسلام الخاص .

ومن تنوع الجماعة الاسلامية هذا تظهر لنا خاصة ثانية تستلفت نظر الأوروبي بوجه خاص — وهي تسامحها النسبي . فالمسلم في العصور الوسطى ، على عكس معاصريه في الغرب ، قلما شعر بالحاجة الى فرض عقيدته بالقوة على جميع الخاضعين لحكمه . وكان مثلهم على يقين تام من ان الذين كانوا يخالفونه في العقيدة سيذهبون يوم الحساب الى النار . ولكنه ، على عكسهم ، لم يَرَ ضرورةً لـعجّل الحساب في هذه الدنيا . وفي الغالب كان يقنع بأن يكون صاحب العقيدة المسيطرة في جماعة يدين اهلها بعقائد كثيرة .

واكتفى بأن فرض على الآخرين قيوداً اجتماعية وقانونية معينة، دلالة على سيادته، وأقام لهم رادعاً فعالاً يعيدهم الى صوابهم كلما حدثتهم انفسهم بالتمرد. وفيما عدا هذا ترك لهم حريتهم الدينية والاقتصادية والفكرية، وأتاح لهم فرصة للمساهمة الفعّالة في بناء حضارته.

وكان المسلمون في العصور الوسطى، كغيرهم من أهل الحضارات الاخرى، كلها تقريباً، مؤمنين بتفوق حضارتهم وبكفاية مقوماتها الدينية. وساعدتهم نظرتهم التاريخية الى النبوة، التي تجعل اليهودية والمسيحية حلقتين سابقتين لها، ساعدتهم على اعتبار اليهود والنصارى أصحابَ نصوص دينية قديمة ناقصة من شيء هو في حوزتهم بتمامه. وبخلاف المسيحية التي ظلت قروناً تسعى لكسب اتباعها كدين للفئات الضعيفة والمحرومة، وذلك قبل أن تصبح عقيدةً رسمية للامبراطورية الرومانية، أصبح الاسلام في حياة موجده الدستورَ الموجِّهَ لجماعة متوسعة منتصرة، وتمكنت فتوح الاسلام الهائلة التي تمت خلال الاجيال الاولى التكوينية من ان تغرس في نفوس المؤمنين الاعتقاد بأنهم متقدمون لدى الله، بدليل ما تتمتع به الجماعة الوحيدة المؤمنة بالتعاليم الالهية في هذه الدنيا من قوة وسيطرة. وللمسلمين ان يتعلموا الكثير من حكماء اتباع الديانات الاخرى، لكن المحك الاخير لما يتعلمونه هو الشريعة التي قدسها الوحي المباشر واقام الدليل على قدسيتها نجاح اتباعها.

وكثيراً ما تُصطنع كلمة «ذرّي (١)» لتصف مسلكاً في

(١) atomistic

التفكير واتجاهاً في النظر العقلي ظاهرين في نواحٍ عديدة من الحضارة العربية، بل ومسيطرين عليها في المراحل الاخيرة من تاريخ العربي.
ويقصد بهذا الميل الى النظر إلى الحياة والكون على انها سلسلة متتابعة من وحدات ساكنة محسوسة متفرقة، متصلة اتصالاً واهياً بنوع من الارتباط الآلي بل العرضي بواسطة ظروف معينة او تفكير فردي، ولكنها ليست متداخلة تداخلاً عضوياً ذاتياً. ومع ان هذا الاتجاه [في النظر الى الحياة والكون] ليس عاماً، فانه يؤثر في حياة العربي من وجوه كثيرة: فالعربي لا يتصور مجتمعه ككلٍ عضوي مركب من اجزاء متداخلة يؤثر احدها في الآخر ويتأثر به، ولكنه يراه ارتباطاً بين مجموعات دينية او قومية او طبقية منفصلة، تجمعها الرقعة الجغرافية من تحت، والحكومة من فوق؛ كما انه يرى في مدينته مجموعة من الاحياء والبطون والبيوت، ونادراً ما يتصورها ذات وحدة مدنية متضامنة بذاتها.
وبخلاف العلماء والفلاسفة من جهة والصوفيين يرينا الفقيه او العالم او الاديب الصفة نفسها في موقفه من المعرفة. فالانظمة المختلفة [عند هؤلاء] ليست أساليب متباينة للوصول إلى الهدف ذاته وتلتقي بما تكشفه في كلٍ واحد كامل، بل هي [عندهم] أقسام منفصلة مستقلة بذاتها، ويحتوي كل منها على عدد محدود من أجزاء المعرفة؛ ومن تجميع هذه الاجزاء، بصورة متتابعة، تتكون المعرفة. والادب العربي، بخلوه من الشعر القصصي والرواية، يحقق أثره في القاريء او المستمع بواسطة سلسلة من الملاحظات والاوصاف المنفصلة، التي على الرغم من دقتها

ووضوحها ، فهي مجزأة لا يربط بينها إلا قدرة المؤلف والقاريء على هذا . وقلما يتم ذلك طبقاً لنظام موضوع . وتتألف القصيدة العربية من ابيات منفصلة قائمة بذاتها أشبه بلآليء معقودة تؤلف كل منها وحدة ً كاملة بذاتها، ويمكن تبديل ترتيبها في أغلب الاحيان. والموسيقى العربية سلسّمية إيقاعية تتباين في غير انتظام ولا يلازمها الانسجام البتة .

والمؤرخون و كتاب السير، مثل كتاب الروايات، يعرضون كتاباتهم في سلسلة من الاحداث مرتبطة ارتباطاً واهياً، و كثيراً ما تُعدَّدُ – كما وصفها كاتب حديث العهد – كما لو كانت أوصافاً في جواز سفر .

ويوصلنا ما مر الى نقطة اخيرة وهي انكار الشخصية – بل النزعة الى الجماعية – التي كثيراً ما يتصف بها النثر العربي . لقد ظلت نزعة العرب الأولين نحو الفردية حية ، بكل عنفوانها ، عند البدوي فقط، اما في مراكز الحضارة فقد حلت محلها نزعة سلبية، بل حتى نزعة الى إغفال اي ذكر للشخصية. فالكتاب، في الغالب، لا يُعرَضُ كنتاج شخصي مستقل للمؤلف ، بل كحلقة في سلسلة من السند يخفي المؤلف فيها شخصيته وراء الثقات وطبقات الرواة السابقين . بل نجد الشعر ، الذي هو في الاساس تعبير شخصي ، عاماً واجتماعياً وليس شخصيـاً صادراً من صميم النفس . وتظهر هذه النزعة الجماعية ، لا الانسانية ، في كل ناحية من نواحي الفكر الاسلامي والنظم الاسلامية . وهي اوضح مـا تكون في تصور المسلم للمثل الاعلى للرجل الكامل (او الحكومة الكاملة) ؛ فهو

يتصوره انموذجاً يطبق بشكل ظاهري ، ويجب على الجميع ان يَسْعَوْا اليه بالتقليد والاتباع لا بتطوير امكانياتهم الذاتية من الداخل .

وقد عبّر عن هذه النظرة الذرية [١] الى الحياة تعبيراً تاماً في فلسفة الاشعري (توفي ٩٣٦) المدرسية . ويعيّن تقبُّل الناس لها على هذا النحو او غيره النصر النهائي لرد الفعل ضد الفكر والبحث الحرين اللذين قد انتجا مآثر عظيمة كالتي اوردنا ذكرها . فالاشعرية حركة جبرية ، ترى الامور مرهونة بأوقاتها ، تقليدية ، تتطلب قبول الشريعة والوحي دون مناقشة و« بلا كيف » ، كما انها تنكر الاسباب الثانوية ، وتفضل أن تدعو حتى الاله نفسه بالخالق لا بالعلة الاولى . وهي لا تعترف بالنتائج الضرورية ولا بالقوانين الطبيعية او الاسباب . فشعور الانسان بالحاجة الى الطعام لا يترتب بالضرورة عليه الجوع ، ولكنه يلازمه في العادة فقط . وكل شيء يصدر عن ارادة الله الذي أوجد عادات معينة تقوم على التتابع أو الترافق . وما كل حادثة في كل آن من الزمن إلا وهي نتيجة فعل خلق مباشر مستقل .

وقد كان هذا الرفض النهائي المتعمد للسببية ، منذ أن أصبح المبدأ المقبول ، نهايةً للفكر والبحث الحرّين في الفلسفة والعلوم الطبيعية ، كما أنه كان السبب الذي أحبط تقدم علم تدوين التاريخ عند العرب بعد أن كان يبشر بالازدهار . وقد لاءم هذا الرفض حاجات مجتمع اسلامي كانت فيه الحياة الاجتماعية والاقتصادية

(١) atomistic

الحرة المنبثقة من عصر تجاري مزدهر تتلاشى أمام اقطاعية جامدة لم يطرأ عليها تغيير إلا بعد قرون عديدة . وظل الصراع القديم بين المفاهيم قائماً ، في حين بقي الاسلام ، في شكله الجديد هذا، لا ينازعه منازع طيلة الف سنة أخرى حتى بدأ تأثير الغرب في القرن التاسع عشر والقرن العشرين يهدد صرح المجتمع الاسلامي التقليدي بأجمعه وأساليبه الفكرية التي كانت بمثابة أسسه العقلية .

الفصل التاسع

العرب في دور التأخر

«هو ذا الاتراك والتتار يشهرون سيوفهم عليك
عازمين على ان يقطعوا ولاياتك كلها إربا إربا »
مارلو « تيمورلنك الكبير » — القسم الثاني

عندما حل القرن الحادي عشر كانت بلاد الاسلام في حالة انحلال واضح . بل لقد امكن تمييز علامات هذا الانحلال قبل هذا التاريخ ، اولاً في تفكك الاسلام السياسي وما رافقه من فقدان الحكومة المركزية سلطانها في الولايات البعيدة في البداية ثم في كل مكان ما عدا العراق ، وأخيراً في انحطاط منزلة الخلفاء الى ان اصبحوا دُمىً في ايدي وزرائهم وقادة جيوشهم . وفي سنة ٩٤٥ م انحط الخلفاء الى دركة اخرى. ففي تلك السنة دخل البويهيون ، وهم اسرة فارسية محلية ، العراق واستولوا على العاصمة . وكان أمراء البويهيين خلال القرن التالي بأكمله حكام العاصمة الحقيقيين . واتخذوا لقب « سلطان » رمزاً لسلطانهم الزمني . وعلى الرغم من ان البويهيين كانوا شيعة

فأنهم أبقَوْا على الخلفاء العباسيين واتخذوا منهم رؤساء اسميين وسنداً قانونياً لسلطان الحكومة في الولايات . ومما لا يخلو من مغزى أن إمام الطائفة الأثنى عشرية اختفى واصبح في غيبة مؤقتة في ذات الوقت الذي وصلت فيه إلى الحكم أول فرقة شيعية معتدلة . وأعاد البويهيون النظام والرخاء الى الولايات الوسطى فترة من الزمن. لكن علائم الانحطاط الاقتصادي كانت في ازدياد مستمر . فتقلصت التجارة الرابحة مع الصين ، ولم تلبث ان توقفت لاسباب نشأ بعضها عن الاحوال الداخلية السائدة في البلاد نفسها . وتضاءلت كذلك التجارة مع روسيا وبلدان الشمال ثم توقفت في أثناء القرن الحادي عشر ، بينما ساعد النقص المستمر في المعادن الثمينة على شلّ الحياة الاقتصادية في بلاد فقدت صفتها كامبراطورية تجارية. وكان احد أسباب التأخر الاقتصادي ، من غير شك ، الاسرافُ وفقدانُ النظام المركزي . كما أن تلك النفقات الباهظة التي كانت تصرف على البلاط وعلى البطانة المتضخمة من الموظفين – هذه البطانة التي كانت تتضاعف أحياناً عند قيام متنازعَيْن على العرش لكل منهما بطانته – لم تعوض من طريق إحداث أي تقدم في فنون الصناعة أو تقدم أكبر في استغلال موارد البلاد وسرعان ما اضطر الحكام ، بسبب نقص ما لديهم من النقد ، الى دفع رواتب كبار موظفيهم بمنحهم التزام جمع مدخول الدولة من الضرائب . وصار ُولاة المقاطعات ، قبل مرور زمن طويل ، ُيعيَّنون ملتزمين لضرائب المناطق الخاضعة لارادتهم مقابل تعهدهم بدفع نفقات جيوشهم ورواتب موظفيهم ومبلغٍ متفقٍ عليه

لصندوق مال الدولة. فأصبح هؤلاء الولاة – بعد برهة قصيرة – حكاماً مستقلين بالفعل على ولاياتهم، لا يربطهم بالخليفة سوى اعترافهم اعترافاً اسمياً به. كما أن سلطان الخليفة تضاءل حتى انحصر في تقليد الولاة حقّ الحكم تقليداً شكلياً. وأصبح هذا التقليد، بمرور الزمن، اعترافاً من جانب الخليفة بالامر الواقع. وبسبب الحاجة الى توفير القوة العسكرية اللازمة للولاة وملتزمي الضرائب جرى الخلفاء على تعيين قواد عسكريين في مناطق التزام الضرائب، وهذا بدوره ادى الى تفكك الحكومة المدنية المستبدة واستيلاء القادة العسكريين، الذين صاروا يحكمون بواسطة حرسهم، على زمام الحكم.

وعندما حل القرن الحادي عشر كشفت عن ضعف الامبراطورية سلسلة من الهجمات، قام بها البرابرة في وقت واحد تقريباً من داخل البلاد وخارجها على جميع الانحاء. ففي اوروبا زحفت جيوش النصارى على اسبانيا وصقلية وانتزعت مناطق واسعة من البلاد الخاضعة للمسلمين، وذلك اثناء قيامهم بموجة من الفتوح لاستعادة بلادهم بلغت أوجها بوصول الصليبيين في نهاية القرن ذاته الى الشرق الادنى. وفي افريقية ادى ظهور حركة دينية جديدة بين البربر في منطقة جنوب مراكش والمنطقة بين السنغال والنيجر الى خلق امبراطورية بربرية بفتح القسم الاكبر من شمال افريقية، وبفتح تلك الاجزاء من اسبانيا التي ظلت خاضعة للمسلمين. وشهد الجزء الشرقي من شمال افريقيا اندفاع افراد القبيلتين العربيتين العظيمتين، وهما بنو هلال وبنو سليم، من مناطق مصر العليا

حيث كانوا يقطنون حتى الآن ، ثم قيامهم باجتياح ليبيا وتونس ناشرين في ارجائها الخراب والتدمير. وبين سنتي ١٠٥٦-١٠٥٧م اصبحوا في وضع يمكنهم من نهب عاصمة تونس السابقة ، وهي القيروان . والاحرى أن يُعزى الخراب والتأخر اللذان حلاّ بشمالي افريقية الى هذه الغزوة لا الى حركة الفتح الاسلامي الاولى في القرن السابع . وقد فسر ابن خلدون، المؤرخ العربي المشهور (توفي ١٤٠٦ م) ، الدمار الذي أصاب موطنه من جراء هذه الغزوات البدوية على أساس من التفاعل بين البدو والحضر. ولعل هذه النظرية هي أول محاولة في فلسفة التاريخ. ويشير ابن خلدون الى هذه الغزوات بقوله : « وإفريقية والمغرب لما جاز اليهما بنو هلال وبنو سُليم منذ اول المائة الخامسة ، وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها ، وعادت بسائطه خراباً كلها بعد ان كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمراناً تشهد بذلك آثار العِمْران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدر. »

وقامت من وسط آسيا موجة جديدة من الغزاة ربما كانت من حيث نتائجها الباقية أهمها جميعاً . وقد عرف العرب الاتراك، لأول مرة ، في اواسط آسيا . ومن هناك صاروا يجلبون منهم عبيداً الى الشرق الادنى الاسلامي. وكانوا يفضلون من تدرب منهم منذ طفولته على اعمال الحرب وشؤون الادارة. وهؤلاء الآخرون هم الذين عُرفوا فيما بعد بالمماليك، تمييزاً لهم من العبيد الاصغر شأناً الذين كانوا يستخدمون في اعمال المنازل . وقد سبق ان دخل بعض هؤلاء العبيد الأتراك في خدمة الخلفاء العباسيين الأولين ،

بل وفي خدمة الأمويين ايضاً ؛ لكن أول من استخدم اعداداً كبيرة منهم هو المعتصم (٨٣٣ – ٨٤٢ م) ، الذي كوّن من محاربيهم جيشاً كبيراً حتى قبل اعتلائه عرش الخلافة . ولكي يضمن المعتصم الحصول عليهم باستمرار فرض على الولايات الشرقية فيما بعد أن ترسل له في كل سنة عدداً منهم كجزء من الضريبة المطلوبة منها . وكان حرس الخلفاء العباسيين الخراساني القديم قد تعربوا واندمجوا بأهل البلاد . كما ان الارستقراطية الفارسية وجدت مسرباً سياسياً لها في قيام الأسر الايرانية المستقلة الحاكمة ، فوجد الخلفاء من الضروري أن يبحثوا عن سند آخر لسلطانهم . ووجدوه في الاتراك المماليك تحت إمرة قوادهم الذين لم تكن لهم علاقات محلية او قبلية او عائلية او قومية او دينية ، الأمر الذي كان يزيد في ولائهم واخلاصهم للحكومة المركزية . وعُرف الاتراك منذ البداية بتفوقهم في فنون الحرب وبصورة خاصة ، كما يبدو ، في استخدام الرماة الخيالة ، وسرعة خيالتهم التي يتصف بها الرحل . ومن الآن فصاعداً أخذ يزداد اعتماد الخلفاء على جيوش الأتراك وقوادهم العسكريين ، مما ألحق اكبر الضرر بمصالح الشعبين الفارسي والعربي اللذين كانا أعرق في المدنية والثقافة .

وعندما حل القرن الحادي عشر صار الأتراك يدخلون في بلاد الاسلام لا كأفراد يجندون من بين الأسرى أو يشترون من الأسواق وإنما بهجرة قبائل بأكملها من الاتراك الرحل الذين كانوا لا يزالون يتبعون في تنظيمهم أسلوبهم التقليدي . اذ قطع عليهم توطّد حكم سَنْغ في الصين ، عُقب قيام فترة من الفوضى

والاضطراب ، طريق توسعهم في تلك البلاد ، وأجبر قبائل أواسط آسيا على التوسع نحو الغرب . وينتمي الاتراك الذين غزوا بلاد المسلمين الى قبائل الغُز ، ويعرفون عادة بالسلاجقة نسبة الى الأسرة الحاكمة فيهم .

ودخل السلاجقة أراضي الخلافة حوالى سنة ٩٧٠ م ، وسرعان ما اعتنقوا الاسلام . وتمكنوا في مدة وجيزة من فتح القسم الأكبر من بلاد الفرس . وفي سنة ١٠٥٥ م دخل طغرل بك بغداد وهزم البويهيين وضم العراق الى دولة السلاجقة . وتمكن السلاجقة خلال بضع سنوات من ان ينتزعوا سورية وفلسطين من الحكام المحليين ومن الفاطميين الذين كانوا في طريقهم الى الاضمحلال التام . بل لقد نجحوا في ميدان شهد فيما سبق فشل العرب ؛ إذ تمكنوا من انتزاع الجزء الاكبر من الاناضول من أيدي البيزنطيين ، وبقي هذا الجزء ولا يزال أرضاً إسلامية وتركية .

ولما كان السلاجقة مسلمين سنيين فقد اعتبر الكثيرون استيلاءهم على بغداد بمثابة تحرير لها من البويهيين المارقين عن السنة . وظل الخلفاء حكاماً اسميين . واصبح سلاطين السلاجقة العظام الذين هزموا البيزنطيين والفاطميين في الغرب الحكام الفعليين للامبراطورية الموحدة والتي خضعت لسلطة واحدة للمرة الاولى منذ زمن الخلافة الاولى .

واعتمد حكام الامبراطورية الجدد في شؤون الادارة على موظفين من الفرس وعلى كبار رجال الحكومة الفارسية السابقة . ومن أشهر شخصيات هذا العصر الوزير الفارسي العظيم نظام الملك الذي

شجع ونظم الاتجاه نحو الاقطاع؛ وهو الاتجاه الذي كانت تنطوي عليه ممارسة التزام الضرائب في الحقبة السابقة لهذا العهد مباشرة. وهكذا صارت أخطاء العصر السابق احكاماً للنظام الاجتماعي والاداري الجديد ترتكز على الأرض لا على النقد. وكانت الأرض تمنح للموظفين أحياناً، وأحياناً كان هؤلاء يستولون عليها لأنفسهم. وفي مقابل هذه المنح كانوا يهيئون عدداً من الجنود. وكانت هذه المنح تنطوي على تخويل أصحابها حقوقاً تشمل بالاضافة إلى حق جمع الضرائب، حقّ التصرف في موارد الأرض. ومع أن الأرض كانت تصبح وراثية نتيجة لأعمال الاغتصاب فانها كانت من الناحية النظرية وبحسب العرف تمنح لعدد من السنوات تُصبح بعدها قابلة للاسترداد في أي وقت.

ويذهب البنداري الذي كتب عن العصر السلجوقي إلى أن هذا كان هو السبيل الوحيد لترغيب أفراد القبائل التركية وجنودهم المزعجين في خيرات الزراعة فيقول: «وكانت العادة جارية بجباية الأموال من البلاد وصرفها إلى الأجناد؛ ولم يكن لأحد من قبلُ إقطاع. فرأى نظام الملك أن الأموال لا تحصّل من البلاد لاختلالها، ولا يصح منها ارتفاع لاعتلالها، ففرّقها على الاجناد إقطاعاً، وجعلها لهم حاصلاً وارتفاعاً، فتوفرت دواعيهم على عمارتها، وعادت في أقصر مدة إلى أحسن حالة من حلْيتها.»

بهذه الكلمات اليسيرة الواضحة وصف لنا البنداري الانتقال من الاقتصاد القائم على النقد إلى الاقتصاد المرتكز على الاقطاع.

وفي دور من التغيير كهذا كان لا بد من قيام ثورات اجتماعية،

إذ كان قيام طبقـة جديدة من الأسياد الاقطاعيين الذين لا يقيمون في إقطاعياتهم لطمة شديـدة تلقاها الملاكون في عهـد الحكومة السابقة . وضعفت التجارة وتأخرت . وربما وُجدت اوضح علائم انحطاطهـا في أكداس النقود التي عثر عليها في اسكنديناوة . فقـد وجد بينها عدد وافر من نقود القرن التاسع العربية والفارسية، بل ان هذه الاخيرة تؤلف القسم الاكبر منها. أما ما يرجع الى القرن الحادي عشر من النقود الفارسية والعربيـة فهو أقل بكثير. ثم لا تلبث هذه النقود ان تختفي. وأشد حركات المعارضة التي قامت في هذا الدور صدرت مرة أخرى عن الاسماعيلية ولكنها اتخذت شكلًا جديداً مختلفاً عن شكلها السابق . ففي سنة ١٠٧٨ زار الحسن بن الصباح وهو زعيم فارسي من الاسماعيليـة ، القاهرة عاصمـة الفاطميين . واصطدم هناك بالحاكم العسكري المستبد الذي كان الحاكم الحقيقي للبلاد الخاضعة لسلطان الفاطميين. فلما توفي الخليفة الفاطمي المستنصر في سنة ١٠٩٤ م رفض الحسن بن الصباح وأتباعه من الفرس الاعتراف بخليفته الذي عينه القائـد العسكري ليكون أداة طيّعة في يده ، وقطعوا علاقاتهم بحكومة القاهرة الخانعة لسلطان القادة العسكريين. وأعلن اسماعيليو الشرق ولاءهم لنزار ، الابن الاكبر للمستنصر ، الذي أهمل شأنه عنـد تقرير مسألة الخلافة، وبدأوا دوراً جديداً اتخذ فيه نشاطهم القوي شكل حركة ثورية خارجة على النظام في البلاد الخاضعة للسلاجقة. ويعرف اتباع « الدولة الجديدة » ، اي حركة الحسن بن الصباح ، عادة باسم « الحشاشون » ، وهي كلمة عربية تعني الذين يتعاطون

الحشيش وتشير الى الوسيلة التي قيل انهم كانوا يسلكونها لبعث النشوة المفرطة في المؤمنين . ومدلول الكلمة الاوروبي مشتق من الخطط السياسية التي اتبعوها .

وفي سنة ١٠٩٠ م استولى الحسن بن الصباح على حصن جبلي منيع في شمال فارس وهو قلعة ألموت . ومن هـذه القلعة ومن القلاع التي انشئت على غرارها في سورية خلال القرن التالي كان « شيخ الجبل » ،وهو الاسم الذي كان يطلق على كبار سادة هذه الفرقة ، يأمر فرق المخلصين المتحمسين من اتباعه بالقيام بحملة لنشر الرعب والاغتيال ضد ملوك المسلمين وأمرائهم باسم امـام غامض مستتر . وقام رجـال السادة الكبار بسلسلة من حوادث الاغتيال الجريئة ذهب ضحيتها عدد من رجـال السياسة والقواد العسكريين المسلمين من بينهم نظام الملك نفسه الذي اغتيل في سنة ١٠٩٢ م. ويقال إن ريتشارد قلب الاسد هو الوحيد الذي أبقوا عليه ، وذلك لأنهم رغبوا عن تذليل العقبات امام منافسه صلاح الدين . ولم يُذهب عن الناس آخر الأمر خوفهم من الحشاشين إلا غزواتُ المغول للشرق الاسلامي في القرن الثالث عشر . فمنـذ ذلك الحين خمدت حركة الاسماعيلية وتضاءل شأنها .

وللنظام الاقتصادي الجديد الذي اتبع في أوائل العهد السلجوقي ما يقابله في الحياة الدينية . ففي بغـداد وغيرها أسست كليات دينية تعرف بالمدارس واتُّخذت نموذجاً لما أنشيء منها بعدئذ . وكانت المدرسة النظامية في بغداد، التي سميت باسم مؤسسها الوزير العظيم ، وشقيقاتُها ، مراكز للتعاليم السنية ، وخاصة مـذهب

الاشعري . اذ أصبحت الآن خاضعة لاشراف الدولة ، وكان الهدف الرئيسيّ من إنشائها هو مقاومة تعاليم الاسماعيلية الثورية المخالفة للدين ، والقضاء على النزعة العقلية المتطرفة التي سادت العصر السابق . وقام الغزالي (١٠٥٩ — ١١١١ م) ، وهو أحد كبار رجال الفكر في الاسلام ، بالتعليم فيها فترة من الزمن . وتحوي كتبه ردوداً يفند بها تعاليم الفلسفة والفرق المخالفة للدين .

وتفكك الشرق الادنى والاوسط مرة اخرى بعد وفاة نظام الملك . فقد تجزأت امبراطورية السلاجقة الى عدد من الدويلات الصغيرة يحكمها بالوراثة افراد وقواد عسكريون من الاسرة السلجوقية . ووصل الصليبيون الى الشرق الأدنى في فترة الضعف هذه . وعلى الرغم من جانب هذه الحركة العظيمة المثالي ، وهو اكثر ما يكون وضوحاً في حملة الاطفال السيئة الطالع ، فان الحملات الصليبية ليست بالنسبة لتاريخ الشرق الأدنى الا محاولة مبكرة قصد بها التوسع الاستعماري . وكان الدافع الى القيام بها هو الاعتبارات المادية . اما الدين فقد اتخذ وسيلة لتهيئة النفوس لها . والحق ان تجار الجمهوريات الايطالية الذين كانوا يسعون الى الاتصال بمصادر تجارتهم مع البيزنطيين والفاطميين ، والبارونات الذين كان يحفزهم الطموح وحب المغامرة ، وأبناء النبلاء الذين كانوا يبحثون عن الامارات بسبب حرمانهم من الارث، والمذنبون الذين كانوا يبحثون عن وسيلة رابحة للتكفير عن ذنوبهم — هؤلاء هم الذين كانوا أبرز رجال هذه الغزوة التي قام بها الغرب ، لا أولئك الذين كانوا يسعون الى إنقاذ القبر المقدس .

ومهّد انفصام عرى وحدة العالم الاسلامي في الثلاثين السنة الاولى الطريق أمام الغزاة الذين اتجهوا بسرعة جنوباً عبر الساحل السوري ودخلوا فلسطين وأسسوا عدداً من الامارات اللاتينية الاقطاعية كانت انطاكية والرهاء وطرابلس والقدس مراكز لها. وكان الدور الاول هذا دور استعمار وتنظيم للبلاد المفتوحة. واستوطن الفاتحون والحجاج في سورية، واقتبسوا لباس اهل البلاد وعاداتهم، وتزاوجوا مع النصارى منهم. ويشير فولكر أوف تشارتر الذي أرّخ للحملة الاولى الى هذا بقوله:

« الآن صرنا - نحن الذين كنا غربيين - شرقيين. ومن كان منا ايطالياً او فرنسياً اصبح في هذه البلاد جليلياً او فلسطينياً. والذي كان من مواطني ريمس او تشارتر اصبح الآن صورياً او انطاكياً. لقد نسينا الاماكن التي ولدنا فيها. وأكثرنا لا يعرفها، بل لم يسمعوا بها. ولكل منا بيته وأهله، كما لو أنه ورثه من أبيه أو من شخص سواه. وتزوج بعضنا لا من بنات أوطاننا وإنما من سوريات وأرمنيات، وحتى من مسلمات متنصرات. وأصبح من كان هنا يعد أجنبياً، مواطناً، ومن كان مهاجراً صار من أهل القرار. وفي كل يوم يلحق بنا الى الشرق أقارب وأصدقاء تاركين وراءهم كل ما كان في حوزتهم وهم في الغرب. وأما من كانوا فقراء هناك فقد أغناهم الله هنا. ومن كان خاوي اليدين الا من دريهمات معدودات أصبح لديه من القطع الذهبية، ما لا يحصره عد. ومن لم تكن لديه قرية اصبح يمتلك - والمعطي هو الله - مدينة برمتها. فلماذا نعود اذاً الى الغرب ما دام الشرق

يهيىء لنا كل هذا ؟ »

ويمكننا ان نقارن ما سبق بما كتبه أسامة بن منقذ من أهل سوريا في القرن الثاني عشر حيث يقول : « فكل من هو قريب العهد بالبلاد الافرنجية أجفى اخلاقاً من الذين تبلدوا وعاشروا المسلمين . » لكن حتى في دور الانتصار الاول هذا حُصر الصليبيون بصفة رئيسية في السهول والمنحدرات الساحلية بحيث كانوا على اتصال دائم بالبحر الابيض المتوسط والغرب . أما في الداخل الى الشرق ، في الصحراء والعراق ، فقد كان رد الفعل في دور التكوين . وفي سنة ١١٢٧ م استولى زنكي ، احد قواد السلاجقة ، على مدينة الموصل لنفسه . وفي السنة التالية أقام بالتدريج دولة اسلامية متينة البناء ، تضم القسم الشمالي من العراق الحالي وسورية . واعترض نجاحه في اول الامر تنافسُ الدويلات الاسلامية الاخرى وخاصة دمشق التي لم يتردد حاكمها في ان يحالف مملكة القدس اللاتينية ضد العدو المشترك . وفي سنة ١١٤٧ م تسرع الصليبيون فنقضوا اتفاقهم مع حاكم دمشق ، وتمكن نور الدين بن زنكي ، الذي خلفه في الحكم ، من أن يستولي على دمشق في سنة ١١٥٤ م وأن يوجد في سورية حكومة واحدة ، وان يواجه الصليبيين لاول مرة بخصم مخيف بالفعل . وانصرف اهتمام الطرفين الآن الى مسألة من شأنها ان تقرر مصير هذا النزاع ، وهي مسألة الاستيلاء على مصر ، حيث كانت الخلافة الفاطمية تجتاز آخر مراحل شيخوختها ، متداعية نحو السقوط النهائي . وكان لا بد أن يُفصل في هـــذا الامر وتبدو نتيجته . فقد ذهب الى مصر قائد كردي يسمى صلاح الدين وشغل

وظيفة وزير للفاطميين في الوقت ذاته الذي كان يمثل فيه مصالح نور الدين . وفي سنة ١١٧١ م اعلن صلاح الدين انتهاء الدولة الفاطمية ، وأعاد ذكر اسم الخليفة العباسي في الجوامع وضربه على السكة وأقام نفسه حاكماً نافذ الكلمة على مصر .

اما ولاؤه لنور الدين فقد كان ينطوي على كثير من الشك والتردد . وبعد وفاة نور الدين سنة ١١٧٤ م ، تاركاً وراءه ابناً قاصراً ، استولى صلاح الدين على بلاده ، فخلق بذلك إمبراطورية سورية - مصرية إسلامية موحدة . وفي سنة ١١٨٧ م شعر صلاح الدين أن لديه من القوى ما يمكنه من مهاجمة الصليبيين . وعند وفاته في سنة ١١٩٤ م كان قد احتل القدس وطردهم من الشريط الساحلي الضيق الذي كان في حوزتهم والذي كانوا يحكمونه من عكا وصور وطرابلس وانطاكية .

ولم تعمر الدولة السورية - المصرية الموحدة طويلاً بعد صلاح الدين . فقد تجزأت سورية مرة اخرى زمن خلفائه الايوبيين إلى عدد من الدويلات الصغيرة ، لكن مصر ظلت دولة قوية موحدة ، وأصبحت أعظم دولة اسلامية في الشرق الأدنى ، وأمنع معاقل الاسلام في وجه الغرب ، كما تمكنت من إحباط المحاولات المتكررة التي قام بها الصليبيون المتأخرون لاستعادة البلاد المقدسة .

وأهم النتائج الباقية للحملات الصليبية في الشرق الأدنى كانت في ميدان التجارة . فقد ازدهرت مستعمرات تجار الغرب في موانيء البحر الأبيض المتوسط الشرقي في ظل حكم الصليبيين . وظلت تمارس نشاطها بعد استعادة المسلمين للبلاد ، كما أقامت

تجارة استيراد وتصدير ذات شأن . وفي سنة ١١٨٣ م [1] بعث صلاح الدين الى الخليفة كتاباً يبرر فيه تشجيع هذه التجارة ورد فيه قوله: « ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة والجنوية . . . وما منهم الا من هو الآن يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب الينا باهداء طرائف اعماله وتلاده ، وكلهم قد قررت معهم المواصلة ، وانتظمت معهم المسالمة على ما نريد ويكرهون ، وعلى ما نؤثر وهم لا يؤثرون . » [1] ولم يُجد شيئاً سخط الكنيسة الشديد في اوروبا على هذه التجارة ، وقرارات الحرمان التي اصدرتها ضد القائمين بها .

وأخذ يظهر في هذه الاثناء تهديد للاسلام اشد وأكبر خطراً من الحملات الصليبية . ففي جهات آسيا الشرقية البعيدة كان جنكيز خان قد تمكن ، بعد حرب اهلية مريرة ، من توحيد قبائل منغوليا المتنقلة ومن حملها على القيام بحركة فتح حريّةٍ بأن تعد من أبرز حركات الفتح التي عرفها التاريخ . وعندما حلت سنة ١٢٢٠ م كان المغول قد فتحوا بلاد ما وراء النهر . وتلت وفاته فترة توقف خلالها الفتح . غير ان المغول وضعوا خطة توسع جديدة ، في منتصف هذا القرن ، وقاموا بتنفيذها . فقطع الامير المغولي هولاكو نهر جيحون بناء على تعليمات تلقاها من خان المغول الاعظم تقضي بفتح بلاد الاسلام حتى مصر . فاكتسحت جيوشه فارس وتغلبت على كل

---

(١) أبو شامة : الروضتين في حوادث سنة ٥٧٠ هـ وتوافق ١١٧٤ م .
[المعربان]

مقاومة ، بل سحقت الاسماعيليين الذين كانوا قد تمكنوا من صد الهجمات السابقة . وفي سنة ١٢٥٨م استولى هولاكو على بغداد ، وقتل الخليفة ، وأزال الخلافة العباسية من الوجود . وكان القضاء على هذا النظام التاريخي ، الذي كان لا يزال ، رغم ما تردى فيه من ضعف ، المرجع القانوني للمسلمين ورمز وحدتهم ، بمثابة نهاية لحقبة من التاريخ الاسلامي. وبرغم هذا قد لا تكون هذه الصدمة من بعض الوجوه ، شديدة الى الحد الذي يوصف عادة. اذ كانت الخلافة ، منذ زمن طويل ، قد فقدت تقريباً كل سلطانها الفعلي ، وأخذ السلاطين الزمنيون في العاصمة والولايات ينتحلون لانفسهم لا سلطات الخلفاء فحسب ، بل وبعض امتيازاتهم ايضاً . ولم يعدُ ما فعله المغول في هذا الشأن انهم أقاموا ظلًا لهذا النظام الذي كان قد زال .

وكان المغول الغزاة ، بعكس السلاجقة ، لا يزالون على وثنيتهم ، ولم يبدوا أي اهتمام بالاسلام وتقاليده ونظمه . ولقد بولغ فيما أحدثوه في البلاد التي افتتحوها من تخريب كان الباعث على القيام بأكثره هو الاغراض الحربية البحتة لا حب التخريب نفسه . وتوقفت اعمال التخريب بعد حملة الفتح التي كان التخريب جزءاً منها . وبدأ في فارس تحت حكم المغول دور تقدم جديد في الميدانين الاقتصادي والثقافي. وكانت نتائج الفتح المغولي في العراق تحطيم الحكومة المدنية وتدهور اعمال الري التي كانت البلاد تعتمد علنيها . وزاد في سوء الحال ما كانت القبائل البدوية تقوم به من غارات على الحضر كلما أحست بضعفهم .

وتلقت العراق ضربة أشد حين اصبحت احدى ولايات الأطراف في امبراطورية شرقية عاصمتها في فارس . اذ لم يَعُدْ وادي ما بين النهرين، بعد ان أقيم حاجز من الرمل والحديد بينه وبين ولايات البحر الابيض المتوسط في الغرب وتطويقه من الشرق بقيام العاصمة الفارسية التي أصبح تابعاً لها ، لم يَعدْ يقوم بدوره كطريق للتجارة بين الشرق والغرب ؛ وتحول هذا الطريق شمالاً وشرقاً الى تركيا وفارس ، وغرباً الى مصر والبحر الاحمر ،تاركاً العراق وعاصمة الخلفاء الخربة تقبعان قروناً في حال من الركود والاهمال .

وعلى الرغم من تعرض سورية لبعض الغارات فان النتائج الباقية للفتوح المغولية في العالم العربي اقتصرت على العراق . فقد أُلحق الآن بالدولة المغولية التي اتخذت من فارس مركزاً لها . وأنقذتِ الدولةُ الجديدة ، التي انبثقت من الدولة الأيوبية ، مصر وسورية من المغول . وعلى الرغم من ان الايوبيين انفسهم ينتمون الى اصل كردي ، فقد كانت دولتهم ذات طراز سلجوقي تركي . وكانت الطبقة الحاكمة فيها عبارة عن هيئة عسكرية مستبدة قوامها الحرس الاتراك الذين كثيراً ما تمكنوا من السيطرة على السلطان الايوبي نفسه .

وفي منتصف القرن الثالث عشر أقام المماليك الاتراك اصحاب الكلمة العليا في القاهرة في ذلك الوقت ، حكومة جديدة في البلاد حكمت مصر وسورية حتى سنة ١٥١٧م. وفي سنة ١٢٦٠م وبعد فترة من الفوضى عقبت وفاة آخر سلاطين الايوبيين ، اعتلى

عرشَ السلطنة في مصر تركيٌّ قِبْشاقي هو السلطان بيبرس ، الذي تشبه سيرُته سيرة صلاح الدين من نواحٍ كثيرة . فقد جمع بين مصر وسورية الاسلامية في دولة واحدة كتبت لها حياة اطول من حياة سابقتها . وتمكن بيبرس من هزيمة اعداء الدولة في الخارج ، فصدّ المغول الغزاةَ عن الشرق ، وسحق باقي أعدائهم باستثناء آخر من تبقى من الصليبيين في سورية . وتفتّق ذهنه الثاقب عن فكرة دعوة أحد افراد البيت العباسي ليصبح خليفةً مقرّه القاهرة . الا ان الخلفاء العباسيين في القاهرة كانوا مجرد موظفين في البلاط المملوكي. ويشير المؤرخ المصري المقريزي الى هذا بقوله : « وضع المماليك خليفة رجلاً أعطوه اسمه وألقابه التي تلائمه ، لكنه لا يملك من السلطة شيئاً ، حتى ولا حق ابداء رأيه . كان يقضي وقته بين الامراء والموظفين الكبار والكتاب والقضاة يزورهم ليشكرهم على ولائهم ومسامراتهم التي كانوا يدعونه اليها . »

ويمثل هؤلاء الخلفاء المرحلة الأخيرة من مراحل تداعي هذا النظام . وكان النظام المملوكي الذي أقامه بيبرس وخلفاؤه نظاماً اقطاعياً هو عبارة عن شكل مُعدّل للنظام الاقطاعي السلجوقي جلبه الايوبيون الى سورية ومصر . فكان القائد او الامير يُمنح بموجبه قطعة من الأرض بدل راتبه ، ويتعهد في مقابل ذلك أن يجهز عدداً من جنود المماليك يتراوح بين خمسة جنود ومئة ، ويتوقف تقريره على رتبته . وكان يصرف في العادة ثلثي دخله على اعاشة هؤلاء الجنود . ولم تكن مِنَحُ الارض هذه وراثية في ابناء اصحاب الاقطاعات برغم ما جرى من محاولات لجعلها كذلك . واستند

هذا النظام على القيام بصورة دائمة بانتزاع الارض من ابناء قواد المماليك المستعربين ومنحها لمماليك جدد ، الامر الذي كان يحول ، وربما عن سابق تدبير ، دون قيام ارستقراطية وراثية من الملاكين. وكانت الاقطاعات تمنح لفترة قد تبلغ مدى حياة صاحبها او أقل. الا أن المماليك لم يكونوا يقيمون في هذه الاقطاعات ، بل كانوا يفضلون الاقامة في القاهرة او في كبرى مدن المقاطعة الواقعة فيها ارضهم . وكان اهتمامهم بالدخل يفوق اهتمامهم بملكية الارض . وعلى هذا لم يؤد النظام الى اقامة الحصون او المعاقل او السلطات المحليــــة القوية من النوع الغربي . كما انه لم يقم في مصر سلم إقطاعي ، بل ان تقسيم الارض الى إقطاعات لم يأخذ شكلاً ثابتاً بسبب ما كان يطرأ عليه من وقت الى آخر من تغيير .

وكان المماليك يشترون عبيداً ثم يدربون ويثقفون في مصر . وفي باديء الامر كان أكثرهم من الاتراك القبشاقيين الذين كانوا يجلبون من شواطىء البحر الاسود الشمالية . ونجد فيما بعد أنهم صاروا يشملون مغولاً من الفارين من الجندية ، وعبيداً من عناصر أخرى وخاصة الجراكسة ، وعدداً قليلاً من اليونان والاكراد وحتى من الاوروبيين . الا ان اللغة التركية او الجركسية ظلت لغة الطبقة المسيطرة التي كان الكثيرون من افرادها ، وبينهم بعض السلاطين ، لا يتكلمون العربية الا نادراً . وكانت دولة المماليك في عهد بيبرس وخلفائه تستند الى ادارة ثنائية دقيقة يشرف على شقيّها المدني والحربي زعماء المماليك يعاونهم الموظفون المدنيون .

وتوالى سلاطين المماليك على عرش السلطنة حتى سنة ١٣٨٣ م

طبقاً لنظامهم الذي كان في جملته نظاماً وراثياً . اما بعد هـــذا التاريخ فقد اصبح العرش من نصيب أشد قادتهم بأساً وسطوة . وحين كانت تحضر أحد سلاطينهم الوفاة كان يخلفه على العرش ابنه كرئيس شكلي ، ويظل في كرسي الحكم الى ان يتفق المماليك فيما بينهم على من يحكمهم .

وخلال الفترة الاولى من حكم المماليك كانوا مهددين من قبل اعدائهم المسيحيين والمغول . وكان اعظم ما فعلوه هو دفاعهم عن الحضارة الاسلامية في الشرق الادنى ضد أعدائهم هؤلاء . وخلال القرن الخامس عشر ظهرت دولة جديدة وهي الدولة العثمانية التي ارتفعت كالطود الشامخ من بين أنقاض السلطنة السلجوقيـــة في الاناضول . وكانت العلاقات القائمة بين الدولتين ودية في اول الامر . وقام النزاع بينهما عندما حوّل الاتراك أنظارهم الى آسيا ، وذلك بعد ان ثبتوا اقدامهم في اوروبا .

وكانت التجارة مع اوروبا ، وخاصة ما كان قائماً منها بـين اوروبا والشرق الاقصى عَبْر الشرق الادنى ، ذات اهمية حيوية لمصر بسببٍ مما كانت تفيده من مواد التجارة ، وما كانت تفرضه عليها من مكوس . وتمكنت حكوماتُ المماليك في عهود قوتها من ان تحمي وتشجع هذه التجارة التي جلبت لمصر الرخاء وبعثت فيها ازدهاراً جديداً للفنون والآداب . وعلى الرغم من ان بيبرس تفادى من خطر المغول ، فقد ظلّ هذا الخطر ماثلاً . وبين سنتي ١٤٠٠ – ١٤٠١ م اجتاحت الجيوش التركيـــة المغولية بقيادة تيمورلنك سوريا ونهبت دمشق . وأكمل عملَ المغول بعد انسحابهم

الطاعون والجراد وغارات البدو الذين لم يعد يكبح جماحهم احد. فكان هـــذا ضربة لسلطنة المماليك اثرت في قوتها الاقتصادية والعسكرية بحيث لم تقم للمماليك بعدها قائمة.

وادى التدهور الاقتصادي وقيام ضائقة مالية في القرن الخامس عشر الى انتهاج سياسة مالية جديدة ترمي الى تحصيل اكبر مقدار ممكن من المال من تجارة المرور. وتمشياً مع هـــذه السياسة احتكرت الحكومة المنتوجات المحلية الرئيسية التي تؤلف هـذه التجارة. فدفع ارتفاع الاسعار الاوروبيين الى الانتقام لانفسهم، الامر الذي ادى الى اضطراب حياة مصر الاقتصادية برمتها.

وهناك عامل آخر مهم الا وهو انهيار عملية جمع العبيد بطريق الشراء، وذلك بسبب ما قام في وجه هـذا النظام من صعوبات في اسواق العبيد على البحر الاسود ادت الى فقدان الانتظام في الحصول عليهم والى انحطاط نوعهم.

ويرسم مؤرخو العصر صورة حية لتفاقم فساد الحكومـــة وعجزها في أيامها الاخيرة. ويشير أحدهم الى هـــذا في معرض كلامه على الوزراء فيصفهم بأنهم كانوا اوغاداً جفـاة، يستحدثون آلاف المظالم، ثم يقول بأنهم كانوا متغطرسين متعجرفين، ليس لهم ما يميزهم من علم أو ورع، وأنهم نقمة على أهل عصرهم وعلى استعداد من غير سبب لان يصبوا سيلاً من الاهانات. ويضيف الى هذا انهم كانوا يقضون حياتهم في ظلم معاصريهم وايذاء البشرية. وعندما جمع برسباي (١٤٢٢ - ١٤٣٨) قضاة المذاهب الاربعة في القاهرة وطلب موافقتهم على استحداث ضرائب جديدة فوق

ما تفرضه الشريعة قيل إن احدهم رد عليه بقوله :

« كيف نفقته بأخذ اموال المسلمين ، وكان لبس زوجته يوم طهور ولدها - يعني الملك العزيز يوسف - ما قيمته ثلاثون الف دينار وهي بدلة واحدة وزوجة واحدة . »[1]

وفي سنة ١٤٩٨ وقعت الكارثة الكبرى . ففي السابع عشر من أيار (مايو) من السنة ذاتها رست سفينة الملاح البرتغالي فاسكو دا جاما في شواطىء الهند خلال رحلته الاستكشافية البحرية حول رأس الرجاء الصالح . وعاد في آب (اغسطس) من سنة ١٤٩٩ م الى أشبونة ومعه شحنة من التوابل . وتلت هذه مباشرة رحلات استكشافية أخرى . وأقام البرتغاليون قواعد في الهند كما اقاموا تجارة مباشرة كانت ضربة قاضية على طريق حوض البحر الابيض المتوسط الشرقي ، سلبت دولة المماليك مقومات حياتها . واذ أدرك المماليك النتائج المباشرة المترتبة على هذه الاحداث ، وبسبب تحريض البنادقة اخوانهم في المصيبة الناشئة عن تحول طريق التجارة ، حاولوا بالطرق الديبلوماسية اولاً ثم بالحرب ان يدرأوا هذا الخطر البرتغالي . لكن جهودهم في هذا السبيل ذهبت ادراج الرياح . وكانت الاساطيل البرتغالية التي بنيت لمواجهة عواصف الاطلنطي تفوق من ناحية البناء والسلاح ومهارة الملاحين اساطيل المسلمين . ولم تلبث ان هزمت الوحدات البحرية المصرية وحطمت أساطيل العرب التجارية في المحيط الهندي واحداً تلو الاخر ، ونفذت الى الخليج الفارسي

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ، ص ٧٣٩ . (ط . كاليفورنيا)

والبحر الاحمر . وهكذا هُزم الشرق الادنى العربي . ولم يَبْعث الحياة في مجاري أنهاره الجافة إلاّ تدفق التجارة العالمية في القرن التاسع عشر .

وهناك ثلاثة تغيرات هامة تستلفت نظرنا خلال دراستنا لتلك الفترة الطويلة التي كنا بصددها . وأولى هذه التغيرات هي تحول الشرق الادنى عن الاقتصاد القائم على النقد الى اقتصاد يعتبر في أساسه ، على الرغم من قيام تجارة مرور خارجيـــة واسعة ذات شأن ، اقتصاداً اقطاعياً يرتكز الى الانتاج الزراعي . وثاني هذه التغيرات هو فقدان العرب الحضر والشعوب التي تتكلم العربيـة استقلالهم السياسي وخضوعهم للاتراك . أما في الصحارى الواسعة قليلة السكان فقد احتفظت القبائل العربية باستقلالها الذي استعادته اثناء فترة تـــدهور سلطان العباسيين ، كما أحبطت المحاولات المتكررة التي قامت لاخضاعها ، بل وكثيراً مـا كانت تضعف تخوم البلاد المنزرعة خلال صراعها الطويل الأمد مع الاتراك . وفي بعض المناطق الجبلية أيضاً استطاعت جماعات تتكلم العربية ان تحافظ على استقلالها . أما في سواها من البلاد ، أي في المدن وأودية الانهار والسهول المنزرعة في العراق وسورية ومصر ، فقد قُدّر لسكانها اصحاب اللسان العربي ، الا يمارسوا حكم أنفسهم طيلة ألف سنة . وتغلغل في نفوس الناس الاعتقاد بأن الاتراك هم وحدهم الذين اهلتهم الطبيعة للاضطلاع بشئون الحكم ، بحيث نجد في القرن الرابع عشر سكرتيراً من المماليك يخاطب العرب بواسطة ترجمان بالتركية لا بالعربية ، لغة وطنه ، وذلك لئلا يحط من شأن نفسه

باستخدام لغة المحكومين المحتقرة. وفي وقت متأخر لا يعدو أوائل القرن التاسع عشر اخفق نابليون لما حاول ، بعد ان فتح مصر ، ان يملأ مراكز الدولة العليا بموظفين مصريين يتكلمون العربية ، فلجأ الى تعيينهم من بين الاتراك الذين كان الناس قد اعتادوا ان يطيعوهم دون سواهم .

اما ثالث هذه التغيرات فهو انتقال مركز الثقل في البلاد التي يتكلم اهلها العربية من العراق الى مصر. اذ ان العراق بسبب سوء تنظيمه وعجزه وبعده عن البحر الابيض المتوسط، الذي قدر للتجار والاعداء ان يسلكوه فيما بعد ، لم يعد صالحاً لأن يكون مركز تلك البلاد. ولم يكن هناك معدى عن اختيار مصر الطريق التجاري الآخر ، التي تتألف من وادي نهر واحد ، وتتطلب بسبب طبيعتها ذاتها قيام حكومة مركزية واحدة — الحكومة المركزية القوية الوحيدة في الشرق الادنى العربي .

وبذهاب قوة العرب ذهب مجدهم . وورثهم حكام يتكلمون الفارسية والتركية ، وصار هؤلاء يشجعون من الشعراء من ينظم القصائد في مدحهم بلغاتهم الخاصة، وحسب أذواقهم وتقاليدهم الخاصة.

وبدأ الفرس اولاً ، ثم تلاهم الاتراك في اتخاذ لغة خاصة بهم لتكون اداة لثقافتهم الاسلامية . كما استولوا بالاضافة الى جانب زعامة الاسلام السياسية على الزعامة الثقافية أيضاً. وشهدت الفنون في العصرين السلجوقي والمغولي عهود ازدهار جديدة . اما الادبان الفارسي والتركي فعلى الرغم من اصطباغهما القوي بالتقليد الاسلامي العربي فقد انتهجا سبيلاً جديداً ذا خطوط واضحة مستقلة .

واقتصر استخدام اللغة العربية، لغةً للأدب ، بعد عصر السلاجقة، على البلاد التي يتكلم اهلهـــا العربية باستثناء محصول ضئيل من التآليف الدينية والعلمية . وزاد انتقال مركز الثقل في الاسلام الى الغرب في أهمية سورية ، وأعطى اهمية اكبر لمصر التي اصبحت الآن تضم المراكز الرئيسية للثقافة العربية .

وأدى نشوء مجتمع راكد ، تسيطر عليه نظرة دينية تقليدية جامدة ، الى انحطاط التفكير والبحث المستقلين . ووجـد اعتماد الناس الكلي في حياتهم العامة على الحكومة ما يماثلة في الادب . وترتب على النقص الهائل في عدد من يحسنون القراءة والكتابة ، وفي عدد من يؤلفون ويقرأون الكتب وعلى انعدام الاحتكاك بالحياة الحقيقية فقدان الحيوية والثقة بالنفس .

وأبرز ميزات هـــذا العصر هي تأكيد الفنانين المتزايد على الشكل واعتماد العلماء على الذاكرة . الا ان هذ العصر لم يخل من بعض الشخصيات العظيمة مثل الغزالي (١٠٥٩ – ١١١١) الذي يعد من اعظم مفكري الاسلام والذي حـــاول ان يربط بين الفلسفة الكلامية الجديدة وبين مذهب الكشف الغامض عنـــد الصوفيين . ومثل الحريري (١٠٥٤ – ١١٢٢) الذي لا يزال يعتبر عند الشعوب التي يتكلم اهلهـا العربية أعظم من رفع راية الصناعة اللفظية وحسن العبارة. ومثل ياقوت (١١٧٩ – ١٢٢٩) كاتب التراجم والجغـــرافي والاديب . ومثل تلك السلسلة من المؤرخين ، او على الاصح من جامعي كتب التاريخ، الذين ظهروا في العصور التي عقبت عصر المغـــول . وكان بين هؤلاء المؤرخ

التونسي ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) الذي يعد اكبر نابغة في التاريخ في الاسلام وصاحب أول بحث فلسفي اجتماعي في التاريخ .

وفي سنة ١٥١٧ م ، تداعت امبراطورية المماليك الواهية المتدهورة امام هجوم العثمانيين ، وظلت سورية ومصر اربعة قرون جزءاً من الامبراطورية العثمانية . وسرعان ما خضعت دول البربر الممتدة حتى حدود مراكش للسيادة العثمانية . وبفتح العثمانيين للعراق بطريق فارس سنة ١٦٣٩م اصبحت جميع البلاد التي يتكلم اهلها العربية تقريباً خاضعة لحكم العثمانيين .

ولم تتمكن الشعوب التي تتكلم العربية من الاحتفاظ بالاستقلال الفعلي الا في اماكن قليلة . ففي شبه جزيرة العرب تمكنت ولاية اليمن القائمة في الزاوية الجنوبية الغربية والتي اصبحت في سنة ١٥٣٧ م ولاية عثمانية ، من ان تستعيد استقلالها في سنة ١٦٣٥ م . وخضع حكام مكة والمدينة العرب ، وهم الاشراف ، للسيادة العثمانية ، لكنهم كانوا تابعين للقاهرة اكثر مما كانوا تابعين للقسطنطينية . أما في باقي شبه جزيرة العرب فقد تمكن البدو من المحافظة على استقلالهم في صحاريهم القاحلة . وفي منتصف القرن الثامن عشر قاموا بحركة روحية قوية تشبه من بعض الوجوه ظهور الاسلام نفسه ، وذلك حين اسس فقيه من نجد يدعى محمد بن عبد الوهاب (١٠٧٣ - ١٧٩١) فرقة جديدة تقوم على التشدد في تطبيق تعاليم الدين ونبذ الصوفية . وباسم الاسلام الخالي من الشوائب الذي ساد في القرن الاول نادى محمد بن عبد الوهاب بالابتعاد عن جميع ما أضيف للعقيدة والعبادات من زيادات باعتبارها « بدعاً »

خرافية غريبة على الاسلام الصحيح . وحرم كذلك تقديس الاولياء والاماكن المقدسة ، بل نهى عن المبالغة في تعظيم محمد ، ونبذ جميع اشكال الوساطات . وطبق نفس هذا التشدد في الابتعاد عن الشوائب على الحياة الدينية والفردية . وباعتناق الامير النجدي محمد بن سعود الوهابية أصبح لهذه الفرقة محور عسكري سياسي . وسرعان ما انتشر المذهب الوهابي بطريق الفتح في الجزء الاكبر من اواسط شبه جزيرة العرب ، وتمكن الوهابيون من انتزاع المدينتين المقدستين مكة والمدينة من الاشراف الذين كانوا يحكمونها باسم العثمانيين . بل هددوا ولايتي سورية والعراق العثمانيتين . وحدث رد الفعل في سنة ١٨١٨ م عندما جرد محمد علي والي مصر جيشاً من الاتراك والمصريين على شبه جزيرة العرب وقضى على قوة الوهابيين وحصرهم في نجد موطنهم الأصلي ، حيث عاشت هذه الفرقة محتفظة بكامل قوتها . واستطاعت في منتصف القرن التاسع عشر ان تلعب دوراً سياسياً ، وبُعثت مرة أخرى في القرن العشرين .

وفي لبنان مارس اهل المناطق الجبلية الاستقلال قبل هذا بزمن طويل . وذلك عندما قام الغزاة المسيحيون الذين جاءوا من الاناضول بتحويل اجزاء الجبل العليا الى جزيرة مسيحية قائمة في وسط محيط اسلامي . وظلت أسر محلية شبه مستقلة ، بعضها مسيحي وبعضها درزي والبعض الآخر اسلامي ، تحكم أجزاء من جبل لبنان في ظل السيادة العثمانية وتتمتع بقدر من الاستقلال يتوقف مداه على فعالية الحكم التركي .

وواصل العثمانيون اخضاع باقي البلاد للأتراك ، وكانت هذه الحركة قد بدأت في زمن المعتصم واشتدت في ايام السلاجقة والمماليك . اما الحركات الاستقلالية التي ظهرت في الولايات العربية فقد قام باكثرها الولاة الاتراك لا الزعماء المحليون .

وابقى العثمانيون في مصر على طبقة المماليك ، وفرضوا عليها والياً عثمانياً وحامية عثمانية . لكن النظام الاقطاعي فقد طابعه الحربي واصبح يرتكز الى الدخل اكثر مما يرتكز الى الخدمة العسكرية . واصبحت معظم الاقطاعات تتبع نظام الالتزام ، وهو منح حق الانتفاع بجزء معين من اراضي الدولة لموظفي الحكومة مع تحديد حق توريثها والتصرف بها . وكان الملتزم يقوم بجمع ما يؤديه الفلاحون الذين لا يملكون الارض . وكان كلٌ من الملتزم والفلاح يدفع الضرائب . وكان على ورثة الملتزم اذا ارادوا ان يخلفوه ان يدفعوا ضريبة معينة . وعندما ضعف السلطان المركزي استولى البكوات المحليون على السلطة واصبح الوالي مجرد مراقب لمشاحناتهم . وكان البكوات في بعض الاحيان يقبضون على زمام السلطة .

وأحدث الفتح العثماني تغييراً اكبر في سورية . ففي اوائل القرن السابع عشر كانت البلاد مقسمة الى ثلاث ولايات عثمانية وهي ولاية دمشق وولاية حلب وولاية طرابلس ، ثم أضيفت اليها ولاية رابعة سنة ١٦٦٠ م وهي ولاية صيدا . وكان يحكم كل ولاية منها والٍ يشتري منصبه ويتمتع بقسط وافر من حرية التصرف في ولايته ، يتوقف مداه على الظروف وعلى شخصيته .

وكانت الولايات نفسها تتبع اساليب الاقطاع العثمانية . وكانت اكثر الارض مقسماً بين اصحاب الاقطاعات واكثرهم من الاتراك . وكانت هذه الاقطاعات شبه وراثية يلتزم صاحبها دفع الضرائب السنوية والخدمة مع اتباعه في الجيش . اما حقوق الملتزم فهي جمع الضرائب وممارسة حقوق السيد الاقطاعي على فلاحيه . وكان قسم كبير من أراضي الدولة يُمنح بطريق الالتزام لكبار رجال البلاط العثماني في القسطنطينية . وكان الولاة يتمتعون بقدر كبير من حرية التصرف والسلطة كان يزداد كلما ابتعدوا عن القسطنطينية او ضعفت الحكومة العثمانية .

وفي بادىء الأمر عاد الحكم العثماني على البلاد بالخير لما جلبه من الرخاء والأمن النسبيين في إعقاب حكم المماليك المتأخرين التعسفي . لكن عندما حل القرن الثامن عشر نتج عن التدهور الاقتصادي ان ساءت الادارة وانتشر الفساد وعمت الفوضى وسيطر الجمود . وبقي روح الثورة حياً ملحوظاً خلال هذه الفترة الطويلة من الحكم الأجنبي – هذا الحكم الذي جمع بين ثقافتين جمعاً كان من شأنه أن يؤدي دوماً الى الضرر المتبادل بينهما ، في حين كان مصير كل من هاتين الثقافتين مرتبطاً بمصير الأخرى . نعم ، كانت الحركة الاسماعيلية قد فقدت اهميتها بعد غزوات المغول ، لكن حلت محلها حركات جديدة . وحتى في زمن المماليك كان شعب مصر المتكلم بالعربية يثور من وقت الى آخر . وكان يقوم بالحركات الاستقلالية المتفرقة زمن العثمانيين افراد من اصحاب الطموح اكثرهم من الولاة العثمانيين انفسهم . اما حركة المعارضة

الشعبية الحقيقية التي تستند الى التقليد الأسلامي فقد ظهرت بثوب ديني في التصوف. وكانت هذه الحركة في البداية مجرد تجارب فردية غامضة ثم تحولت الى حركة اجتماعية التف حولها اتباع كثيرون من بين أفراد الطبقات الدنيا ونظموا أنفسهم في طرق الدراويش التي كانت في الغالب مرتبطة بنقابات أصحاب المهن. ولم يكن المتصوفة يعتبرون من الناحية الرسمية خارجين على الدين كما كان الاسماعيلية. وكانوا لا يقومون بنشاط سياسي. اما في الدين فقد رفعوا لواء ايمان صوفي شخصي في وجه العقيدة السماوية الرشيدة. كما استطاع الصوفية في بعض الاحيان ان يؤثروا فيها. اما ما قاموا به في الميدان السياسي فكان في اكثر الاحيان مضاداً للحكم القائم. غير ان الثورة الصوفية فشلت في تسربها، كما فشلت الثورة الاسماعيلية العنيفة. اما عوامل الجمود فكانت قوية جداً، ولم يتم تغير حقيقي الا عندما ظهرت عوامل جديدة خارجية اقوى واشد من الحوافز الهلينية التي كانت الدافع الاساسي للنهضة الاسلامية في القرون الوسطى.

الفصل العاشر

تأثير الغرب

« انك تتطلع الى خزائن العرب العامرة ،
وتعد الخطط الحربية القاسية
لملوك سبأ الذين لم يخضعوا بعد ،
وتطرق السلاسل لميدو الشرس . »
(هوراس : الاناشيد ١ ، ٢٩)

لقد كان العرب على اتصال بغرب اوروبا منذ عهد الفتوحات الاولى . ذلك انهم حكموا في اسبانيا وصقلية شعوباً اوروبية غربية ، واقاموا مع دول غرب اوروبا الاخرى علاقات عسكرية وديبلوماسية وتجارية ، كما استقبلوا طلاباً من غرب اوروبا في جامعاتهم ، وكان الصليبيون قد جلبوا قطعة من غرب اوروبا الى قلب الشرق العربي . ومع ان الغرب افاد من هذا الاحتكاك فان العرب لم يتأثروا كثيراً به . فقد ظلت العلاقات بالنسبة لهم خارجية وسطحية ، ولم يكن لها سوى تأثير ضئيل على حياة العربي وثقافته . ويعكس لنا الادب العربي القروسطي في التاريخ والجغرافيا عدم اهتمام العرب بغرب اوروبا. فقد اعتبروه عالماً من الجهل والتأخر بعيداً لا يُخشى خطره على بلاد الاسلام المشرقة ،

وليس عنده من المعارف ما يقدمه لهم . ويقول المسعودي ، احد جغرافيي القرن العاشر: « واما اهل الربع الشمالي، وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم ... فغلب على نواحيهم البرد والرطوبة ، وتواترت الثلوج عندهم والجليد ، فقل مزاج الحرارة فيهم ، فعظمت اجسامهم، وجفت طبائعهم، وتوعرت اخلاقهم ، وتبلدت أفهامهم ، وثقلت ألسنتهم . . . ولم يكن في مذاهبهم متانة ... ومن كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء والبهائمية ». ويعدد قاضٍ من طليطلة [وهو ابن صاعد الاندلسي] في القرن الحادي عشر في كتابه « طبقات الامم » الاممَ التي عنيت بالعلم وهي : « أمم الهند والفرس والكلدانيون والعبرانيون واليونانيون والروم وأهل مصر والعرب . » ويضيف الى ذلك أن « أنسب الامم الاخرى [التي لم تعنَ بالعلوم] هي الصين والترك . » أما الامم الباقية فكانوا موضع ازدرائه ، ويصفهم بقوله : « أشبه بالبهائم منهم بالناس ... وأن من كان منهم موغلاً في بلاد الشمال... عظمت ابدانهم ، وابيضت الوانهم، وانسدلت شعورهم، فعدموا بها دقة الافهام وثقوب الخواطر ، وغلب عليهم الجهل والبلادة ، وفشا فيهم العمى والغباوة .» وقد كان لمثل هذا الموقف في بادىء الامر ما يبرره ، لكنه اصبح ، بعد أن قطعت أوروبا الغربية شوطاً في مضمار التقدم ، قولاً قديماً خاطئاً .

ومنذ أوائل القرن السادس عشر نلاحظ قيام علاقات جديدة بين الاسلام وبين الغرب الذي كان قد سجل تقدماً علمياً كبيراً في صناعات الحرب والسلم . إذ كان الغرب قد شهد بعثاً جديداً

بتأثير حركتي النهضة والاصلاح الديني: فبانحلال النظام الاقطاعي في بلدانه تحررت التجارة من كل قيد وقويت روح المغامرة والابتكار، كما أن التجارة والمغامرات لقيت هناك سنداً في توطيد الحكومات القومية المركزية. وهكذا اخذت أوروبا الغربية تقوم بحركتها التوسعية العظيمة التي مكنتها من أن تجعل العالم كله يدور في فلكها الاقتصادي والسياسي.

أما في الشرق الأدنى فقد كان ظهور الامبراطورية العثمانية بمظهر القوي يخفي وراءه ضعفاً مستحكماً وانحلالاً في النظام الاجتماعي لتلك الدولة العسكرية المستبدة. وكانت الرابطة الأخلاقية التي تحفظ وحدتها الدينية تزداد ضعفاً في كل يوم. وزاد الجمود الاقتصادي في الدولة من تأثير فساد الادارة وانحلالها وانحطاط القيم الاخلاقية. ولم يثر التغير الاقتصادي اي اهتمام لدى الطبقتين الحاكمة والمفكرة.

وكان التوسع الاوروبي في اوائل القرن السادس عشر من نوع جديد. وبدأ حين قام الفرنسيون بمفاوضة الباب العالي لعقد تحالف ضد أي عدو مشترك. ولم تلبث مهارة الفرنسيين في الديبلوماسية أن نجحت في تحويل التحالف الى اتفاق اقتصادي يمنح التجار الفرنسيون بموجبه حقوقاً وامتيازات معينة في كافة أنحاء الامبراطورية العثمانية. وحفظت هذه الحقوق فيما يعرف بامتيازات سنة ١٥٣٥ م التي كانت تكفل للتجار الفرنسيين سلامة أشخاصهم وأملاكهم، وتؤمن لهم حرية العبادة الخ. وكانت هذه الحقوق في واقع الامر امتيازات للرعايا الفرنسيين خارج بلادهم (وأصبحت

تعرف فيما بعـــد بالامتيازات الاجنبية) . ولم تكن هذه في بادىء الأمر امتيازات انتزعت من دولة شرقية ضعيفة ، بل كانت أشبه بتنازل كريم من لدن السلطان مَنَحَ بموجبـــه الفرنسيين حقوق اهل الذمة في المجتمع الاسلامي ، باعتبار مثل هـذا العمل توسعاً في تطبيق قوانين اهـــل الذمة بحيث تشمل النصارى الاجانب ايضاً .

واشتد تغلغل الفرنسيين بسرعة. فقد استغل التجار الفرنسيون فرصة اكتسابهم لهذه الامتيازات في اقامة مراكز تجارية وإنشاء بعثات قنصلية لهم في سورية ومصر. وتوالت الامتيازات بعد ذلك، فمنحت للانجليز (١٥٨٠ م) وللهولنديين (١٦١٢م) ولغيرهم من الشعوب . وأخذت التجارة الاوروبية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر تنمو باطراد ، وجعلت جماعـات عديدة من التجار تقيم في موانيء سورية ومصر ومدنها في ظل حماية القناصل.

واقتصر تقدم أوروبا العسكري ، دون التجاري ، في بلاد المسلمين الواقعة في الشرقين الادنى والاوسط حتى القرن التاسع عشر على تخومها الشمالية ، حيث واصلت روسيا والنمسا زحفهما في البلقان وشواطىء البحر الاسود الشمالية والشرقية على حساب العثمانيين . ولم تتأثر البلاد العربية إلا من الناحية التجارية ، وقـد حدث هذا التأثير بصفة خاصة على يد التجار الانجليز والفرنسيين والايطاليين الذين اخـذوا يفدون عليها للبيع والشراء . وبفتح نابليون بونابرت لمصر في سنة ١٧٨٩ م طرأ تغيير ذو شأن. اذ ان حملته هذه ، التي كانت أول غارة اوروبية مسلحـــة على الشرق

الادنى العربي منذ الحروب الصليبية ، افتتحت حقبة جديدة . فقد تحطم النظام المملوكي في الحال، وتمكن الفرنسيون من احتلال البلاد دونما اي صعوبة كبيرة. وعلى الرغم من ان حكمهم لها كان قصير الامد ، إلا أنه كان عميق الاثر. فقد كان بداية تدخل اجنبي مباشر في العالم العربي ذي نتائج اقتصادية واجتماعية عظيمة. وحطم النصر السهل الذي احرزه الفرنسيون ما وقر في اذهان العرب من ان الاسلام متفوق على الغرب الكافر تفوقاً لا ينازع ، كما أن انتصارهم هذا خلق للمسلمين معضلة شائكة عميقة وهي مسألة تكييف انفسهم بصورة تتلاءم مع العلاقات الجديدة . ولا تزال الارتباكات النفسية التي ولدها الوضع الجديد تنتظر الحل .

وانتهت فترة الفوضى التي عقبت انسحاب الفرنسيين من مصر بظهور محمد علي، وهو احد الجنود الألبانيين الذين حاربوا مع الجيش العثماني . ولم يلبث محمد علي ان نجح في ان يجعل من نفسه حاكماً مستقلاً في مصر. واستطاع بعد ذلك ان يحكم بلاد العرب وسورية ، لكن الدول الغربية حملته مدةا خرى على ان يقصر سلطانه على مصر .

وافسدت الدول العظمى على محمد علي جهوده في سبيل الاستقلال والتوسع . فلم ينجح الا في اقامة حكومة وراثية في مصر ، الولاية العثمانية التي كانت تتمتع بالحكم الذاتي . ولكنه وضع برنامجاً اصلاحياً شمل اصلاحات كثيرة كانت في الاصل ذات اهداف عسكرية ترمي الى خلق جيش من النوع الاوروبي . ومن اجل تحقيق اهدافه قام بوضع سلسلة

من الاجراءات الاقتصادية والتعليمية . وقد صادفت مشروعاته الاقتصادية على وجه الخصوص نجاحاً . اما المشاريع التي قام بها لتصنيع البلاد فقد انتهت بالفشل . وقام محمد علي ايضاً بتحطيم النظام الاقطاعي القانوني الذي كان نافذاً في مصر وسورية، كما نهض بالزراعة وأقامها على أسس علمية . أما في ميدان التعليم فقد افتتح مدارس جديدة زودها بأساتذة استحضرهم من الغرب، وشجع ترجمة الكتب الغربية ، وقام بطبعها في مطبعة انشئت لهذا الغرض في القاهرة . وأوفد كذلك بعثات علمية الى اوروبا كثر عددها فيما بعد . وأدى التوسع في زراعة القطن الى توثيق صلات مصر الاقتصادية بغرب اوروبا ، وخاصة مع انجلترا ، السوق الرئيسية للقطن المصري . وبانتشار اللغات والافكار الاوروبية، بفضل التعليم في الداخل والبعثات العلمية الى الخارج ، تعرضت النظرة التقليدية لتأثير الافكار الجديدة .

ولم يكن محمد علي عربياً ، بل كان عثمانياً يتكلم التركية . ولم يكن ليفكر في انشاء امبراطورية عربية من شعب كان هو نفسه ، مثل معظم أتراك ذلك العصر ، يحتقره . الا انه كان يحكم بلاداً عربية منحها درجة من الاستقلال السياسي ، وانشأ جيوشاً مصرية وسورية ـ كما ان ابنه ابراهيم كان بالاضافة الى انه يتكلم العربية ، متأثراً بالفكرة العربية .

وعادت سورية الى الامبراطورية العثمانية بعد انسحاب جيوش محمد علي منها في سنة ١٨٤٠ م . الا ان عملية تحطيم النظام الاقطاعي واحلال ادارة مركزية في محله استمرت تحت رعاية

الدولة العثمانية . وقوّت الاصلاحات العثمانية من مركزية الحكم . فقد توقفت الدولة عن منح الولايات لولاة من رجال الجيش ، واصبحت الولايات مقاطعات ادارية يحكمها موظفون تعينهم وتدفع رواتبهم الدولة . ومع أن ملاكي الارض ُحرموا من امتيازاتهم الاقطاعية وسلطاتهم القانونية ، فقد احتفظوا بتفوقهم الاقتصادي والاجتماعي ، وظلوا هم الطبقة المسيطرة في الحياة الاقتصادية .

وكان النشاط الاقتصادي في اوروبا قد دخل في هذه الأثناء مرحلة جديدة ، فلم يعد اهتمام الاوروبيين منصرفاً بصفة رئيسية الى التجارة ، بل اتجه الى تنمية موارد البلاد ومصالحها ، وخاصة الى طرق المواصلات والسيطرة عليها إما مباشرة بالحصول على الامتيازات ، وإما بطريق غير مباشر وذلك بتقديم القروض المالية للحكومات المحلية .

ومنذ ايام فاسكو داجاما صار الاوربيون يسافرون الى الهند بحراً حول رأس الرجاء الصالح لتحقيق اغراضهم الحربية والتجارية ، الامر الذي كان يمكنهم من الابتعاد عن الشرق الاوسط . غير ان بعضهم اخذ في هذه الاثناء يفكر في العودة الى الطرق البرية القديمة المعروفة ، بل لقد حاول نفر منهم سلوك هذه الطرق ، لكن محاولاتهم لم يحالفها النجاح . ووجهت حملة نابليون الانظار الى امكانية تحقيق هذا الامر . ثم تحقق بالفعل عندما ظهرت السفن البخارية التي لا تعتمد في سيرها على الرياح الموسمية في البحار الشرقية .

وكانت السفن الاوروبية منذ قرون تخترق من حين الى آخر البحر الاحمر والخليج الفارسي حاملة منتوجات جزر الهند الشرقية الى اسواق البصرة وجدة ، بل واحياناً الى السويس. ومنذ أوائل القرن قامت الشركات البريطانية بانشاء خطوط ملاحية منتظمة بين الهند والبصرة والسويس . ولكي تؤمن هذه الخطوط وضعت خرائط للبحار العربية ، وقضت على اعمال القرصنة العربية بقوة السلاح ، ووضعت يدها في الوقت ذاته على مراكز لتزويد السفن بالفحم وعلى مواقع استراتيجية لأغراض الحماية .

وانتهت سلسلة الحملات التي جردت من بمباي على القبائل التي كانت تغير بصورة مستمرة على سواحل بلاد العرب الشرقية والجنوبية بعقد معاهدة سنة ١٨٢٠ مع امراء الخليج . وبهذا وُضعت اسس السيادة البريطانية على هذه المنطقة . وقويت هذه السيادة على مراحل خلال القرن التاسع عشر . واستدعت أعمال القرصنة الرائجة دون عناء والتي كان يقوم بها سلطان عدن احتلال سلطنته في سنة ١٨٣٩ م ، الامر الذي أمّن سبل الوصول الى البحر الاحمر . وقامت شركة ملاحة بريطانية بتسيير خطوط ملاحة منتظمة في البحر الابيض المتوسط الى مصر وسورية ، وسرعان ما تلتها شركات فرنسية ونمساوية وايطالية فأنشأت خطوط ملاحة مماثلة .

وبعد زمن وجيز حدث تطور مشابه في الطرق البرية الواصلة بين البحرين المتوسط والاحمر . وحتى سنة ١٨٠٠ م لم تكن في الشرق العربي طريق معبدة او عجلات للنقل . وكان النقل يقتصر

على استخدام الدواب والمواصلات المائية الداخلية. لكن رؤوس الاموال الاوروبية والمهندسين الاوروبيين احدثوا تغييراً واسعاً. فقد قام ضابط بريطاني في سنة ١٨٣٤ م بمسح الطرق في العراق ومصر. وأخذت المراكب البريطانية البخارية تقوم بأعمال الملاحة في أنهار العراق، وبهذا وصلت أراضي ما بين النهرين بالبصرة والخليج الفارسي. لكن الاختيار وقع آخر الامر على مصر لا العراق. وأول من بدأ العمل في هذا الميدان هي شركة الهند الشرقية، ثم تلتها في سنة ١٨٤٠ م شركة البواخر العربية والشرقية واستخدمتا طريقاً برية بين الاسكندرية والسويس. وسيرتا كذلك القوارب البخارية في النيل والطرق المائية الداخلية، كما استخدمت العجلات في الطرق التي انشئت خصيصاً لها. وفي سنة ١٨٥١ م تعاقد والي مصر مع جورج ستيفنسن على مد أول خط حديدي في مصر. وقد تم مده سنة ١٨٥٦ م، ثم مد خط آخر في السنة التالية بين القاهرة والسويس. وازداد عدد هذه الخطوط الحديدية بسرعة. فلم تحلّ سنة ١٨٦٣ م حتى كان في مصر ٢٤٥ ميلاً من الخطوط الحديدية، وما يزيد على الف في سنة ١٨٨٢، وبلغت في سنة ١٩١٤ ثلاثة آلاف ميل ونيفاً. وبافتتاح قناة السويس في السابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٦٩م تمّ بصورة نهائية أمرُ اعادة فتح الطريق بين مصر والبحر الاحمر، وأصبحت هذه القناة مفتاح مصر نفسها.

أما في مناطق آسيا العربية البعيدة عن الطرق الرئيسية فقد جاء تحسين طرق المواصلات متأخراً وبصورة بطيئة. وقامت بانشاء

معظم الطرق فيها الشركات الفرنسية التي عبّدت الطرق في داخل سورية ، ومدّت بين سنتي ١٨٩٢ و ١٩١١ م حوالى خمسمائة ميل من الطرق الحديدية في سورية وفلسطين ، وبذلك أوجدت شبكة من المواصلات بين عدد من المدن الكبرى . وقـــام الاتراك انفسهم بمد سكة حديد الحجاز على طريق الحج بين دمشق والمدينة . وفي الوقت ذاته ، أي قبيل سنة ١٩١٤ م كانت سكة حـــديد بغداد الشهيرة التي انشأها الالمان بطريق حلب والموصل قد كملت تقريباً . وحدث تقدم مشابه في انشاء الموانيء وإقامـــة الجسور وشق الترع وإدخال التلغراف وغيرهـــا من المصالح . وكانت الشركات التجارية الاوروبية قد بدأت منذ سنة ١٨٦٠ م تعمل على توفير المياه والغاز وانشاء المواصلات داخل المدن ، والقيام بخدمات اخرى في بعض الموانيء الرئيسية والمدن الاخرى .

لكنْ ، لما كان هذا التطور العظيم يستهدف بصورة اساسية طرق المرور فلم يكن له سوى تأثير ضئيل في اقتصاديات البلاد التي تقطعها هذه الطرق . وبتحوّل طريق الاتصال البرية الرئيسية من الخطوط الحديدية الداخلية في مصر الى قناة السويس في سنة ١٨٦٩ لفترة من الزمن ، ضعف التأثير المباشر في اقتصاديات مصر ، وضعف بالتالي تطور انماء الموارد الاقتصادية في البلاد العربيـة . وكان أهم التطورات التي حدثت هو التوسع في زراعـــة القطن وقصب السكر . ويعود الفضل في ذلك الى تقدم اعمال الري كنتيجة لاستخدام الوسائل الحديثة والى ازدياد الخطوط الحديدية والطرق والموانيء مما ساعد على سرعة نقل المحاصيل الى الاسواق الكبرى .

أما التغيرات التي حدثت في القرن العشرين فهي أهم بكثير. فقد أضاف اصطناع الاحتراق الداخلي في تسيير الآلة الطائرة وسيارات الركاب والشحن الكبيرة الى وسائل النقل. واحدثت الطائرة انقلاباً في طرق المرور من الناحيتين الاقتصادية والاستراتيجية، بينما اوجدت سيارات النقل والركاب شبكة عامة داخلية من طرق المواصلات تشمل الشرق الاوسط كله، الامر الذي سهل انتقال الناس وتبادل البضائع والافكار على مقياس لم يكن يحلم به احد حتى ذلك الحين. وكان استخدام سيارات الركاب الصغيرة والكبيرة وسيارات الشحن الكبيرة مكان الحصان والحمار والجمل هو العامل الوحيد الذي وحّد اكثر من غيره وجه العالم العربي كله. وحدث تطور مقابل وهو استخراج النفط الذي يعتبره العالم الخارجي اهم الموارد الطبيعية في بلدان الشرق الاوسط. فقد كان نشاط شركات النفط، بعد ان اقتصر بضع سنوات على الاناضول وفارس، على وشك ان يشمل العراق ايضاً لولا ان نشوب الحرب العظمى في سنة ١٩١٤ م حال دون ذلك. ولم يتم استغلال نفط العراق الا بعد نهاية مؤتمر الصلح. فقام عدد من الشركات، تسيطر عليها المصالح البريطانية، بمزاولة نشاطها في انحاء البلاد المختلفة. وبدأ بعد ذلك استخراج النفط من المملكة العربيـــة السعودية حيث تسيطر المصالح الأمريكية. وأحدثت شركات النفط بانشاءاتها الضخمة، وباستخدامها العرب بأعداد كبيرة، وبخطـــوط أنابيبها ومصانع تكرير النفط تغييراً يفوق حد التصور من النـــاحيتين الاقتصادية والاستراتيجيـــة؛

وأحدث تقدم تصنيع مصر وفلسطين ، على الرغم من انه لا يزال في مراحله الاولى، تغييرات اجتماعية بعيدة الاثر.

وقد تسربت الثقافة الاوروبية في أول الامر عن طريق الدين على يد الاقليات المسيحية . فقد كان الفاتيكان على اتصال بموارنة لبنان منذ القرن السادس عشر . وكان اليسوعيون والرهبان الكبوشيون الايطاليون والفرنسيون، يزاولون نشاطهم في سورية. وكان الكهنة الموارنة يفدون على روما وباريس . ومنع سلاطين العثمانيين الطباعة بالعربية والتركية زمناً طويلًا . وكانت المطابع الاولى التي جلبت الى الشرق الادنى ذات حروف عبرية ويونانية وسريانية فاستخدمها اليهود والمسيحيون من ابناء البلاد . إلا ان الكتب العربية كانت تُطبع في ايطاليا وغيرها من بلاد الغرب ، ومن ثم كانت توزع في الشرق الادنى . وبدأ الاتراك الطباعة في القسطنطينية في سنة ١٧٢٨م . ثم جلب نابليون الى القاهرة مطبعة ذات حروف عربية لطبع الصحف والبلاغات بالعربية والتركية .
وأول مطبعة اسلامية وجدت في العالم العربي هي التي اوجدها محمد علي في مصر . وقد قامت هذه المطبعة بين سنة ١٨٢٠ ، وهي السنة التي انشئت فيها ، وسنة ١٧٤٢ م بطبع ٢٤٣ كتاباً اكثرها كتب مدرسية لطلبة المدارس الجديدة وكليات التدريب التي انشأها محمد علي . ومما يستلفت النظر ان عدد الكتب التي طبعت بالتركية يفوق ما طبع بالعربية ، وان المؤلفات في المواضيع الحربية والبحرية والرياضية والميكانيكية تكاد تكون كلها بالتركية .

واشتدت خلال القرن التاسع عشر المنافسات التي قامت بين الدول العظمى من اجل حماية الاماكن المقدسة ، وبالتالي للمحافظة على مصالحها . وكانت اكثر البعثات التبشيرية نشاطاً في العالم العربي هي بعثات الجزويت الفرنسيين والارسالية الامريكية الانجيلية . فقد قامت هذه البعثات بفتح المدارس والكليات في سورية ، وبجلب مطابع ذات حروف عربية أخرجت كثيراً من الكتب التي ذكّرت العرب بتراثهم الذي كانوا قد نسوه تقريباً ، واخرجت كذلك ترجمات لبعض المصادر العلمية الغربية . وعملت هذه البعثات على تربية جيل من العرب سرعان ما ازداد تقديره للتراث العربي وتأثره بالمؤثرات الغربية .

لكن النتائج الاجتماعية التي أسفرت عنها هذه التغيرات كانت اضيق نطاقاً مما يتوقعه المرء . فان الطبقة الوسطى الجديدة من اهل البلاد كانت تتألف من تجار ومفكّرين ينتسبون الى الاقليات . ولم يكن في وُسع هذه الطبقة أن تقوم بدورها الكامل لأنها كانت تعيش في حال من عدم الاطمئنان وفي عزلة عن باقي السكان . ولكن لما كانت هذه الطبقة تتكلم العربية وتكتب بها فقد قام السوريون ممن تلقوا تعليمهم على ايدي المبشرين بانشاء جرائد ومجلات دورية في مصر وسورية كانت تزداد انتشاراً كلما قوي تأثر السكان بالتغيرات الاقتصادية والاجتماعية . وفي هذا الدور وُلدت القومية العربية التي كانت في الاصل مزيجاً من عناصر مختلفة . فقد انضاف الى كُره العرب القديم للأتراك والى الريبة وعدم الثقة الشديدين

بالغرب الزاحف عليهم فكرةُ القومية من الغرب ، وإحياءُ مجد اللغة والثقافة العربيتين . وكانت القومية أقوى مـــا تكون بين المسيحيين الذين كانوا اقل تأثراً من غيرهم بفكرة الوحدة الاسلامية ، واكثر تأثراً من سواهم بالتغيير الاقتصادي ومؤثراتِ الثقـــافة الغربية . ولم يكن في استطاعة النصراني ان يؤيد فكرة الوحدة الاسلامية التي كانت تعبيراً سياسياً حديثاً عن الجماعة الاسلامية القديمة ، بل كان يسعى الى تعبير جديد عن وحدة الشرق وسُخطه على الغرب المعتـــدي . ولم يتضح أبداً للمسلم الفرق الحقيقي بين هاتين الصيغتين من صيغ التعبير. وكان السبيل للتعبير عن الرابطة الاساسية اجتماعياً ودينياً ، كما ان المجتمع الاسلامي كله كان يستخدم احياناً للتعبير اصطلاحات قومية واحياناً اخرى اصطلاحـــات دينية كما لو انها مجاميع من الكلمات المترادفة تدل على الحقيقـــة الاساسية ذاتها .

واخذ يتعاظم شأن الحركة القومية نتيجة لفرض السلطان الاوروبي المباشر على اطراف العـــالم العربي في بادىء الامر ، وذلك باحتلال الفرنسيين للجزائر سنة ١٨٣٠ م والبريطانيين لعدن في سنة ١٨٣٩ م ثم بفرضه بعد ذلك في قلب العالم العربي ذاتـه . وفي سنة ١٨٨٢ م احتل البريطانيون مصر التي تؤلف قلب العـالم العربي . وقد أدى احتلالها الى اشتداد الحركة القومية فيهـا ؛ إلا أن هذه الحركة اصطبغت بصبغة محلية أقوى بسبب وجود مظالم وأهداف أكثر وضوحاً .

وفي هذا الوقت أخذت الحركة القومية تظهر بشكل سياسي

في الجمعيات السياسية أولاً ثم في الاحزاب السياسية . إلا أن اصطناع الأشكال الدينية القديمة للتعبير عن الأهداف الاجتماعية لم يكن قد زال من الأذهان . فقد بُعثت الوهابية ثانيـــة في شبه جزيرة العرب عندما بدأ عبد العزيز بن سعود حركة من التوسع أضاف خلالها المحاربون الوهابيون معظم بلاد العرب الى موطنهم نجد . واستولى ابن سعود على الاحساء في سنة ١٩١٣ م ، وعلى جبل شمر في سنة ١٩٢١ وعلى الحجاز بين سنتي ١٩٢٤ و ١٩٢٥ . وفي سنة ١٩٣٢ م أعلن قيام المملكة العربية السعودية ، كما أعلن أن الوهابية هي العقيدة الرسمية للدولة . لكن التعبير الاساسي المنظم اتخذ منه الآن شكلاً سياسياً على النهج الغربي .

غير أن تأثر الحياة الاجتماعية هـذا بالغرب لم يتعد في الأعم الاغلب الكيان الخارجي ، لأن الأساس الحقيقي للمجتمع لم يكن قد أصابه تغيير أساسي بعد . وعلى الرغم من الغاء الامتيازات والحقوق الاقطاعية بصورة قانونية ، فلم يطرأ على العلاقة الاقطاعية بين الملاك والفلاح سوى تغيير طفيف ، وظل الملاكون يحتكرون الزعامة الفعلية . ولم يكن لطبقات التجار ، وكانوا من غير المسلمين ، في الاغلب ، علاقة بهذا الصراع . وظلت الطبقة الحاكمة على حالها ، متمسكة بأفكارها ومصالحها الأساسية . واقتبست الوسائل السياسية الأوروبية الغربية ، كالبرلمانات والانتخابات والاحزاب والبرامج الحزبية والصحف والاتجاه للرأي العام باعتباره مصدر السلطة ، جاهزةً من الغرب ، وفُرضت على واقع اجتماعي لا يستجيب لها . ولهذا جاء طابع الحركات التي تخطت نطاق التكتلات الصغيرة

قوياً من الوجهة الدينية الى درجة ان ثورة تركيا الفتاة لم يكن لها سوى تأثير محدود في العرب الذين كانوا لا يزالون تحت سيطرة العثمانيين. ولم يكن لاحلال الرابطة التركية محل الاسلام كأساس للامبراطورية العثمانية وكبرنامج لتتريك الدولة الا ردّ فعل ضئيل في سورية ، بل لم يكن له رد فعل يذكر في العراق او في شبه جزيرة العرب .

وعندما نشبت الحرب العالمية الاولى في سنة ١٩١٤ م كان الشعور الاسلامي لا يزال قوياً مسيطراً . وكان اكثر المسلمين العرب لا يزالون على ولائهم للاتراك الذين كانوا يلقون عطفاً في مصر المحتلة من قبل الانجليز . الا ان القومية العربية تطورت تطوراً سريعاً بسبب الظروف التي اكتنفت سني الحرب وبسبب ما بذله الحلفاء من جهود . اذ نجح الانجليز في سنة ١٩١٦ م في اشعال نار ثورة عربية في الحجاز . وقام المتطوعة من البدو ، مقابل ما كانوا يتلقونه من معونة مادية مباشرة ، ووعد العرب بالاستقلال بعد الحرب ، بمساعدة الجيوش البريطانية في فتح سورية.

وعلى الرغم من ان مؤتمر الصلح خيَّب الكثير من آمال العرب فانه منحهم الكثير . فقد أُسست حكومات في العراق وسورية ولبنان وشرقيّ الاردن وفلسطين بعد أن ألغت جيوش الحلفاء الحكم التركي . الا ان الاستقلال الذي كان يصبو اليه العرب لم يتحقق عندئذ وأقيمت بدلاً منه الانتدابات البريطانية والفرنسية. ووجدت خيبة آمال العرب ، التي ازدادت وضوحاً بسبب التطور الاقتصادي السريع الذي تم فيما بين الحربين العالميتين ، تعبيراً عنها

في سلسلة من الحركات القومية العنيفة حافظت على طابع الحركات السابقة فاصطبغت بصبغات دينيـة ، واتخذت زعامات وسياسات متمشية مع النظام الاجتماعي القديم . لكن على الرغم من هذا ، وربما كان نتيجة له ، فقد كانت هذه الحركات في وقتها حركات شعبية بالفعل ، وذات أثر في كل جزء من اجزاء المجتمع العربي ، وشمل تأثيرها الاقليـات المثقفة صاحبة الوعي السياسي التي قدمت الزعامـة والافكار للفلاح الأمي التعس كوسيلة للتعبير عن ذلك المزيـــج المبهم من الخوف والسخط اللذين تولدا في نفسه ازاء هذه القوى الأجنبية الهائـلة التي كانت تعمل على تغيير اسلوبه الحياتي باجمعـه .

وكان الصراع مريراً ومستمراً . وأحـرز القوميون نجاحاً أساسياً في سعيهم لتحقيق اهدافهم السياسية،فحصلت مصر والعراق في برهة وجيزة على استقلالهما الشكلي . ومن ثم تمركز الكفاح الرئيسي ضد الاستعمار في سورية ولبنان وفلسطين . وكانت الحالة في فلسطين معقدة بسبب إنشاء الوطن القومي اليهودي . وأضافت الحرب العالمية الثانيةسوريا ولبنان الى قائمة الدول العربية المستقلة. وفي آذار من سنة ١٩٤٥ وبعد تمهيد طويل تأسست الجامعـة العربيـــة . وهي تضم مصر والعراق وسورية ولبنان والمملكة العربية السعودية واليمـن وشرقيّ الاردن . وفي آذار من سنة ١٩٤٦ اصبحت الاردن دولة ذات سيـــادة . اما فلسطين ومناطق جنوب شبه جزيرة العرب الخاضعة لبريطانيا ، وبـــلاد شمال افريقية الخاضعة لفرنسا واسبانيا وما كان منها خاضعاً لأيطاليا

فقد ظلت خاضعة للحكم الاجنبي المباشر .

وجلبت الحرب العالمية الثانية تغييرات أخرى . ومع أن الدول العربية لم تقم بدور فعال فيها فقد تأثرت بها تأثراً جوهرياً . فقد أخذ دعاة الحلفاء والمحور يخطبون ودّ العرب بكل ما لديهم من وسائل . وعسكرت جيوش الحلفاء والمحور وحاربت في بلاد العرب ، واستخدمت آلافاً من العرب في اعمال التموين والوقاية وسواها من الخدمات ؛ فاغتنى البعض وتضوّر البعض الآخر . ودفعت الضائقات الاقتصادية والاجتماعية التي تولدت من ظروف الحرب نسبة متزايدة من السكان الى التفكير في مشاكل حياتهم العامة على اسس لم تخطر ببالهم من قبل. فقد أدى التغيير الاقتصادي الذي ترتب على تصنيع البلاد وعلى نشوب الحرب وعلى المؤثرات الفكرية التي نتجت عن انتشار التعليم ، الى ظهور مصالح وأفكار جديدة وزعماء جدد لا يكتفون بالتحرر الفكري الخالص الذي اعتبره بعضهم مجرد تقليد . فأخذوا يتحدون سلطان الحكام والزعماء القدماء الذي لم يكن قد تحطم بعد . وتلاشى ما كان لألمانيا من نفوذ قوي بسبب هزيمتها في الحرب . وبقيام المنافسات والتكتلات الجديدة بين الدول الكبرى امتلأ الشرق مرة اخرى بتصادم المصالح والافكار،ووجدت فرص جديدة مغرية لاحراز نجاح سياسي قصير الامد ، وحوّلت الانظار عن المشاكل الحقيقية التي كانت تواجه مجتمعاً يجتاز دوراً انتقالياً .

وكما ان الفتوح العربية أوجدت بين العقيدة الاسلامية والحضارة الهلينستية اتصالاً تولد منه شيء جديد نافع فان الاسلام اليوم

يقف وجهاً لوجه أمام حضارة غريبة تتهدد كثيراً من قيمه الأساسية، وقد تقوى على اجتذاب كثير من المسلمين الذين يقبلونها. والقوى المناهضة للاسلام هذه المرة كثيرة. اذ لم يعد الاسلام عقيدة حديثة لينة محتفظة بحرارتها التي اكتسبتها من البوتقة العربية، بل هو الآن ديانة عريقة ذات نظم ثابتة.

لكن اذا كان المعدن صلباً فالمطرقة أشد صلابة ايضاً. فالاخطار التي تحدق بالاسلام اليوم اقوى واشد واكثر عدواناً وشمولاً. ثم ان مصدر التهديد هذا ليس هو المغلوب بل هو الغالب. والمؤثرات الاوروبية – من سكك حديدية ومطابع وطائرات ودور سينما ومصانع وجامعات وباحثين عن الزيت وعلماء آثار وبنادق سريعة وافكار – قد حطمت البناء التقليدي للحياة الاقتصادية تحطيماً لا يرجى معه ترميم، كما انها تؤثر في كل عربي – في طرق معيشته، وأوقات فراغه، وحياته الخاصة والعامة – وتتطلب تعديل الاساليب الاجتماعية والسياسية والثقافية الموروثة.

وأمام الشعوب العربية طرق مختلفة لحل مشكلة التكيف طبقاً للاوضاع الجديدة: فقد يقبلون احد اشكال الحضارة الغربية المتنازعة الماثلة امامهم، فيدمجون ثقافتهم وذاتيتهم في كلٍ واسع مسيطر، وقد يحاولون ان يعرضوا عن الغرب ونتاجه وان يسعوا وراء سراب العودة الى المثل الثيوقراطية الضائعة، فيوصلهم هذا لا الى تلك المثل بل الى حكم استبدادي مُعزّز بما يقتبس من الغرب من وسائل الاستغلال والكبت ومن

اصطلاحات التعصب الرنانة. واخيراً ، وهذا لا يتم الا اذا تخلص الشرق من السيطرة الاوروبية ، قد ينجحون في تجديد مجتمعهم من الداخل فيلتقون بالغرب عـــلى اساس من التعاون المتبادل ويقتبسون شيئاً من علومه وانسانيتـــه اقتباساً جوهرياً يتلاءم مع تراثهم وتقاليدهم .

ثبت تواريخ

●

ق . م	
٨٥٣	أول ذكر للعرب في نقش شلمنصر الثالث .
٦٥	بومبي يزور البتراء – اول اتصال للرومان بمملكة الانباط .
٢٥ – ٢٤	حملة ايليوس جالوس على جنوب بلاد العرب .
ب . م	
١٠٥ – ١٠٦	سقطت دولة الانباط ، وأصبح جزء منها ولاية رومانية .
حوالى ٢٥٠	قيام « مملكة » تدمر .
٢٧٣	اوريليان يخضع تدمر .
٥٢٥	سقوط حمير – الاحباش يحتلون جنوب بلاد العرب .
٥٧٥	احتلال الفرس لجنوب بلاد العرب ، واقامتهم فيها ولاية فارسية دامت عدة سنين .
٦٠٢	نهاية امارة الحيرة العربية بين العراق وشبه جزيرة العرب .

٦٢٢	هجرة محمد من مكة الى المدينة ـ وبداية الحقبة الاسلامية .
٦٣٠	محمد يفتح مكة .
٦٣٢	وفاة محمد . ابو بكر يصبح اول خليفة .
٦٣٣ – ٦٣٧	العرب يفتحون سورية والعراق .
٦٣٩ – ٤٢	فتح مصر .
٦٥٦	مقتل عثمان ـ بداية الحرب الاهلية الاولى في الاسلام .
٦٥٧ – ٥٩	معركة صفين .
٦٦١	مقتل علي – بداية الدولة الاموية .
٦٨٠	مذبحة الحسين والعلويين في كربلاء .
٦٨٣ – ٩٠	الحرب الاهلية الثانية .
٦٨٥ – ٨٧	ثورة المختار في العراق ـ بداية فرع الشيعة المتطرف .
٦٩٦	عبد الملك يضرب النقود العربية كجزء من النظام الجديد للامبراطورية .
٧٠٩	المسلمون ينزلون في اسبانيا .
٧٥٠	سقوط الامويين وقيام العباسيين .
٧٥١	العرب يأسرون صينيين من صانعي الورق وذلك في آسيا الوسطى ، وابتداء انتشار استخدام الورق غرباً في انحاء الامبراطورية الاسلامية .

٧٥٦	الامير الاموي عبدالرحمن الداخل يصبح اميراً مستقلاً في قرطبة .
٧٦٢ -- ٦٣	المنصور يؤسس بغداد .
٧٨٨	قيام دولة الادارسة المستقلة في مراكش .
٧٩٩ - ٨٠٠	قيام دولة الاغالبة المستقلة في تونس .
٨٠٣	هرون الرشيد يوقع بالبرامكة .
٨٠٩ - ٨١٣	الحرب الاهلية بين الامين والمأمون .
٨١٣ - ٨٣٣	حكم المأمون ـ تطور العلوم العربية والوسائل .
٨٢٥	الاغالبة في تونس يبدأون بفتح صقلية .
٨٣٣ - ٨٤٢	حكم المعتصم - بداية سيادة الاتراك .
٨٣٦	تأسيس سامراء .
٨٦٨	احمد بن طولون ، احد القواد الاتراك ، يؤسس دولة في مصر ، وبعد ذلك في سورية ايضاً .
٨٦٩ - ٨٣	ثورة الزنج في جنوب العراق .
٨٧١	قيام الصفاريين في فارس .
٨٧٧	وفاة حُنين بن اسحق مترجم التآليف الاغريقية العلمية الى العربية .
٨٩٠	اول ظهور للقرامطة في العراق .
٩٠١ - ٦	الفرق القرمطية تنشط في سورية وفلسطين وما بين النهرين .
٩١٠	تأسيس الخلافة الفاطمية في شمال افريقية .
٩٢٥	وفاة الطبيب الرازي .

٩٢٩	عبد الرحمن الثالث يتخذ لقب خليفة في قرطبة .
٩٣٢	قيام دولة البويهيين الفارسية في غرب فارس .
٩٣٥	تأسيس وظيفة امير الامراء ، قائد الحرس التركي في العاصمة والحاكم الحقيقي .
٩٤٥	البويهيون يحتلون بغداد .
٩٦٩	الفاطميون يحتلون مصر ، ويؤسسون القاهرة .
حوالى ٩٧٠	الاتراك السلاجقة يدخلون بلاد الخلافة من الشرق .
١٠٣٠	الخلافة الاموية في اسبانيا تتفكك الى « ممالك الطوائف » .
١٠٣٧	وفاة ابن سينا .
١٠٤٨	وفاة البيروني .
١٠٥٥	السلاجقة يستولون على بغداد .
١٠٥٦ — ١٠٥٧	عرب بني هلال الغزاة ينهبون القيروان .
١٠٦١	النورمان يحتلون مسينة — ويبدأون احتلال صقلية .
١٠٧٠ — ٨٠	السلاجقة يحتلون سورية وفلسطين .
١٠٨٥	النصارى يحتلون طليطلة .
١٠٨٦	انتصار المرابطين في معركة الزلاقة .
١٠٩٠	حسن الصباح يستولي على ألموت .
١٠٩٤	وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر — حدوث انشقاق في الحركة الاسماعيلية — حسن

	الصباح يتزعم الجناح المتطرف (الحشاشون) .
١٠٩٦	الصليبيون يصلون الى الشرق الادنى .
١٠٩٩	الصليبيون يحتلون القدس.
١١١١	وفاة الغزالي .
١١٢٧	زنكي ، وهو قائد سلجوقي ، يستولي على الموصل — بداية رد الفعل الاسلامي ضد الصليبيين .
١١٧١	صلاح الدين يلغي الخلافة الفاطمية — ويؤسس الدولة الايوبية في سورية ومصر .
١١٨٧	معركة حطين . صلاح الدين يهزم الصليبيين ويحتل القدس .
١٢٢٠	المغول يفتحون المناطق الشرقية من اراضي الخلافة .
١٢٣٦	النصارى يحتلون قرطبة .
١٢٥٠ — ١٢٦٠	قيام السلطنة المملوكية في مصر وسورية على أنقاض الدولة الأيوبية .
١٢٥٤	الفونسو العاشر يؤسس مدرسة للدراسات العربية واللاتينية في اشبيلية .
١٢٥٨	المغول بقيادة هولاكو خان يحتلون بغداد ويقضون على الخلافة .
١٢٦٠	المماليك يهزمون المغول في عين جالوت في فلسطين ، وينقذون سورية ومصر .

١٤٠٠ — ١	تيمور يجتاح سورية .
١٤٠٦	وفاة ابن خلدون .
١٤٩٢	النصارى يحتلون غرناطة — طرد المسلمين واليهود من اسبانيا .
١٤٩٨	فاسكودا جاما يبحر الى الهند من طريق رأس الرجاء الصالح .
١٥١٧	العثمانيون يفتحون سورية ومصر — القضاء على السلطنة المملوكية .
١٥٣٥	العثمانيون يمنحون اولى الامتيازات لفرنسا .
١٦٣٩	العثمانيون ينتزعون أخيراً العراق من فارس .
١٧٩٢	وفاة محمد بن عبد الوهاب مؤسس الفرقة الوهابية في بلاد العرب .
١٧٩٨ — ١٨٠١	احتلال الفرنسيين لمصر .
١٨٠٥	محمد علي يصبح حاكم مصر الفعلي .
١٨٠٩	بداية الملاحة المنتظمة بين الهند والسويس .
١٨٢٠	اتفاق شيوخ العرب في ساحل الخليج الفارسي — بداية سيادة البريطانيين على هذه المنطقة .
١٨٢٢	محمد علي ينشيء مطبعة في مصر .
١٨٣٠	الفرنسيون يغزون الجزائر .
١٨٣١ — ١٨٤٠	احتلال مصر لسورية .
١٨٣٦	تأسيس مواصلات بحرية بخارية بريطانية منتظمة في انهار العراق .

١٨٣٦	بداية تأسيس خطوط ملاحة بريطانية منتظمة بين مصر وسورية .
١٨٣٩	بريطانيا تحتل عدن .
١٨٥١ – ١٨٥٧	مدّ خط حديدي بين الاسكندرية – والقاهرة – والسويس .
١٨٦١	منح الحكم الذاتي للبنان .
١٨٦٩	افتتاح قناة السويس .
١٨٨١	الفرنسيون يحتلون تونس .
١٨٨٢	البريطانيون يحتلون مصر .
١٩٠١	ابن سعود يبدأ في استعادة امارة نجد السعودية .
١٩٠٨	ثورة تركيا الفتاة .
١٩١١ – ١٢	الايطاليون يحتلون ليبيا .
١٩١٦	الثورة العربية في الحجاز – الشريف حسين يتخذ لنفسه لقب ملك .
١٩١٨	نهاية الحكم العثماني في البلاد العربية .
١٩٢٠	تأسيس الانتدابات في سورية ولبنان (فرنسية) وفلسطين وشرقي الاردن والعراق (بريطانية)
١٩٢٤ – ١٩٢٥	ابن سعود يفتح الحجاز .
١٩٣٢	نهاية الانتداب في العراق .
١٩٣٢	ابن سعود يعلن قيام المملكة العربية السعودية .

١٩٣٤	ابن سعود يهزم اليمن في حرب قصيرة .
	معاهدة صلح الطائف .
١٩٣٦	المعاهدة المصرية – الانجليزية – اعترافها باستقلال مصر .
١٩٤١	انتهاء الانتداب على سورية ولبنان ، سورية ولبنان تصبحان جمهوريتين مستقلتين .
١٩٤٥	تأسيس جامعة الدول العربية .
١٩٤٦	بريطانيا تعترف باستقلال شرقي الاردن – شرقي الاردن تصبح مملكة .
١٩٤٨	انتهاء الانتداب على فلسطين .

فهرست الاعلام

أ

محتويات الـكتاب

●

تصـويب

●

ص	سطر	خطأ	صواب
٩	١٣	العربية	العبرية
٢٤	١	أو على مشابه	أو على الأقل مشابه
٤٠	١٧	صيغة	صبغة
١١٠	٧	العباس	بن العباس
١٥٠	٧	جعفر	اسماعيل
١٦٣	١٢	حجز	جهّز
١٩٢	٦	النصرانية واليونانية واللاتينية	العالمين اليوناني واللاتيني النصرانيين
٢٠٣	١٨	تغيير	تعبير

أوسع المراجع في تاريخ الاسلام

الموسوعة التي وضعها

كبير المستشرقين الالمان

كارل بروكلمان

تاريخ الشعوب الاسلامية

في خمسة اجزاء

نقلها الى العربية

نبيه امين فارس — **منير البعلبكي**

الناشر

دار العلم للملايين

١٩٧ ـ ٣ ـ ٥٤ ـ ٢٠٠٠